أحمد عوني

جوائز للأبطال

رواية

المحروسة

t.me/qurssan

رواية

القرصان

جوائز للأبطال

أحمد عوني

عنوان الكتاب: جوائز للأبطال

المؤلف: أحمد عوني

مراجع لغوي: محمد حمدي أبو السعود

مركز المحروسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف: -28432157 02 002

facebook/almahrosacenter

twiter: @almahrosacenter

www.mahrousaeg.com

e.mail : info@mahrousaeg.com

e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٦٤١٤/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي: 978-977-313-756-4

جميع حقوق الطبع والنشر

محفوظة لمركز المحروسة

2019

t.me/qurssan

رواية

جوائز للأبطال

أحمد عوني

الطبعة الأولى 2019

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عوني، أحمد
جوائز للأبطال: رواية/ أحمد عوني.-ط1.-
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2018
396ص، 13.5×19.5سم
تدمك 4-756-313-977-978
1 - القصص العربية
أ- العنوان
813
رقم الإيداع 26414/ 2018

t.me/qurssan

إهداء

إلى الغالي الصافي الزهواني

رشيد طه

t.me/qurssan

1

سـمعت أن الإنسـان عـادة يبلـغ الثلاثـين ليجـد نفسـه يعـرف أخـيراً مـا يريـد، فانتظـرت. ومـع ذلـك، تفاجـأت حـين أدركـت أن اليـوم عيـد ميـلادي، ولكـن تصرفـت سريعًـا بمـا يليـق باللحظـة، وتزامنهـا مـع اكتشـافي لإفـلاسي وفـراغ جيبـي إلا مـن مئـة جنيـه.

قلـت سـتكون جميلـة الثلاثينـات؛ لأني بعـد سـاعة كنـت في ميكروبـاص متجهًـا إلى القاهـرة، وفي نيتـي خطـة، كنـت عـلى يقـين أني سـأنفذها بالكامـل: فـور وصـولي للموقـف في وسـط البلـد، سـأركب أول تاكـسي أراه، سـأعطيه مـا تبقـى معـي مـن أمـوال حـين نصـل إلى بيتـي. سـأنتظر حتـى يغـادر ثـم أتسـلق سـور البيـت كـما فعلـت مـن قبـل، وأقفـز منـه إلى الحديقـة ومنهـا سـأفتح بـاب المطبـخ الـذي أعـرف أني تركتـه مواربًـا، ومنـه إلى داخـل البيـت. هنـاك سـأفتح الـلاب تـوب، ولـن أستسـلم للغوايـة المتوقعـة التـي سـتدعوني كي أفتـح الفيـس بـوك، وأعـرف مـا فاتنـي طـوال الشـهر

الماضي. بدلاً من ذلك سأبحث عن أي بطاقة ائتمانية في البيت وأحجز بها أقرب طائرة لأمريكا، ولن أعود إلى القاهرة أبدًا، وسأذكر نفسي بقراري هذا كل يوم.

ستكون جميلة الثلاثينات، ولا أتوقع أن تأتيني فيها أحلام دون رغبة أو سيطرة مني، فتصير رغمًا عني ما أريد. في يومي الأول، في الميكروباص ونحن نقترب من القاهرة، أخضعتها لأول اختبار ونجحت فيه، نمت فوجدتني أحلم بما أريد. الشيء الوحيد الذي كنت أشتاق له في القاهرة، كان طعم الزيت في صدور دجاج كنتاكي، أغمضت عيني، فوجدتني أمام المطعم وقلت هذا حلم، وعلى الرغم من رؤيتي لهدير واقفة بجواري، وهو ما كان يرجح أني أشاهد نفسي في كابوس، فإني لم أفزع، وارتحت لكون كل هذا سينتهي حين أصل إلى أمريكا غدًا، وبالتالي لن يُطلب مني تحقيق أي شيء سأشاهده، فدخلت المطعم مع هدير وطلبت ثلاثين قطعة من صدور الدجاج، لتبث رائحة الزيت المحروق السرور في قلبي. هدير لم تكن تأكل، رغم وعيي بأن دخول المطعم كان فكرتها، كما كنت واعيًا لأن ما آكلها بنهم حقيقة هي ذاكرتي، وكان هذا يفسر كيف كانت قطع الدجاج أكثر سخونة من المعتاد، ويفسر أيضًا كيف كانت تجري في حلقي كالمياه دون أن أحس بطعمها. أما ما لم أجد له تفسيرًا، فكان طعم الشمع الذي بدأ يحتل فمي مع القطعة العاشرة، خصوصًا وقد تزامن مع رؤيتي لهدير وهي تخُرج من حقيبتها ولاعة وسيجارة، فخفت أن أكون قد بلعت فتيلاً من الشمع كان مختبئًا بين الفراخ، ورغبت في تحذيرها

t.me/qurssan

مـن خطـورة إشـعال الولاعـة، رغـم شـكي في أنهـا أدخلتنـا كنتـاكي كي تقـترب منـي وهـي تشـعل سـيجارتها فيشـتعل فمـي، ولأني في الحلم أيضًـا كنـت أخـشى مواجهتهـا، تحججـت بتذكيرهـا بـأن التدخـين ممنـوع في المـكان، قبـل خـروج الدخـان مـن فمهـا، وهـي تعـض عـلى سـيجارتها بشـفتيها وتقـول بملـل:

- ما تخافش يا رامي. ده مش حب. دي حموضة!

صـار مؤكـدًا أن هـذا كابـوس. سـيجارتها انتهـت وأنـا أمسـك بقطعتـي الأخـيرة، وقبـل أن أقذفهـا في فمـي سـحبتها هديـر مـن يـدي، وجـرت بهـا وهـي تطلـق ضحكاتهـا المجنونـة. جريـت وراءهـا، وكان زبائـن كنتـاكي يصفقـون، ولم أكـن أعـرف إلى أي منـا يوجهـون تشـجيعهم. أحدهـم أعاقهـا بكرسـيه، وآخـر وضـع قدمـه في طريقـي، حتـى أفلتـت منـي إلى الشـارع واختفـت. ربمـا كان هنـاك بـاب، ولكننـي لم أرَه، لأني كنـت مـا زلـت عـلى اليقـين نفسـه الـذي دخلـت بـه الحلـم، وهـو اسـتحالة خروجـي إلى الشـارع دون إنهـاء أكلي. وقفـت في طابـور الـشراء كي أطلـب قطعـة أخـيرة بـدلاً مـن المسروقـة، ولكـن قبـل أن يصـل دوري إلى البائـع نبهتنـي سـيدة ورائي أني لا أملـك مـا يكفـي، فلـم أجـد أمامـي إلا ابتزازهـا محـاولاً إقناعهـا بـأن تمنحنـي قطعـة مـن طبقهـا، كهديـة لي في عيـد ميـلادي الثلاثـين، وعـلى الرغـم مـما بـدا عليهـا مـن تعاطـف، وقفـت تنبهني إلى انعـدام خصوصيـة اللحظـة، لأن كل مـن دخـل كنتـاكي اليـوم أتى كي يحتفـل.

فتحـت عينـي مـع توقـف الميكروبـاص، منزعجًـا مـن أن يسـتمر عقـلي الباطـن في صراحتـه ويحلـم بهديـر تـسرق منـي ذاكـرة عامـي

الأخير، وأزعجني أكثر حلمي بشيء لن يحله أي تقدم في العمر، سيظل عيد ميلادي يتزامن مع رأس السنة، وسيظل غير مهم حضوري فيه؛ لأنه في كل الأحوال احتفال. في الموقف كنت أول الركاب في النزول، وآخرهم في المغادرة؛ لأنني توقفت أشاهد سائقي التاكسي منتظرين لزبون ولا أناديهم، أُخرج الأموال من جيبي وأنظر إليها، أذكر نفسي بقراراتي الثلاثينية، ثم أجد قدمي كأنها استقلت عني تسير في اتجاه وسط البلد، تحديدًا في اتجاه أقرب فرع لكنتاكي. لم أقاوم، ليس فقط لأن الجوع كان يؤلم معدتي، ولكن أيضًا لأني أعرف كيف أفسدت كل شيء في كل مرة قاومت فيها رغبات قدمي. فقلت، سأستسلم لها ولكن مع حزم شديد في توضيح أني سأشتري فقط ما يُبقى معي أجرة التاكسي، ومع المشي كنت أذكّر نفسي بأن أتفحص كل ما حولي، بما يليق بشخص يودع مدينة.

المشكلة كانت عدم وجود شيء كي أودعه، فقد كانت الدنيا فجرًا، والشوارع خالية من أي إنسان. سمعت صوت ميكروفون الجامع ينادي للصلاة، فعرفت أن الأمر مسألة وقت، وأعجبتني فكرة قضاء الدقائق الباقية أسير وحدي، لا أرى سوى دوامات الرياح الباردة التي تطيح بالتراب والأكياس. أعجبني الأمر لدرجة أنني كنت على وشك القول إني أسير كملك متوج على وسط البلد، لولا عدم قدرتي على السير مرفوع الرأس بما يتناسب مع ما أشعر، لأني كنت خائفًا من الكلاب الضالة التي كنت متأكدًا من اختبائها تحت إحدى السيارات. كنت أتذكر هذه الكلاب، ولا أتذكر أي شيء آخر عن وسط البلد،

t.me/qurssan

لا مـا كان يـأتي بي إلى هنـا، ولا مـا حثنـي عـلى المغـادرة، ومـع ذلـك كنـت خائفًـا مـن أن يمسـني الحنـين، تحديـدًا وأنـا أصـل إلى ميـدان التحريـر. رأيـت بقايـا احتفـال رأس السـنة؛ أكوابًـا وأطباقًـا بلاسـتيكية وأعقـاب سـجائر ومنصـة مهجـورة، ورأيـت كنتـاكي عـلى ناصيـة شـارع محمـد محمـود، ولم أدخلـه، ولكـن ارتحـت عندمـا وجدتـه مفتوحًـا.

تذكـرت نصيحـة وحيـدة كنـت أكررهـا عـلى نفـسي طـوال السـنة: كنتـاكي يعـرف أكـثر مـن الـكل، لا أمـان في محمـد محمـود إن كانـت أبـواب كنتـاكي مغلقـة. ولكـن لا شيءَ مضمـون، ولهـذا دخلـت الشـارع ببـطء، تذكـرت كـم كان مخيفًـا حـين يـدب فيـه النشـاط، وجميـل التجـول فيـه وهـو نائـم، شيء مثـل اختـلاس النظـر إلى عجـوز كان غاشـمًا في صبـاه. عـشر خطـوات كأن الشـارع قفـز مـن نومتـه فجـأة دون تثـاؤب، نشـيطًا كـما تركتـه آخـر مـرة، في اليـوم الـذي كان كنتـاكي فيـه مغلقًـا، وكانـت هديـر عنـد محـل الحيوانـات الأليفـة الـذي خشـيت دائمًـا المـرور بجـواره. كـم خطـوة قطعتهـا إليهـا يومهـا، وكـم خطـوة أحتاجهـا الآن كي أصـل إلى المـكان نفسـه؟ الآن ويومهـا، إحـدى وعـشرون فقـط. أحبطنـي الرقـم. يبدو كل شيء أعظـم وهـو يحـدث. لكـن، مـن هـذا الـذي رأيتـه أمامـي؟ ومـن أيـن لـه هـذه النظـرة الغاضبـة؟ ولمـاذا تحتـل يـده وحدهـا مسـاحة أكـبر مـن وجـوه زملائـه المرسـومين حولـه عـلى السـور؟ مسـتحيل. حاولـت إقنـاع نفـسي بأننـي أرى شـبيهًا متطابقًـا معـي، ولكـن بأكتـاف أعـرض وملابـس مختلفـة، ثـم بـدأت كلاب المحـل تنبـح، فتركتـه متجنبًـا النظـر إلى الـوراء.

بعد خطوات وجدته أمامي من جديد، كأني أقف أمام مرآة تُركت في منتصف الشارع، فشعرت بجسدي وهو يخرج مني ويتبعثر أمامي في كل مكان، ويُقذف في كل اتجاه. بقيت معي قدماي، فوقعت بهما على الأرض، ثم نهضت لأقترب من هذا الغريب. أرى نفسي معلقًا على جدار أصفر، مكتوبًا من تحتي "رامي فين؟"

لملمت نفسي وصرت أجري من شبيهي إلى وسط البلد، متخيلاً أني أسبقه، ولكن كلما كنت أهرب منه إلى شارع جديد، كان يتنقل على الجدران بسهولة ويفاجئني، فأصبح من العبث التفكير في الهرب. استجمعت شجاعتي لأقترب منه. بدا أصغر مني سنًّا، متى كان على وجهي كل هذا الغضب؟ كنت وحدي، معه، بلا أي شخص ينقذني إن مد يديه من الجدار ليبتلعني، ولكن مع كل خطوة كانت تتكشف لي وداعته ونضارة وجهه، هو بالتأكيد أجمل مني. لمسته فلم يعد مخيفًا، بل وجدت في ملمسه على الحائط ألفة وسكينة، كأنها تدعوني لكي أظل هنا لأعتني به. جلست بجواره حتى أقابل شخصًا ويقول لي إني مجنون، كابتًا رغبتي في التدخين مراعاةً لمشاعر صديقي المُعلق، وذلك حتى عبر شاب يحمل حقيبة ظهر سوداء مُلطخة ببقع دهان أبيض، بان من مشيته أنه يقظ يبدأ يومه. ألقيت عليه التحية فردّها دون أن يتوقف، وعلى وجهه ابتسامة عادية، كأن بها صمغًا يُلصق ظهري بالحائط.

t.me/qurssan

2

مـرة واحـدة دخلـت فيهـا شـارع محمـد محمـود، رغـم رؤيتـي لكنتـاكي وهـو مُغلـق. أعـرف نيتـي وقتهـا، كانـت أن تـراني هديـر أو أي عـين تعرفنـي لتوثـق وجـودي هنـاك. ولكـن، رغـم عـدم مـرور أكـثر مـن شـهر وأيـام عـلى هـذا الحـدث، أحيانًـا أتذكـره كحـدث تـم رغـمًا عنـي، كأني وجدتنـي عـلى ناصيـة الشـارع فجـأة. وأحيانًـا، أقـول إني دخلـت بـإرادتي لأنـه لم يصـح أن أقـترب مـن الثلاثـين دون الدخـول في هـذه التجربـة. المهـم أني حينهـا رأيـت الشـارع المظلـم المكتـظ بالنـاس، ينقسـم يمينًـا ويسـارًا بسرعـة كتيبتـين مـن النمـل، صانعًـا ممـرًّا يعـبر منـه موتوسـيكل عائـد مـن بعيـد، حيـث المعركـة مشـتعلة بـين رصاصهـم وحجارتنـا، حامـلاً معـه ذلـك الشـاب النحيـل الـذي استسـلم رأسـه للراحـة عـلى ظهـر السـائق. وعـلى عكـس مـا تخيلـت نفـسي ومـا فعلـه الجميـع، لم أبعـد عينـي

عنه متحاشيًا الدم الذي بلل قميصه، بل حاولت الاقتراب منه أكثر حتى هُيئ لي أن في ابتسامته السالمة رسالة تخصني، تُبشر بنهاية أجمل لهذا اليوم، أن أُقتل أنا بدلاً من بودي.

أكملت سيري متمهلاً، وعاد نمل الشارع إلى فوضاه من جديد. خناقة بين بائع ومشترٍ، أنهيتها قبل أن تبدأ:

- اتنين شهدا بيتخانقوا على نص جنيه؟

منحت البائع جنيهًا إضافيًا، وأعطيت المشتري كمامته، وانتظرته حتى تقدم قليلاً ولبسها، فعرفت أخيراً كيف تُلبس الكمامات وتشجعت على التقدم للأمام، ثم فقدت السيطرة. هل هذه كانت أكثر مشاهدي رعبًا؟ لا، بل كوابيسي عنها.

نشوة ما حثتني على القفز مع تسارع الحركة، قفزة واحدة فضحتني، فطمأنني شاب يسير بجانبي، ثم اختفى فجأة، بعده كل شيء اختفى ولم ترَ عيناي إلا غمامة الغاز البيضاء التي تقطع النفس. تخيلت أني أغيب عن الوعي ثم وجدتني ما زلت أقف على قدمي. رأيت يدًا ممدودة تستقر على وجهي، فأنعشته رائحة الخل، ويدًا أخرى كانت تحمل رملاً ألقت به على قنبلة الغاز فاتضحت الرؤية. سرب جديد من الموتوسيكلات كان يعود من هناك.

حاولت إقناع نفسي بالتراجع، قلت ربما المستشفى الميداني بحاجة إلى بعض الكمامات، سأشتريها. وقلت سأعود غدًا وأجد الشارع في مكانه، وقلت هذا الشارع سيعزف هذه النغمة للأبد، بالتأكيد لن تكسر إيقاعها خطوة مني للخلف، وبالتأكيد

t.me/qurssan

لـن يمانـع أن أقـف وآخـذ لنفـسي صـورة معـه، في كل الأحـوال مظلم هـو، لا يـشي بـسر أحـد.

ولكـن، "كل ثائـر بيـده تويـتر، لا يُعـول عليـه". رنـت الجملـة في أذني فلـم ألتقـط الصـورة. مـن كتـب هـذا الـكلام؟ تخيلتهـا بصـوت بـودي، عـلى الرغـم مـن أن لغتهـا لم تشـبه هيئتـه. فشـلت في الضغـط عـلى أزرار الهاتـف لـكي ألتقـط الصـورة، بحـر مـن العـرق يخـرج مـن مسـام يـدي. خطـوة للخلـف، لا ألحـق أن أخطوهـا، كأن الشـارع ينقلـب بنـا، السـماء سـوداء كالرصيـف والأرض لونهـا أبيض، السـحاب المسـيل للدمـوع نـزل عليهـا ليبقـى، ثـم جـرى النمـل في كل اتجـاه، كلٌّ في إيقاعـه، الأبطـأ يقـع، والأسرع يقـع فوقـه، والأمهـر تعلـم كيـف يقفـز. أعـود إلى الميدان مـع أول دفعـة، تتبعهـا دفعات أخـرى، ثـم تمـر ثـوانٍ لا نلمـح جديـدًا يعـود إلينـا مـن بـين الأبيـض، فنفسـح مكاننـا للقادمـين مـن الخلـف وهـم يحملـون سـجاجيد ممتلئـة بالمسـامير، يفرشـونها عـلى ناصيـة الشـارع.

يخـف السـحاب فتتضـح الرؤيـة. هديـر وحدهـا في الشـارع، هامـدة عـلى الأرض، فـرس مهـزوم، وبـودي يمـر بجـواري، يقفـز بسـهولة فـوق السـجادة وقبـل أن يجـري إليهـا أجـد قدمَـيّ تجريـان، يسـبقني إليهـا بلحظـة، أحملهـا مـن ناحيـة الـرأس وأتـرك لـه قدميهـا، وقبـل أن يحملهـما تهبـط عليـه يـد، يـد كبـيرة، وتمسـك يـد ثانيـة بحزامـه، وترفعـه ثالثـة مـن خـصره، ويتضـح أن بجوارنـا سـيارة ترحيـلات، يُلقـى بـودي فيهـا. يقـول لي أكبرهـم قبـل انصرافهـم:

- يللا خدها وروّح يا حبيبي.

هدير في يدي، قبل عودتها لوعيها أنزلها إلى الأرض. أستغل انشغالهم بصيد جديد، وأقفز في سيارة الترحيلات، قفزة بدت كأنها ستحل كل ما قبلها وما بعدها، قفزة تليق بأن أتم الثلاثين بعدها.

بعد فترة نتحرك، ويد كبيرة تهبط على كتفي، يد بودي وهو يقول:

- ما تخافش يا رامي.

صافحته وابتسمت، ثم بحثت في زحام السيارة عن مكان يسمح بالجلوس. تأكدت من أنني لا أعرف أحدًا هنا غيره، وأنه يمسح عرق يدي في قميصه.

t.me/qurssan

3

"ما تخافش يا رامي". الجملة التي كلما سمعتها عرفت بضرورة أن أخاف. قالها لي كريم قبل أن يضربنا فتوات المدرسة عقابًا على إعلان أجمل بنات المدرسة عن حبها له، وآخر ما قالته أنجيلا لي قبل أن ترحل من القاهرة دون عودة، وهو حدث لُمت نفسي عليه في وقتها ثم صار لا يعنيني، حتى رأيت أحد أصدقاء الجامعة يفلت من رسوبه في الامتحان بإخبار الأستاذ بانفصال أبيه وأمه في شهر الامتحانات، فصرت من بعدها أحب أن أحكي عن طفولتي وألوم أنجيلا على كل شيء، أو على الأقل أدعي أن سفرها المفاجئ جعلني الشخص الذي أنا عليه الآن، حين أشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسي.

ليست رغبةً في أي تعاطف، فحتى الآن لا أجد نفسي مذنبًا بشيء كي أقول إني ضحية، ولكن مثلاً، لو أنها ما زالت في مصر،

لما كانت ستتحرر كلماتي وأستطيع المبالغة بقول إني قفزت في سيارة الترحيلات، رغم ما كان يقتضيه هذا من أن أكون قد تركت الأرض بالكامل وعدت إليها، والحقيقة أنني دخلت السيارة على قدمي. لم أكن سأعرف عمومًا كيف يُضاف الملح إلى الكلام حتى يصبح له طعم. في الأغلب كنت أعرف قبل سفرها، ولكن تعودت ألا أضيف أي شيء لكلماتي؛ لأني لم أكن أحب إغضاب أنجيلا، فمفاوضات الصلح معها كانت شبه مستحيلة. بعد أكثر من خصام، تعودت أن أطلب الأكل بدلاً من قول إني أموت من الجوع، وأن أختار بعناية، هل أنا معجب بشيء، أم أحبه، أم أحتاجه.

اتباعي لهذه الدقة كان يُسعدها، وكان هذا مريحًا لأنها كانت العالم، ولكنه كان يثير مشكلات حين يظهر مصطفى أحيانًا في الصورة، لأنه كان مثل النجوم، تلمع ثم تختفي. مثلما حدث في عيد ميلادي العاشر. عادةً كنا نحتفل في صباح اليوم التالي. كان مبرر أنجيلا حُبها للاحتفال بي طبقًا لتوقيت كاليفورنيا، موطنها الأصلي، ومصطفى كان يقول لي سرًّا إن هذه مجرد حجة كي لا تسمح لي بالسهر في أي يوم حتى منتصف الليل. المهم أنني كنت أستيقظ لأجد كيكة على السفرة، بعد الإفطار نُظلم البيت، ونضع فوقها شمعة. الجديد هذه المرة كان سؤال أنجيلا الذي قذفتني به قبل أن أنفخ في الشمعة:

- نفسك تطلع إيه يا حبيبي؟

وكان بديهيًا أن أجيب على الفور بحماس:

- نفسي أطلع البرج.

t.me/qurssan

أذكـر جيـدًا الخناقـة التـي سـمعتها مـن الـدور الثـاني بعـد أن أغلقـت علـيَّ بـاب غرفتـي، بـين أنجيـلا الغاضبـة مـن مصطفـى لأنـه ضحـك، وضحكـه الـذي لم يتوقـف وهـو يحـاول إقناعهـا بـأن ردي لم يكـن متوقعًـا مثـل سـؤالها، وأذكـر أننـي كنـت أضحـك معـه، لأننـي كنـت أحـب فعـل أي شيء معـه، أي شيء، عـلى الرغـم مـن أننـي لم أصـارح أنجيـلا بهـذا أبـدًا.

كنـت أحبهـا، ولكننـي كنـت أحسـد كريـم عـلى أمـه؛ لأنهـا لم تكـن سـيدة جميلـة وكانـت محجبـة، وبالتـالي لم أرَه مُحرجًـا أبـدًا مـن رؤيـة زملائنـا لهـا، ولأني كنـت آكل مـن يدهـا كل مـا لا أذوقـه في بيتـي، والأهـم أنهـا كانـت حنونًـا لدرجـة أن تدعـو لنـا بالتوفيـق حتـى حـين تدخـل علينـا غرفـة كريـم وتجدنـا نلعـب بالأتـاري. أنجيـلا بالمقابـل لم تكـن تعـترض أبـدًا عـلى شيء في وجـود كريـم مـن بـاب الـذوق، ولكننـي كنـت أعـرف مـن نظـرة لهـا أنهـا غاضبـة، فأتوقـع خوضنـا في نقـاش طويـل بعـد رحيلـه مـن البيـت. أنجيـلا كانـت سـاخطة بشـكل عـام، وحـين تغضـب كانـت تنـزوي في حديقـة البيـت تسـقي الـزرع حتـى تقتلـه، وتندمـج مـع طقـوس التأمـل واليوجـا، وربمـا لهـذا لم يكـن يُشـعرني غضبهـا عـلى أدق التفاصيـل بظلـم، بقـدر مـا كان يبـث فيّ إحساسًـا مـا بالمسـؤولية عـن أن أسـعدها.

ولهـذا، لم أقاومهـا بعـد عيـد ميـلادي العـاشر وهـي تدخلنـي في برنامـج اكتشـاف المواهـب القـاسي. شـهور طويلـة مـن العمـل الشـاق بـلا أجـر. المدرسـة ثـم حصـة البيانـو الـروسي، نعـزف ألحانًـا حزينـة. ثـم تدريـب السـباحة السـبت والثلاثـاء، وتدريـب التنـس

الاثنين والأربعاء. ثلاثة أيام في الأسبوع حصص الرسم، ويومان لدروس اللغة الفرنسية. وكل يوم، أكل صحي مُقسم بإحكام في الطبق، ثلث خضار وثلث بروتين وثلث نشويات، وقراءة عشر صفحات من أي كتاب، ثم نقاش مطول يجب أن أتخيل فيه ماذا أريد أن أكون في الثلاثين، وماذا أريد تحقيقه قبل الأربعين. كنت أقول أي شيء، ولا أبدي ضيقًا أو قلة اهتمام، ولكنني كنت أخفي عنها أشياء، مثل ألبومات اللاعبين التي كنت أتفنن في تخبئتها داخل غرفتي.

كانت تصر على أن الرياضة تُلعب ولا تُشاهد، ولكننا كنا في عام 1994، ومنتخبنا لم يتأهل لكأس العالم، فوجدنا تعويضًا في ألبومات اللاعبين. فجأة أصبحت لعبة الجميع. نتزاحم من أجلها أمام المكتبات لنشتري ألبومًا طويلاً عريضًا، كُتبت فيه أسماء لاعبي كأس العالم، ومعها علب بلاستيك صغيرة بداخلها صورهم، نلصق الصور تحت الأسماء حتى نكمل الألبوم. هذه ليست مبالغة جديدة، بالفعل كانت هناك يد خفية تمنع أي طفل عن ملء الألبوم بالكامل، حتى لو كان مصروفه يكفي لأن يشتري المكتبات نفسها، دائمًا ينقصنا لاعب أو اثنان، لا ننام الليل إلا بعد الحصول عليهما، حتى لو كان لاعبًا مغمورًا لم نشاهده مرة واحدة يلعب. من هنا تربى تجار جيلنا الشطار، وأجروا عمليات واسعة من التفاوض والتبادل انتشرت في كل مكان، في المدارس والنوادي وأمام الأكشاك، الكل كان يبحث عما ينقصه في شنطة صديقه، وسرعان ما تطور الأمر من المقايضة إلى البيع والشراء، رأيت مرة بيبيتو يُباع بعشرة

t.me/qurssan

جنيهات لصاحبنا الأوفر حظًا في المصروف، وانتابني إحساس بالذنب لا أنساه وأنا أبيع لاعبي المفضل، روماريو، حينما كنت بحاجة إلى خمسة جنيهات أكمل بها صفقة شراء مدافع مغمور من رومانيا لا يعرفه أحد.

إلا باولو مالديني، مدافع إيطالي، لم أكن قد شاهدته يلعب من قبل. ظلت صورته المفقودة في ألبومي تنغص عليَّ عيشتي. فراغ لم يملأه إكمالي لخمسة ألبومات بعده، لدرجة أني بعد بحث طويل أصبحت مقتنعًا بوجود خطأ ما في خط إنتاج الألبومات جعلهم ينسونه، وقررت ترك هذه اللعبة دون رجعة، والتبرع بألبوماتي لكريم يتاجر فيها كما يريد. ولكن شاء حظي أن تجد أنجيلا الألبومات في شنطتي في اليوم نفسه، ولأني كنت قد أصبحت خبيرًا في التعامل معها، على الفور قلت لها إنني سأتخلص من الألبومات مقابل عضوية دائمة في فريق المدرسة، لأن بالطبع الرياضة لنلعبها وليست للمشاهدة. وبالفعل عقدت الصفقة وتحملت لأيام سخرية كريم مني، الذي كان كابتن الفريق، ويدعي أنه في كل الأحوال كان سيختارني بين صفوفه. امتدت سخريته لأنجيلا حين قلت إنها صاحبة الفكرة، ولكني لم أنقل لها أي شيء مما قاله؛ لأن زيارته لبيتي كانت الهدنة الوحيدة من خط إنتاج المواهب.

هذا الصيف قضاه كريم بالكامل مع أهله بالإسكندرية، وأمام مباريات كأس العالم تشاركت مع مصطفى في أول سر. لم تكن المباريات تبدأ قبل الثالثة صباحًا بتوقيت مصر، وكانت هناك استحالة أن أقنع أنجيلا بمشاهدتها. ولأنها كانت تنام

قبل العاشرة، فكنت أبقى يقظًا حتى أسمع صوت المباراة من الدور الأرضي، أنزل وأجلس بجواره. لم نكن نتكلم، ولم يكن هذا شيئًا غريبًا علينا، إلا أنه كان صارمًا في صمته، كأنه سيدعي أمام أنجيلا إن قفشتنا أنه لم يكن يلاحظ وجودي.

أما مالديني فكافأني على إخلاصي له، بل كان السبب في كسر قاعدة المشاهدة في صمت للمرة الأولى. في أول مباراة لإيطاليا، كان اللعب مملاً حتى إنني لم أكن أقدر على مقاومة النعاس، فلم ألاحظ أن مالديني كان السبب في أول هدف لأيرلندا. مصطفى لاحظ هذا، كما لاحظ ارتدائي لقميص إيطاليا رقم ثلاثة، فكأنه انتبه فجأة لوجودي، وسألني:

- اشمعنى يعني تلاتة؟

- باحبه.

- ده مدافع. ليه مش روبرتو باجيو مثلاً؟

وقبل أن أستغل فرصة إكمال حوار نادر معه، أحكي له فيه القصة، كان قد وجه تركيزه كله للمباراة، وأصبح أملي، أن يفعل مالديني أي شيء في المباراة يجذب انتباه مصطفى لي من جديد، ولكنه لم يفعل شيئًا، حتى سألني يومها قبل أن أصعد إلى غرفتي:

- وانت بقى بتعرف تلعب وللا زي مالديني بتاعك؟

أجبت عن سؤاله بعدها بيومين، وأنا أراه يداري فخره بيده من خلف سور الملعب. أتخيل أنني كنت أراوغ الجميع، وأتذكر تسجيلي لثلاثة أهداف أقنعت الكابتن ثابت البطل،

t.me/qurssan

المشرف على الاختبارات، أن ينادي عليَّ من بين مئتي طفل تقدموا لاختبارات النادي الأهلي. لحظتها تعرفت للمرة الأولى قدرة يدي على أن تبتل في ثانية، كأني وضعتها وحدها في بحر. هي هذه الدقة من جديد، ضيعت عليَّ قفزتي الأولى التي كانت ستنهي الحاجة إلى كل ما بعدها، حين سألني الكابتن ثابت:

ـ عارف الكوماندوز؟ لو مدربك قال لك تنط من طيارة، تنط ولا لأ؟

ـ لا يا كابتن.

ـ اشمعنى؟

ـ عشان هاموت.

ـ ما انت لازم تموت عشان فريقك.

ـ ما انا لو مُت في الطيارة مش هالعب مع فريقي.

ما زلت لا أنسى الإحباط وهو يكسو وجه الكابتن ثابت البطل، فكأنه يضم حاجبيه إلى بعضهما دون إرادة منه، ولا الراحة التي لم أشعر بها إلا ومصطفى يضحك بعد صمت طويل في الطريق من النادي إلى البيت، ولا حضن أنجيلا المُحكم ليلتها بعد درس بيانو تظاهرت فيه بالاهتمام.

t.me/qurssan

4

أمــا عيــد ميــلادي الثالــث عــشر، فــكان الأول الــذي نحتفــل بــه دون أن تســألني أنجيــلا عــن مســتقبلي، مــع أنــه الأول الــذي خططــت قبلــه أن أرد بإجابــة تقنعهــا. هــي بالتأكيــد لم تنــسَ، ومصطفــى بالتأكيــد لم يقنعهــا بــألا تســأل.

كنـت أعـرف السـبب. حلـم البلـوغ العجيـب الـذي حلمـت بـه بعـد اسـتئصال اللـوز. كنـت في سـفينة تيتانيـك وهي تغـرق. مزاجي كان رائقًـا، غـير مهتـم بجـري المفزوعـين مـن حـولي. فـرح قلبـي وأنا أقابـل كريـم. تعانقنـا كأننـا كبرنـا وفرقتنـا السُّـبل ثـم التقينـا بعـد طـول غيـاب. زف إليَّ الخـبر السـعيد، أني أخـيرًا أحلـم بالحلـم الـذي سـبقني إليـه، فتركتـه وجريـت متأكـدًا مـن أن كيـت وينسـلت في انتظـاري بغرفـة مـا، أفتـش وأفتـح الأبـواب، فتخـرج الميـاه المالحـة مـن الغـرف لتُغـرق الممـر. بعـد عـشر غـرف يهاجمنـي شـك يـكاد

ينجح في إيقاظي، فأتخيل أنني أفتح عيني في المستشفى على الدكتور مبتسمًا في استقبالي. أغضب، وينجح الغضب في إغلاق جفني، فأجدني أمامها، عارية مستريحة على الكنبة. كما حكى لي كريم عمّا يجب فعله، أبدأ خلع قميصي في الطريق إليها. أتوقف، هذا قميص كريم كنت أرتديه، رائحته تفوح منه، رائحته جميلة تأخذ النفس. أفيق على الملاءة الزرقاء وقد ابتلت، ووجوه مصطفى وأنجيلا والدكتور، تحاول أن تداري صدمتها.

حتى هذا الأسبوع، لم أكن أعرف جيدًا صوت مصطفى. ولمّا كنت قد اعتدت على الصمت الساكن معنا في البيت على اعتباره فردًا من العائلة، كان مريبًا أن يزورنا الكلام ويستقر معنا طوال الأسبوع الذي جلست فيه بالبيت للنقاهة. فجأة أصبح من العادي أن أسمع في بيتنا أصواتًا، بل ومصطفى يقضي الليل معنا. صحيح وهو جالس في غرفة مكتبه، لكنه كان حريصًا ألا يتجاهلني في كل مرة نتقابل في الصالة، في الأغلب أكون جالسًا أمام التليفزيون وهو في طريقه إلى الحمّام، فيداعبني:

- إزيك يا ابو لوَز؟ ماتش الأهلي الساعة كام؟

وأسئلة أخرى عديدة، كان يرميها وينصرف دون انتظار ردي، وأعلم أن لا غرض منها سوى الكلام. وفي مرات كان ينسى ويعيد السؤال نفسه وهو في طريقه إلى غرفة المكتب، التي كانت لها رهبة تمنعني عن التسلل إليها حتى في غيابه، لم تكن من المناطق المحرمة في البيت، مثل مرسم أنجيلا الذي لم أشهد خروج لوحة منه إلى الصالة.

t.me/qurssan

في اليـوم الثالـث مـن فـترة النقاهـة، فوجئـت بـه ينادينـي مـن المكتـب ويجلسـني أمامـه، ويُخـرج مـن كومـة أوراق صورتـين. كان مـن ضمـن القليـل الـذي أعرفـه عـن مصطفـى أنـه يعمـل بشـكل مـا مـع شركـة كـوكا كـولا، لذلـك كنـت أحبهـا، لكنهـا كانـت تُقلـق أنجيـلا عـلى صحتـي. في كلتـا الصورتـين كان تصميـم جديـد للزجاجـات، رفعهـما لي فاختفـى وجهـه وراءهـما وسـلط إضـاءة الأباجـورة عليهـما، وطلـب منـي اختيـار واحـدة منهـما. احـترت بينهـما، الأولى كانـت أقـصر مـن التصميـم الموجـود في السـوق وأكـثر اسـتدارة، والثانيـة كانـت طويلـة ونحيفـة، لم أقـل شـيئًا حتـى شـعرت بـأن صـبره ينفـد. ولعـل هـذه كانـت المـرة الأولى التـي لمسـني فيهـا، كنـت أعـرف مـن أنجيـلا أنـه لم يحملنـي أبـدًا وأنـا رضيـع، ولم تكـن المعلومـة تهمنـي، ولكـن خبطـة يـده عـلى كتفـي كانـت غـير مألوفـة، لم أعـرف إن كانـت برقـة أم بعنـف، ولم أطمـئن إلا عندمـا وضـع الورقتـين عـلى المكتـب، فبـان وجهـه، واتضـح أنـه مـا زال مبتسـمًا، وسـألني:

ـ عارف إيه سر شكل أزايز الكوكا كولا؟

ـ لا.

ـ الستات الحلوة يا بني.

ثـم شرح لي كيـف تشـبه الزجاجـات أجسـاد النسـاء، وكيـف يزيـد هـذا مـن مبيعـات الشركـة. فكـرت أن أسـأل عـن سـبب حـب النسـاء للكـوكا كـولا، ولكـن كان عنـدي سـؤال أهـم يشـغل بالنـا في المدرسـة، أولادًا وبنـات.

- بابـا، هــو صحيــح كــوكا كــولا في المرايــة تبقــى لا إلــه، لا محمــد؟

أعـاد السـؤال مصطفـى لصمتـه باقـي أيـام الأسـبوع، وتوقفـت أنجيـلا عـن مناقشـة مسـتقبلي وطموحـاتي، ولكنهـا كانـت تـأتي إلى سريـري كل ليلـة بفكـرة جديـدة، منهـا: "النـاس مختلفـين بـس كلهـم جُـمال"، و"مـش لازم نحـب حاجـة عشـان النـاس بتحبهـا"، و"مـا تخليـش النـاس تقـرر لـك حياتـك".

كنــت أتظاهــر بأننــي لا أفهــم. كل هــذا الشــك لأن رائحــة قميـص كريـم جميلـة؟ حتـى بعدمـا أطفأنـا شـمع عيـد ميـلادي هـذا للمـرة الأولى طبقًـا للتوقيـت المـصري، تركتهـما وجلسـت عـلى أولى درجـات السـلم، لأكتشـف أني كنـت أنـادي اسـم كريـم وأنـا أحلـم بتيتانيـك. سـمعتهما، أنجيـلا تؤكـد شـكوكها بأنـه الوحيـد الـذي يزورنـا في البيـت، ومصطفـى يدافـع عنـي، بأنـه لا توجـد عائـلات غـير عائلـة كريـم مجانـين مثلنـا، لتعيـش في صحـراء التجمع الخامـس. ثـم ينفجـر فيهـا:

- معلـش. نبقـى نشـوف لـه أصحـاب أمهاتهـم يعرفـوا يعيشـوا مـن غـير جنينـة!

- إنت متخلف. ومش عارف المجتمع بتاعكو هيرفضوا ازاي.

- مـا تدخليـش الـواد في عُقـدك. عيـال البلـد دي مـا بيتعلمـوش بيانو.

مبـاراة بينـج بونـج غلبنـي وسـطها النعـاس. قالـت إنهـا لم تعـد سـعيدة، وقـال إن مسـتحيلاً عليـه إسـعادها وهـي لا تعـرف أحـدًا،

t.me/qurssan

ولا تحب أحدًا غيره في ' لد، فقالت إنها لا تحب البلد، فقال هذه مشكلة تخصكِ. عُدت إلى سريري لأحل المشكلة. أغمضت عيني وخلعت قميص كريم وأنا في الطريق إلى كيت وينسلت. قفزت في صدرها قبل أن تغرق الكنبة في الماء. لم أنتهِ إلا والماء يصل إلى رأسي. صحوت وبي رائحة ملح، على يد أنجيلا توقظني بقبلة على خدي.

- ما تخافش يا رامي. إنت هتبقى كويس.

في أتوبيس المدرسة، سلمت على كريم وجلست بجوار السائق. عدت للبيت، فلم أجد أنجيلا. وجدت مصطفى يشاهد مباراة في التليفزيون، وجردل كنتاكي ضخمًا أكلناه كالوحوش. قبل نهاية المباراة بدقائق أحرز الأهلي هدف الفوز. لم نحتفل، كلّمني:

- أمك رجعت كاليفورنيا خلاص.

تماسكت أمامه، وفي غرفتي بكيت. فكرت أن أضرب كريم، وتعهدت لنفسي بأن أواظب على خط إنتاج المواهب حتى عودة أنجيلا. في اليوم التالي، لم أضرب كريم، وعلى باب البيت فتحت لي سيدة قالت إن اسمها أم محمد. أحببت المكرونة بالبشاميل التي طبختها لنا، ولا أتذكر أني عزفت البيانو بعدها أبدًا، ولكن لن أنسى أصوات أصدقاء مصطفى بعدها بأيام ونحن نجلس في مدرجات استاد القاهرة للمرة الأولى، كما لن أنسى تقلبي في سريري وأنا أغني:

- يللا نقضي أجازة سعيدة.

t.me/qurssan

5

لن أرسلها لأحد، سأكتبها على تويتر:

- أنا اتمسكت من محمد محمود.

كان موبايلي معي. اكتشفته وأنا أحاول تحريك رجلي اليسرى من فوق رأس زميل، كي أفسح مكانًا لآخر؛ شعرت بشيء صلب في جيب بنطلوني. ثغرة أمنية لم يفكر فيها أنبغهم. يسحبون الموبايلات قبل أن يرمونا في السيارة، هل خطر في بال أحدهم أن بعد شهور من الثورة، سيقفز أحد شبابها خلسة إلى داخل سيارة ترحيلات بدلاً من القفز فوقها؟

أجلت الفكرة الذكية إلى اللحظة التي تتمكن فيها يدي من عبور رأسين يفصلانها عن بنطلوني، كي تصل إلى الموبايل. درت بعيني لأحصينا، كنا نحو ثلاثين شابًّا انهارت حماستهم مع ندرة الهواء الداخل إلى السيارة. أعجبني التوتر الذي باغتني.

في البداية كان ضحك مجهول المصدر انتشر حولي، وتهليل مع كل فتحة باب ودخول شاب جديد. أجواء احتفالية أحبطتني قليلاً. ولكن مع الوقت أصيبت الأجساد بالخمول، فبدأنا ننهار في أماكننا واحدًا وراء الآخر، ولم يعد ممكنًا بعد كل هذه الأنفاس الساحبة للأكسجين، ومزيج روائح العرق والبول، أن أحدد إن كنا بالفعل نبعد عن المدينة أم أن أذني الملتصقة برأس جاري صارت أضعف من سماع ضوضاء الشارع. دقائق واستقر المشهد على أفواه صامتة وعيون مترقبة، فصار أقرب إلى ما تخيلته، ثقيلاً.

كل شيء في السيارة كان كما تخيلته من قبل، حتى صوت الفرامل وشكل الأسلاك المقطوعة على الشبابيك، كان يبقى أنني لم أتخيل نفسي فيها أبدًا، إنما تخيلت فيها بودي. ليس في السيارة فقط، لي كثير أشاهده يقتحم حلمي المتكرر طالعًا من مياه المحيط، ليُعيد سفينة تيتانيك إلى توازنها برفعة واحدة من كتفه، ثم يطلع إلى سطحها وسط تصفيقنا مرتديًا مايوه أزرق ينفجر مع أول حركة لعضلات فخذه، ويختارني من بين كل الناجين كي ألتقط له صورة مع هدير وهو يحملها، كأنه يدرب بها ذراعيه.

انهارت هذه الصورة وأنا ألمحه من بين كومة الأجساد، يختلس مساحة ليديه يخلع بهما قميصه. فوجئت به ذا كرش فوق لباسه الباهت الذي يظهر طرفه من فوق الجينز، والأهم صدر طري صغير، تحرك معه قليلاً مع عبور السيارة مطبًّا عنيفًا، فابتهج قلبي لما رأيت وأغمضت عيني لأحفظ هذه

t.me/qurssan

الصـورة جيـدًا، ولكـن عكـر عـليَّ صفـو اللحظـة مطـب أعنـف، شـقلب كل الأوضـاع، وغـيَّر نظـام الأجسـاد المتراكمـة بعـد أن بـدا مسـتقرًّا لا يمكـن تفكيكـه.

أفتـح عينـي لأجـدني مبـاشرةً في مقابلـة وجـه جديـد كسـاه اللـون الأزرق، وجـه مذعـور يُخـرج ورقـة مـن جيبـه.

- دي رسالة كاتبها لأمي. وحياة أمك توصلها.

ألتقـط منـه الورقـة. مطـب أشـعر بـه وحـدي. لمـاذا يفـترض الوجـه المذعـور خروجـي وحـدي سـالمًا؟ كيـف يفسـد افتراضـه كل شيء؟ هـل تعـرف هديـر أيضًـا أنـه لا شيء يدعـو للقلـق عـليّ؟ هـل رأتنـي وأنـا أقفـز في سيارة الترحيـلات؟ وحتـى لو لم تـرَني، مـا الباهر في هـذه الرحلـة لهـا إن كان بـودي سـبقني إليهـا؟ وكيـف يدخل كل هـذا الهـواء مـن شـباك بحجـم كـف يـدي؟

أضـع رسـالة الشـاب المذعـور في جيبـي، وأقـرر الوصـول إلى بـودي في طـرف السـيارة البعيـد، غـير مهتـم بصعوبـة المهمـة وشـتائم الزمـلاء، كي أقـول لـه:

- عايزيـن ناخـد بالنـا مـن الـواد ده. شـكله صغـير وخايـف. لـو اتقسـمنا ومـا جـاش في مجموعتـي حـاول تاخـده معـاك.

وكان رد بـودي أنـه انتفـض مـن مكانـه وبـدأ الطـرق عـلى جـدار السـيارة مُغنيًا:

- مـش ناسـين التحريـر يـا ولاد الوسـخة. الثـورة كانت بالنسـبة لكو نكسـة.

يبعــثُ الهتــاف الأجســاد مــن مرقدهــا، وتســود هســتيريا جديـدة مـن رقـص إجبـاري لا يسـمح ضيـق المـكان بـأن أتفـاداه، أقفـز وأطـرق الجـدران مثـل الجميـع، وفي ذهنـي فكـرة واحـدة، هـذا الاحتفـال سـيسرق كل الهـواء المتبقـي.

مـرت دقائـق قبـل أن تقـف السـيارة فيصمـت مـن جديـد الجميـع. يُفتـح البـاب، ينـزل أقربنـا ثـم نسـمع صـوت صراخـه. كانـوا ينتظروننـا في طابـور مـن جانبـين، طولـه يقـترب مـن العشرين مـترًا، يبـدأ مـن بـاب السيارة وينتهـي عنـد مدخـل الحجـز، يزفوننـا بالكرابيـج. أسرعنـا سـيحصل عـلى عـشر ضربـات. أقفـز كبطـل أولمبـي، ولكـن أنـسى أن أداري وجهـي بيـدي فتوقعنـي ضربـة عـلى الأرض، أغمـض عينـي وأفتحهـما لأفيـق في الزنزانـة، لا أعـرف مـاذا حـدث في إغـماءتي ولا أريـد أن أعـرف. ليـس بجيبـي الموبايـل، وهــذه الرحلــة بالــكاد تبــدأ، غريــب، كيــف صــار فجــأة وجــود بــودي قريبًـا منـي الـشيء الوحيـد الـذي يطمـئن فيهـا.

t.me/qurssan

6

يُخجلني أني لم أحزن، وإن كنت لم أفرح أيضًا، بهجر أنجيلا لنا. كانت بي لهفة لرؤية عالمي وهو يتغير ليصير مصطفى، وبالفعل لا أنكر أن الرجل كان يحاول، لمدة شهر على الأقل. عوضني بالذهاب ثلاث مرات إلى السينما، وخمس مرات إلى مطاعم مختلفة. لا أذكر تحديدًا، ولكنني أتذكر هذا الشهر كلسعة برد مُبهجة، بعدها أصبحت لي سيارة وسائق، وأيام أفعل فيها ما أريد، فلم أفعل فيها شيئًا.

أسميها الآن سنوات الاستقرار. لم يتغير فيها شيء، سوى أننا لم نعد نحتفل بعيد ميلادي. حاولنا وأنا أتم الرابعة عشرة، استيقظنا في الصباح احترامًا لطقوس الأم الغائبة، وضعنا الكيكة أمامنا وجلسنا ساعة مُحرجين لا نعرف ما نقوله، فلم نكررها. غير ذلك، بقي البيت الذي سمعت مصطفى يعبِّر عن كرهه

لـه، دون أي إضافـة أو نقصـان. لا طـلاء حائـط ولا مـكان كنبـة أو كـرسي نظيـف بفضـل أم محمـد، حديقـة وسـلّم، وخمـس غـرف أُغلقـت منهـا واحـدة بعـد سـفر أنجيـلا، فكأنهـا أخـذت غرفتهـا معهـا، رغـم أن فرشـاة أسـنانها ظلـت باقيـة لثـلاث سـنوات في الحـمام دون أن يـرى أي منـا سـببًا لتحريكهـا. أحيانًـا، كنـا نتكلـم في التليفـون ليخـبرني أنـه مسـافر، وأحيانًـا كنـا نتقابـل عـلى الإفطـار وهـو يتصفـح الجرائـد، وفي كليهـما كان غائبًـا. لم أقفشـه حزينًـا ولا فرحـان.

لا أعـرف متـى تحديـدًا ولمـاذا عصفـت بسـنوات الاسـتقرار وعلقـت في مهمـة البحـث عنـه، دون خطـة محـددة عـمّا سـأفعل حـين أجـده، ولكننـي أذكـر أننـي صرت أتكلـم كأني فجـأة تعلمـت النطـق. كنـت أتكلـم كثـيرًا دون إرادة في كل اتجـاه، محـاولاً جـذب انتباهـه كلـما تقابلنـا في الصبـاح، لدرجـة كانـت تُزعجنـي مـن نفـسي، عـن نجاحـي في دراسـتي وأهـدافي في فريـق الكـرة، وانتصـاري عـلى الجميـع في البـلاي ستيشـن. مـاذا كنـت سـأفعل غـير ذلـك؟ ولكـن الـكلام كان يخـرج كضجيـج سـيارة غـارزة في رمـل، لا يـؤدي لـشيء مـع ردوده المختـصرة التـي كانـت تـأتي أحيانًـا ردًا عـلى موضـوع آخـر.

ومـع إصراري بـدأ مصطفـى أخـيرًا الـكلام، ولكـن بطريقـة كانـت تُجـبرني عـلى الصمـت، لأنـه كان كلامًـا بـلا أخـذ ولا عطـاء، ولأني كنـت أتجمـد مرتبـكًا مـن قدرتـه المريبـة عـلى قـراءة أفـكاري، ورده عـلى أي شيء قبـل أن أنطقـه. مثـلاً، في يـوم أتراجـع عـن فكـرة

t.me/qurssan

تدخين سيجارة أولى، فأجده في إفطار اليوم التالي يقول حكمة في الهواء وهو ينظر إليّ من بين أوراق الجورنال:

- جرّب كل حاجة، بس ما تخليش حاجة تحسسك انك ما ينفعش تعيش من غيرها.

هكذا، لا كلمة قبلها ولا بعدها. والمرة التي خطر لي أن أصارحه برغبتي في الزواج بحبيبتي بعد انتهاء الدراسة، قبل أن أنطق وجدته يغرق في نوبة من الضحك أصابته بالسعال. واختياره دائمًا لهدية عيد ميلادي الصحيحة، كأني طلبتها رغم تجاهله الدائم للحظة يقول لي فيها: كل سنة وأنت طيب.

من هنا بدأت مرحلة الألغاز. في البداية قلت إن هناك تفسيرًا وحيدًا لاختراقه لي بهذا بالشكل، وكان أني ما زلت أتكلم في أثناء نومي. بدا التفسير واقعيًّا مع روتين بيتنا الذي كنت أنام فيه كل ليلة قبل وصوله إلى البيت، فقررت في يوم أن أصحو له. طلبت من أم محمد أول فنجان قهوة في حياتي. شربته وأغلقت على نفسي غرفتي، وطوال الليل صارعت النعاس بمشاهدة الأفلام من الكمبيوتر. على سفرة الإفطار كنت متأهبًا حين أمسك بالجورنال، وقال:

- بص، التعليم برة أحسن. بس انا عارف انك عايز تعيش هنا، ادخل الجامعة الأمريكية!

دخلت الجامعة الأمريكية، ولكن هذا لم يُعطل بحثي الشاق الذي بدأ بافتراض أني أعيش مع شخص غير عادي، رجل مُدرب في مهمة سرية ما تستوجب هذا الغموض وهذه القدرات.

عميل للمخابرات مثلاً. أذهب إلى الجامعة في الصباح، وفي الليل أجلس لهذا اللغز في البيت عاكفًا على حله، يؤنسني في الفضاء الصامت الذي كان يطل عليه شبّاكي: اللون الأخضر المُعتم، الفيلات المجاورة، أصوات كلاب الجيران في حدائقها، السيارات المركونة، لم يكن شيء يتحرك هناك إلا خيالي. أراقب تحركاته في البيت، وفي غيابه أبحث عن أي خيط. أفتش في دولابه، وأقلب بين الأوراق في مكتبته. لم يكن يترك أثرًا واحدًا، سوى تصميمات الكوكا كولا والعصائر والألبان التي لم تكن تخدعني، فتلقائيًّا كنت أعتبرها ستارًا منطقيًّا لأوراق فارغة كُتب عليها بحبر سري لم أصل إليه بعد.

ومع اليأس كبحت جموح خيالي، وصرت أميل إلى تخيل أنه في زيجة سرية طويلة، وبقدر ما أعجبتني فكرة اكتشاف إخوة لي بالصدفة بعد سنوات، أرعبتني فكرة أن أكتشف هذا قبل حصولي على الإعفاء من الخدمة في الجيش. ولكنني لم أعش مع هذه الفكرة لوقت طويل، خصوصًا مع استحالة تطويرها لما كانت تقتضيه من مراقبة دقيقة لتحركاته، فاستسلمت تمامًا وأنهيت بحثي، وساعدني في ذلك أني كنت في أولى سنواتي بالجامعة، وكنت أحس بضرورة البحث عن بنت أحبها، وأصدقاء غير شلة المدرسة التي تفرقت في جامعات أوروبا.

كأن هذه كانت خطته، ألا يفتح لي أي باب للغزه إلا حين يتأكد من يأسي الكامل. على إفطار عيد ميلادي الثامن عشر، كنت متأكدًا من أني خالٍ من أي شيء، من الأسئلة والرغبة في جره إلى الكلام، ففاجأني:

t.me/qurssan

ـ تعرف تسهر معايا النهارده وللا هتنام زي العيال؟

في هـذه الليلـة ناديتـه باسـمه، مصطفـى، بنـاءً على طلبـه ونحن في الطريـق إلى فيـلا صديقـه، الـزوز، ودخنـت هنـاك أول سـيجارة بعـد إيمـاءة منـه بالموافقـة. في الحفـل، صـار لغـزي الجديـد هـو الـسر وراء احتياجـه إلى الألغـاز. طـوال اليـوم كان فضـولي يلعـب بي، أتخيـل نـوع الحفلات التـي يقيمهـا الأغنيـاء العجائـز مثـل شـلة مصطفـى في رأس السـنة، وأقـل مـا توقعتـه كان راقصـات لاتينيـات يرتديـن قطعًـا مـن الشـوكولاتة. ولكننـي وجـدت نفـسي في قعـدة عاديــة جــدًا، أصدقــاء مصطفــى الذيــن كنــت أعرفهــم ومعهــم زوجاتهـم أو صديقاتهـم. دائـرة مـن الكـراسي في الحديقـة التـي كان يجلـس في مركزهـا الـزوز، أو الوزيـر الحـالي بهـاء عـز العـرب. ويسـكي وثلـج وفـول سـوداني وخيـار سـاقع وبعـض الجـبن. فهمـت لمـاذا يحبهـم مصطفـى، لأنـه كان مـن العـادي بعـد السـلامات أن يندمـج في شَيّ اللحـم دون أن يسـأله أحـد شـيئًا أو يبـادر هـو بالـكلام.

اتخـذت لنفـسي ركنًـا بعيـدًا عـن بـؤرة الاهتـمام، وسريعًـا مـا اكتشـفت أنهـم يكملـون حـوارات بـدت كأنهـا يوميـة. في أي شيء كانـوا يتكلمـون، في السياسـة، الاقتصـاد، الفـن، الموضـة، منتجعـات البحـر الجديـدة، الظلـم الاجتماعـي، كسـل العامـل المـصري، غبـاء قـادة البلـد، أحـدث الأفـلام، تنظيـم المـرور في شـوارع لندن، وأسـعار الشـاليهات الجديـدة في السـاحل الشـمالي، والنميمـة الطازجـة مـن مصـادر صنـع القـرار، والتباهـي بـالأكلات الشـعبية في حي الحسـين. ثــم يبــدأ الويسـكي في الـكلام، أحدهــم يخبرنــا أن مصاعــد فنــادق

لاس فيجـاس واسـعة بمـا يكفـي لفـرد الأرجـل في أثنـاء الجنـس، وزوجتـه شربـت بمـا يكفـي لتقـول إنـه يفضـل لاس فيجـاس عـلى أبـراج نيويـورك، لأنـه لا يصمـد لأكـثر مـن خمسـة أدوار، وهكـذا، نسـتمر أو يسـتمرون، حتـى يحـرج أحدهـم ويقـرر الانـصراف، فيقنعونـه بالبقـاء، وبعـد كأس جديـدة يعيـدون عليـه مـا أحرجـه.

مواضيـع عشـوائية تجاهلتهـا، أو اعتبرتهـا موسـيقى في الخلفيـة التـي أراقـب فيهـا مصطفـى وهـو ينجـح بحرفيـة عاليـة ألا يبـدو عليـه أي شيء. حتـى انتهـى الـكلام، وبـدأ الـزوز يعـزف منفـردًا، مـرة، رجـل سـأل سـائق تاكـسي عـن سر تعليقـه لصـور الرؤسـاء في السـيارة، فـرد بـأن أولهـم جـمال الـذي حـارب إسرائيـل، وثانيهـم أنـور الـذي خدعهـم، وثالثهـم حسـني، أبـو عـلاء شريـكي في التاكـسي. ومـرة طلـب أنـور السـادات أن يرسـم لـه أحـد وشـمًا بعلـم فلسـطين كي لا ينـسى، ولمـا سُـئل عـن مـاذا سـيفعل بـه إن تحـررت فلسـطين، فقـال: أقطـع ذراعـي.

كانـت نـكات الـزوز سـيلاً لا ينقطـع، ولكـن مـع الوقـت بـدأت ألاحـظ هبـوط إيقـاع القعـدة، وانخفـاض صـوت الضحـك عليهـا، ثـم انفـراط الدائـرة إلى أحاديـث جانبيـة، كان مصطفـى يمدهـا بالفحـم الخـارج مـن الشـواية مبـاشرةً إلى شيشـة كل واحـد فيهـم. وكان هـذا حـين أدركـت أني لسـت وحـدي أراقـب القعـدة، بـل الـزوز أيضًـا، عائـدًا بظهـره إلى الـوراء بعدمـا توقـف عـن التدخـين. حـين التقـت أعيننـا في الطريـق، كان عـلى وجهـه وجـوم زال سريعًـا وهـو يطلـب منـي الجلـوس بجانبـه، طلـب لم أفهمـه، خصوصًـا مـع صوتـه العـالي الـذي كان يسـمعه الجميـع.

t.me/qurssan

ـ ولا يا رامي، بتعرف تقول شعر؟

ـ لأ.

ـ ولا ابـوك عـلى فكـرة. فاكريـن يـا عيـال لما كنـا بنقعد نسـمعه طـول الليـل عشـان ناخد منـه مـلازم الكليـة في الآخر؟

لم يـرد أحـد، رغـم أن الـكل انتبـه إلى الـزوز وهـو يقـوم مـن مكانــه ببنيتــه الضخمــة، ويفــرد يديــه في أداء مسرحــي، ويبــدأ الإلقــاء.

ـ بعد الوداع حابب أقولك

إن الأمل بعدك بيحرج

وان حبك للمتاهة مخرج

واني جوه قلبك اهرب

بس الوداع كان أقرب لي.

لسـبب مـا كرهـت الـزوز، وهـو يسـعل مـن الضحك ويـدب على الأرض، ولكننـي ضحكـت حـين ضحـك مصطفـى مـع الحاضريـن، ثـم جلسـت أسـتمع إلى مبارزاتهـم في تذكـر قصائـده أيـام الجامعـة، منتبهًـا لتقليـد رد فعلـه أيًّـا كان، بـدءًا مـن التصفيـق، حتـى ضرب الـزوز في بيتـه، بينـما ظـل مصطفـى شـاردًا لا يبـدي أي شيء.

في طريـق العـودة إلى البيـت كان يقـود السـيارة بروقـان نـادر، وكانـت أول مـرة أسـمعه يغنـي مـع أم كلثـوم.

ـ ابتديـت دلوقتـي بـس أحـب عمـري، ابتديـت دلوقتـي أخـاف لا العمـر يجـري.

وجدتنـي أحـب خيـالي الجديـد عنـه، أكـثر مـن خيـال عميـل المخابـرات. شـاعر مهـزوم تـورط في رحلـة جلـب الأمـوال. كنـت أحـب الأفـلام وهكـذا يكـون أبطالهـا، ولـولا رداءة مـا سـمعته مـن شـعر، لكنـت قلـت إن وصـولي للدنيـا أفسـد عليـه حياتـه ومشـواره الفنـي، ثـم بـدأت الخيـوط تتصـل ببعضهـا، غضـب أنجيـلا وهـي تلـم النقـود التـي تنسـكب مـن جيوبـه لإصراره الغريـب عـلى عـدم امتـلاك محفظـة، كرمـه المبالـغ فيـه معـي، وخناقاتـه المتكـررة معهـا لأنهـا كانـت تقدمـه لأصدقائهـا في النـادي بأنـه رجـل أعـمال. تأملتـه في إعجـاب، وكنـت أوشـك عـلى مصارحتـه بـأني أيضًـا لا تهمنـي الأمـوال، لـولا تأكـدي مـن أنـه سـيعرف كل شيء حـين تمـر المرسـيدس صغـيرة الحجـم بجوارنـا، ويقـول:

- ماشي، حلوة فعلاً. دي هدية الجامعة.

t.me/qurssan

7

- خد دي يا أستاذ. عشان تستحمل اللي جاي!

قال بعد أن قفز فوق بركة مياه تفصلني عنه. دس يده في بنطلونه وأخرج منه كيسًا أسود، وناولني منه قرصًا أصفر مستطيلاً. كنت أعرف من الضوء الذي تسرب على استحياء للزنزانة أن الفجر قد حل. حسبت الوقت، نحن هنا منذ ست ساعات أو أكثر. تخيلت الكثير عما قد يصيبني في هذه الرحلة وأبعده كان الملل. لم يحدث شيء منذ أفقت من إغماءتي نشيطًا على مظاهرة عطشى للمطالبة ببعض المياه، فاستجابوا بسخاء فاتحين خراطيم المياه علينا، ولم يغادروا إلا بعد التأكد من أن الأرض والجدران قد نالت مثلنا نصيبها. أُغلق الباب وأنا أقرأ رسالة الشاب المذعور قبل أن يبتل حبرها، "كونكور. دوا للقلب. كونكور. دوا للقلب". من وقتها وأنا على الأرض، أتتبع

بعينـي المستلقين وأعينهـم الجاحظـة، أسرح مـع شـق للرطوبـة بطـول الحائـط مراقبًـا عبـوره خلـف رأس واحـد ليمـر وراء كتـف آخـر، وأردد بداخـلي اسـم الـدواء كي لا أنـسى.

ابتلعـت القـرص دون تـردد، مذكـرًا نفـسي بـأني قـد قفـزت إلى البحـر بالفعـل، فـلا داعـي للعـودة إلى السـطح برئـة محتفظـة ببعـض الهـواء. أفـكاري لم تكـن بخمـول الزنزانـة، كانـت تجـري بي. مـاذا سـيحدث بعـد، ومـا أول شيء سـأفعله حـين يُفرج عني، وشـكل الحفـل الـذي سيُحتفى بي فيـه والحاضريـن؟ ولكـن، إن كانـت هذه شـكة دبـوس كـما يقـال، فهـل تحتـاج إلى كل هـذه السـاعات؟ لمـاذا تأخـر الـزوز؟ ثـم باغتتنـي هـذه الفكـرة المفزعـة، فكأنهـا شـلّتني تمامًـا عـن التفكـير في أي شيء غـير أن أفلـت نفـسي منهـا، سـيتأخرون في إنقـاذي وسـأمر بـكل مـا قـرأت عنـه ومـا سـمعته مـن حواديـت لم أفـزع لـشيء مثلهـا مـن قبـل. صحيـح أننـي كنـت أحسـد مـن مـروا بهـا، ولكـن عـلى ألمهـم بعـد أن يصبـح ماضيًـا جديـرًا بالاحتفـاء. لا، لا يمكـن أن يحـدث لي هـذا، لا يمكـن حتـى أن أتخيلـه.

اختفـت أفـكاري تلـك وأنـا أسـمع صـوت تكـة القفـل، ولم يبـقَ بي إلا خليـط مـن الأمـل والفـزع، اختلـط حـين فتـح أمـين الشرطـة البـاب كي يدخـل علينـا الضابـط وحـده، بأناقتـه، جينـز وجاكـت أزرق خفيـف، شـعر بسـيط مصفـف ومُبتـل، وبعـض العضـلات الخفيفـة، وعطـر يخـترق روائـح ملابسـنا العطنـة، وهيبـة كأنهـا أضافـت أمتـارًا جديـدة إلى الزنزانـة تسـمح لنـا بـأن نقـف ونلصـق ظهورنـا بالجـدران، لنـترك لـه مسـاحة يتجـول فيهـا أمامنـا بخطوات

t.me/qurssan

بطيئة. قلت لنفسي هي فعلاً ثورة شباب، وهذا شاب في سني، ووجهه مألوف، من السهل أن أكون قد اعتبرته يومًا ما مواطنًا عاديًا، وكسرت له مرآة سيارته في خناقة على ركنة، أو حتى من السهل أن يتعرف عليَّ الآن، حتمًا لدينا أصدقاء مشتركون على الفيس بوك، لعلنا كنا نصنع عضلاتنا في الجيم نفسه، سأعرف حين يأتي دوري، هو الآن يداعب خد بودي.

- إزيك يا بودي. لحقنا نوحشك يا حبيبي.

بودي لا يرد، محتفظًا بثباته ونظرته الشامخة للأمام. يلف الرجل حولنا أكثر من لفة، أدرك منها أن أمنية تكثيف الأحداث مستحيلة، ثم أشعر بهزة مقبلة من اليمين أتجاهلها، ثم هزة أخرى وصوت ارتطام جسد بالأرض، وقع الزميل المذعور صاحب الرسالة. أوشك أن أنزل بركبتيّ إليه حينما أجد بودي، مثل الآخرين، واقفًا في مكانه فأتراجع. يقول الضابط وهو يركل زميلنا على الأرض بضع ركلات خفيفة:

- مالك يا حلوة. فرهدتي. طب تيجي أروقك شوية عندي في التكييف؟

يتحرك زميلنا على الأرض. لا يقدر على الوقوف.

- ما تقومي يا بت. هو فيه راجل هنا أصلاً عشان تحملي؟

أتذكر، تيجي زي ما تيجي، وأقول للضابط:

- هو مش هيرد على حضرتك، هو مريض قلب ومحتاج العلاج.

وقـع الجملـة كان غريبًـا عـليَّ، كأن سـماعي لهـا تأخـر ثانيـة عن نطقهـا. انتظـرت الضابـط حتـى تـرك زميلنـا واقـترب منـي، لدرجـة أني شـممت رائحـة معجـون الأسـنان في فمـه. كتمـت أنفـاسي وأبعـدت عينـي عنـه محـاولاً تخيـل أيـن سـتنزل عـليَّ ضرباتـه، فانتظـرني حتـى لم أعـد قـادرًا عـلى الصـبر ونظـرت في وجهـه، ثـم قـال مبتسـمًا:

- طب مش تقولوا يا جماعة م الأول ان معاكو واحد عيان؟

وبـكل بسـاطة خـرج مـن الزنزانـة، وعـادت لي أنفـاسي مـع صـوت تكـة القفـل، ثـم انحبسـت مـن جديـد وبـودي يصـد عنـي ضربـات الزمـلاء. بعـد نجـاح بـودي في تهدئتهـم فهمـت أننـي ضيعـت أي أمـل لهـم في تجنيبنـا علقـة محترمـة، بـل وأني ضيعـت عـلى هـذا المسـكين فرصـة الحصـول عـلى دواء قلبـه لأيـام مقبلـة. صـار أخـيرًا للزنزانـة زعيـم:

- خـلاص يـا جدعـان الـلي حصـل حصـل. وانـت يـا عـم البطـل، مـش ناقصـاك والنبـي. المهـم..

جلسنا نسمع بودي وهو يلقي علينا أول درس.

- جوة مش زي برة. الرجولة هنا صبر.

ثـم بشرنـا بمـا هـو آتٍ، بالتأكيـد سـيهجمون علينـا لتأديبنـا، وسـتزداد هجماتهـم ضراوة كلـما قاومنـا. إذًا، علينـا ترتيـب مواقعنـا، الأقـوى والأكـثر خـبرة أقـرب إلى البـاب، ومريـض القلـب ورامـي في مؤخـرة الصفـوف.

t.me/qurssan

بعـد سـاعة فُتـح البـاب فتأهبنـا. نـادى أمـين الشرطـة عـلى اسـمي، فتأخـرت في رفـع يـدي موزعًـا بـين احتمالـين، إمـا أن يكـون بـودي عـلى حـق ومـن خلـف هـذا الرجـل ضابـط ينتظـر تأديبـي، وإمـا أن تكـون الحيـاة مـا زالـت عـلى طبيعتها وأجـد الـزوز ينتظرني في مكتبـه. رفعـت يـدي أخـيرًا وتكتـل الزمـلاء أمامـي لحمايتـي. ألقـى لي الأمـين بعلبـة سـجائر مـن فوقهـم وحـين نزلـت في يـدي، قـال وهـو يغلـق البـاب إن أمـي أرسـلتها، ففهمـت أن طنـط دعـاء عرفـت مكاننـا، ورغـم قدراتهـا العظيمـة، لم تعـرف أن معنـا مريـض قلـب بالزنزانـة. جلسـنا كلنـا، فوضعـت العلبـة أمامـي، على مسـافة أبعـد مـن أن تكـون ملـكي وحـدي.

t.me/qurssan

8

مـن بـين كل المشـتركين بيننـا أنـا الوحيـد الـذي يُسـمح لي بـأن أطلـق عليهـا طنـط دعـاء، هـي للجميـع دعـاء فقـط. تقـول دائمًـا إننـي ابنهـا ولا أعـترض، وتظـن أن علاقتنـا توطـدت في السـنة الماضيـة، ولم أصارحهـا أبـدًا أن أهميتهـا في حيـاتي سـبقت هـذا التاريـخ بسـنوات.

أعرفهـا مـن قعـدات الـزوز التـي صرت، سريعًـا بعـد أول لقـاء، عضـوًا دائمًـا في سـهرتها الأسـبوعية. حتـى في السـهرات التـي يكـون فيهـا مصطفـى خـارج مـصر، كنـت أذهـب وأحتـل مكانـه. أجلـس في ركـن قريـب مـن الصخـب، لا أحـد يزعجنـي ولا أزعـج أحـدًا، وأراقـب طنـط دعـاء. الوحيـدة التـي كنـت أشـعر أنهـا منتبهـة لوجـودي، والوحيـدة التـي لم تضحـك عـلى سـخرية الـزوز مـن قصائـده، والوحيـدة التـي كانـت تـأتي مثـل مصطفـى بـلا شريـك

ومثلـه تجلـس شـاردة. كان الأمـر واضحًـا، أريـد أن أعرفهـا، بالطبـع قبـل أن يعرفهـا كل مـن يملـك جهـاز كمبيوتـر في ذلـك الوقـت، نجمـة سـنة الألفـين واثنـين، كلنـا سـمعناها وهـي تقـول لرجـل الأعـمال الشـهير في ذلـك الوقـت، هـاني أبـو العـز:

- يا هاني أنا ما اكلش ولا اشرب بس اشوفك كل يوم.

في الفيديـو الشـهير، كنـا نـرى هـاني وعضـوه الصغـير بينـما طنـط دعـاء أعطـت ظهرهـا لـه ليحـاول فعـل شيء اتفقنـا عـلى عـدم تمكنـه فيـه، لذلـك اندهشـنا حـين عرفنـا فيـما بعـد أنـه هـو مـن خبـأ الكامـيرا في الـدولاب، ليُظهـر لنـا الفيديـو الـذي نهشـنا كل تفاصيلـه بنهـم، اللـون الأزرق لحمالـة صدرهـا، بـل وتوقعنـا مقاسـه والجـرح القديـم الـذي تـرك أثـرًا في أسـفل بطنهـا ناحيـة اليمـين، ولـون مـلاءة السريـر البنفسـجية، والنجفـة الصفـراء التـي أحبطنـا جميعًـا وقوعهـا عـلى الأرض في منتصـف الفيديـو، حتـى وإن كنـا قـد أكملنـا مُغذيـن خيالنـا بمـا اسـتمر مـن أصـوات. وسريعًـا صـارت طنـط دعـاء نجمتنـا المصريـة التـي فضلناهـا عـلى أي بـورن أجنبـي، أيًـا كان جـمال نسـائه، بـل وخلدنـا جملتهـا الشـهيرة "أنـا مـا اكلـش ولا اشرب بـس اشـوفك كل يـوم"، لتدخـل في مفرداتنـا اليوميـة نـرد بهـا عـلى صديـق يعاتـب عـلى التجاهـل، ثـم تطـورت لرفـض أي اقـتراح "ده أنـا مـا اكلـش ولا اشرب بـس مـا اروحـش السـينما النهـارده"، أو العكـس، حتـى إنهـا باتـت مـن الشـهرة كي تُسـتخدم في أحـد الأفـلام الكوميديـة، وفي المعاكسـات اليوميـة بالشـارع.

كل هـذا أتخيـل أن طنـط دعـاء كانـت تعرفـه، ولكنهـا بالتأكيـد لم تكـن تـدري كيـف غـيَّر هـذا الفيديـو حيـاتي لفـترة لم تكـن قصيرة.

t.me/qurssan

لم أفكـر فيهـا أبـدًا كسـيدة جميلـة، ولكـن حقيقـة أننـي لمسـتها مـن قبـل، وتحدثـت معهـا عـن أدائي الـدراسي وأنهـا احتفلـت بعيـد ميـلادي، كانـت تثـيرني بشـكل لم أسـتطع مقاومتـه، مـن منـا لم يتمنَّ أن يحظـى بهـا؟ لم أصنـع وقتهـا الشـائعة، إلا أننـي لم أنفِهـا. جعلـت أحـد الأصدقـاء يشـاهد الصـورة عـلى موبايـلي، وطنـط دعـاء تقطـع تورتـة عيـد ميـلادي العشريـن معـي، ولا أنكـر أني شـاهدت اللمعـة في عينيـه مسـتمتعًا، واسـتمتعت بسـنة دراسـية كاملـة مـن احـترام الذكـور وغيرتهـم، ومـن لهفـة الإنـاث عـلى التقـرب منـي، بـل وتحـول فجـأة خجـلي الدائـم إلى غرابـة مثـيرة للاهتـمام، وصُنعـت أسـاطير جامحـة عـن حيـاتي، جعلـت مـن المسـتحيل تخيـل أحـد أني عـادةً أقـضي ليلـة الخميـس مـع مصطفـى.

كنـت سـعيدًا بهـذا الاهتـمام، ولكـن كان بـه شيء يربكنـي لم أضـع يـدي عليـه إلا في عيـد ميـلادي الحـادي والعشريـن، تحديـدًا حـين وضعـت الفوطـة عـلى الكـرسي في صالـة الجيـم ثـم جلسـت. اختلسـت نظـرة سريعـة إلى المـكان. كنـا وقـت المغـرب. سـاعة الـذروة. وكانـت الموسـيقى العاليـة تحجـب سـماع الأصـوات المعتـادة.

- عاش يا وحش. بطل يا كوتش.

في ركـن بعيـد كان بعـض البنـات والعجائـز عـلى المشـايات والعجـل، بينهـم مصطفـى وأمامهـم التليفزيونـات. أمـا في ركننـا، كان الـكل منشـغلاً بأثقالـه، ومـن أمامـه المرايـا. حركـت واحـدة منهـا أمامـي ووضعـت عشريـن كيلوجرامًـا في بـار الحديـد ثـم نظـرت إلى كتفـي، ورأيـت أن لا شيء تغـير فيـه بعـد شـهر كامـل

مـن التمريـن، مـا زال رأسي أثقـل مـا في جسـمي. أخـذت نفسًـا عميقًـا وأنـا أحمـل البـار. واحـد. اثنـان. حتـى العشريـن. مـاذا أتى بي إلى هنـا؟ وجـدت شـابًا يقـف أمامـي تبـدو فوطتـه صغـيرة جـدًّا عـلى حجـم كتفـه، يقـول لي:

ـ ممكن اخش معاك يا كوتش؟

وافقـت. حملـت الفوطـة عـلى كتفـي وقمـت. أضـاف عـشرة كيلوجرامـات، وأخـذ نفسًـا أعمـق. عـددت لـه في سري حتـى واحـد وعشريـن. ثـم قـام مـن عـلى الكـرسي في اتجـاه الأوزان وسـألني:

ـ أشيل اللي حطيته؟

كذبت:

ـ لا أنا كنت باسخّن.

عـشرون عـدة أخـرى. في دوره أضـاف عـشرة كيلوجرامـات عـلى الأوزان. قبلـت التحـدي حـين أتى دوري. تبادلنـا الابتسـامات مـع كل نـزع للفوطـة مـن عـلى الكـرسي. خمـس دورات حتـى سـمعت صـوت تزييـق كتفـه في العـدة الأخـيرة. نظـر إلى المـرآة لثـوانٍ، وسـلم عـليَّ بيـده قبـل أن ينـصرف. وضعـت فوطـة المنتـصر عـلى وجهـي. ولكـن مـاذا أتى بي إلى هنـا؟ عـاد السـؤال. كنـت أملـك دعـوة مفتوحـة ممـن سـيقضون ليلتهـم يرقصـون في تامـاراي، ومـن سـيشربون سـيجارتين في السـيارة عـلى كورنيـش أبـو الفـدا، ومـن سـيملأون كافيهـات المهندسـين ضجيجًـا، ومـن سيحشـون بطونهـم بالفشـار في سـينما سـيتي سـتارز، ومـن ينظمـون الآن بطولـة للبلاي ستيشـن. حتـى مـن سـينفقون أمـوال العيلـة عـلى المـزاج الشـعبي

t.me/qurssan

في كباريـه آمـون، قبـل أن يختـاروا أجرأهـم ليشـتري الكوندومـز مـن أون ذا ران. أنـا لسـت وحيـدًا، ذكَّـرت نفـسي. حتـى وإن كنـت أبـدو بهـذا الشـكل، فهـو شيء لم أُجـبر عليـه. صحيـح أننـي لـن أفسـد عـلى أحـد ليلـة رأس السـنة إن اختفيـت الآن، ولكـن لي بنتًـا تحبنـي، بعيـدًا عـن أن مللـي مـن الشيشـة ومـن الثرثـرة في التليفون كل ليلـة يضايقهـا. ولي أخـرى أحبهـا، إنمـا لـن أمنحهـا أبـدًا كلمـة سر تليفـوني لإثبـات حسـن نيتـي، كـما أن بيتهـا بعيـد، وأنـا أعـرف ممـن سـبقني أنهـا تخلـط بـين الرغبـة في حبيـب والحاجـة إلى سـائق يعيدهـا إلى البيـت.

قُـضي الأمـر وأنـا أنـزع السـماعات مـن أذن مصطفـى وهـو عـلى المشّـاية.

- مصطفى، حفلتي اتلغت. هاجي معاك.

يضعها من جديد ويكمل المشي.

- حلو، بس ما تأخرنيش. أنا باخلّص أهه.

أسرعـت إلى الحـمام، كل هـذه الأكتـاف الشـاهقة فـوق الفـوط البيضـاء؟ مافيـش أمـل. ولكـن عـلى الأقـل أنجـح أخـيراً في نـزع البوكسر مـن تحـت الفوطـة دون أن تُـرى مؤخـرتي. الحمامـات ثمانيـة، أختـار أبعدهـا وأغلـق عـليَّ السـتارة. بعـد فـترة سـمعت مصطفـى:

- خمس دقايق كمان وهافتح عليك الستارة.

فتحـت الـدُّش، وأمسـكت بشـيئي لأُفـرغ مـا بي وأنـا أنتقـي أي سـتّ منهـن لخيـالي، روتـين كنـت أتبعـه عـادةً قبـل حفـل هـذه

الشـلة كي أحـضر أليفًـا ومطمئنًّـا، خصوصًـا منـذ أدركـت أن شـيئي يسـتقل عنـي في هـذه الحفـلات؛ ويحرجنـي بثوراتـه المفاجئـة دون أي سـياق مُحفـز. مفعـول هـذا الروتـين كان ينتهـي بانتهـاء الحفـل، ففـي غرفتـي كنـت أُنشـئ مصنعًـا للخيـال، أغذيـه كل خميـس بمـادة متجـددة مـن صـور أحفظهـا جيـدًا في ذاكـرتي، لأكتـاف وأرجـل وصـدور لم تحمِهـا فسـاتينها مـن كامـيرات عينـي الثاقبـة، وأحضانهـن الطويلـة لي، ومناغشـاتهن الدائمـة حـين يفقـدن الاهتمام بمـا يتناقـش فيـه الذكـور، وقبلاتهـن السريعـة عـلى خـدي، كل مـا كنـت أحصـل عليـه بسـبب رخصـة الطفولـة التـي أشـك أنهـن لم يلحظـن انتهـاء صلاحيتهـا. أعـود لأحـرك هـذه الصـور في قصـص ممتـدة مـن الخيانـات والمغامـرات بـين أفـراد الشـلة، انتهـت بي في مـرة إلى شـكوى أنهـم لا يلحـون عـلى مصطفـى حـين يهـب فجـأة كالعـادة لنغـادر الحفـل، لأن هنـاك حفـلاً آخـر سريًّـا يبـدأ بعـد رحيلنـا، حفـل تُنـزع فيـه الفسـاتين وتتبـدل فيـه الأدوار والملكيـات. هـذا سـبب وحيـد لإصرارهـم عـلى هـذه الحفـلات، وهـذا سـبب وحيـد لأفـرح أن أنجيـلا في كاليفورنيـا.

- يا بني اتلم بقى عيب.

أتأكـد أن مصطفـى لم يـزِح السـتار، أعيـد خيـالاً أعـرف سرعـة تأثـيره، نجمـة حفـل الليلـة التـي سـأراها للمـرة الأولى بعدمـا حفظـت كل شـبر فيهـا، طنـط دعـاء، أتخيلهـا تسـبقني إلى سـطح الفيـلا، أتفاجـأ بأنهـا تنتظـرني عـلى السـلالم، تلتهـم أسـناني، تُشـقق شـفتَي بأسـنانها الصلبـة، أمـزق حمالـة صدرهـا فتطـير حلمتاهـا إلى الهـواء مـن نهدهـا الأسـمر الممتلـئ، أفتـح السـتار. أنجـح أيضًـا

t.me/qurssan

في ارتـداء البوكـسر دون أن يـرى أحـد شـيئًا. أحمـل شـنطتي مـن الـدولاب، بجـواري شـاب الكتـف المهزومـة يضـع عطـره، عـلى وجهـه كانـت ابتسـامة سـاخرة، فتجاهلتـه.

t.me/qurssan

9

أتــوه أحيانًــا في الذكريــات. أتوغــل هنــا وهنــاك متخيــلاً أن يشـفع لي خلـو نيتـي مـن أي تحايـل، وأني لا أجـد أبـدًا مـا يمكـن أن تشـوبه نيـة الاسـتعراض. أقـف عنـد ذكـرى مـا، وأصـير متأكـدًا أني أمسـكت في يـدي بـأول الخيـط، فأحكـم قبضتـي عليـه، ولكـن أول مـا أخطـو فيهـا أكتشـف أن الحبـل ينفـك منـي، وكذلـك الطريـق، إلى طـرق أضيـق وأطـول متوازيـة، دون أن يبـدو لي في الأفـق أي ميـدان. أو يُحتمـل أني أتـوه لعـدم معرفتـي حتـى الآن كيـف أصـل إلى التلـة، التـي سـأرى منهـا خريطـة تنتهـي بي إلى حـب بائـس لفـرس سـباق اسـمها هديـر، أو قافـزًا في سـيارة ترحيـلات أو كـما الآن، مُعلقًـا في صـورة عـلى الجـدران. مـا زلـت عالقًـا هنـاك، في ذلـك الشـاب وعيـد ميـلاده الحـادي والعشريـن، في طريقـي لقعـدة الـزوز ودهشـة المـرة الأولى التـي يشـتمني فيهـا مصطفـى:

ـ ما تسألنيش عن الموضوع ده تاني يا عرص.

كان يقصد بالموضوع طنط دعاء. في محاولة بائسة قلت إني لا أفهم قصده، ولم أكن قد سألت إلا عما إذا كان يعرف من سيأتي لبيت الزوز الليلة. في هذا الوقت كانت الأسطورة الشعبية تقول إن هاني أبو العز عرف طنط دعاء في أثناء حملة إعلانية، كانت تصنعها شركتها لسلسة السوبر ماركت التي يمتلكها، وإن أحد رجال السلطة قد صمم أن يشارك هاني أبو العز بالإجبار في محلاته، وحين رفض قُبض عليه في قضية شيكات من دون رصيد، وحُكم عليه سريعًا بالسجن ثلاث سنوات. وقيل إن الفيديو قد صُوِّر دون علمها، وإنه وُجد بالصدفة في أثناء مداهمة المباحث للبيت، وقيل أيضًا إن الخناقة أصلاً كانت على طنط دعاء، بينه وبين أحد الوزراء.

لم أكن أعرف وقتها اسم وزير سوى الزوز، ولكني لم أقل شيئًا، ولا مصطفى بعد الشتيمة. أغلق الكاسيت على أم كلثوم فتأكدت من أني أزعجته. كنت خائفًا أن يقرر عدم صلاحيتي لحفلات شِلّته، وكنت كلما أختلس النظر إليه، أتأكد أكثر من أني على مشارف لحظة مهمة ستغير حياتي كما أعرفها. ولما لاحظت أنه يلمحني كلما نظرت إليه، قررت أن أشغل نفسي بأي شيء، بالنظر إلى الخارج.

في الطريق من الجيم إلى الكمبوند حيث يسكن الزوز، لا شيء، لا شيء حرفيًّا يمكن أن تراه بعد إضاءة الشوارع سوى فيلات تحت الإنشاء، وكلابًا تخرج من الصحراء عند مرور أي سيارة، ولكن يمكنك أن تلعب مع أعمدة النور. تختار عمودًا

t.me/qurssan

ثـم تكتـم نَفَسـك حتـى تصـل إلى العمـود الـذي يليـه في الصـف. عليـك أن تتحـدى قدراتـك في تقصـير النفـس في الشـوارع المنـارة، وقدراتـك عـلى حبسـه في أثنـاء الملفـات والشـوارع الجانبيـة. لعبـة بـلا معنـى. وقتهـا لم يكـن قـد أصابنـي بعـد داء المعنـى وطُرقـه المهلكـة.

إنمـا هـذه لعبـة لم أردهـا. ليسـت لعبـة مـن الأسـاس. عُـدت بعينـي لداخـل السـيارة أبحـث عـن الولاعـة، ودون قصـد نظـرت إلى مصطفـى الـذي يتحـدث في الموبايـل. كان عمـود النـور قـد أضـاء جانـب وجهـه الأيمـن وحـده دون باقـي السـيارة، فانتبهـت فجـأة لـشيء مهـم، شـعرة بيضـاء كأنهـا تولـد الآن في شـعره، تحديـدًا فـوق أذنـه. أخـذ منـي نَفَسـي حتـى العمـود التـالي، وإذا بهـا ولـدت أخـرى، أقـرب إلى الرمـادي وإلى جبهتـه. عنـد العمـود الخامـس حثتنـي فكـرة أن أنبهـه، أن أخطـف مـن يـده الموبايـل كي ينقـذ نفسـه مـما يحـل الآن بـه، وبي. ولكـن هـذه الشـعرة كانـت أسرع منـا، توغلـت في رأسـه تكتسـح سـكانه السـود. أنهـى مكالمتـه وأخـذ نفسًـا ملـولاً وهـو يلـف بالسـيارة مُغـيراً الطريـق، ثـم توقـف بنـا، وقـال:

- بذمتك ما زهقتش من العالم العواجيز دي؟!

- ليه بس؟

ربمـا هـذه هـي أول مـرة ينظـر إليَّ في عينـي وهـو يكلمنـي، ولم أسـتطع أن أفـرق إن كانـت هـذه أكـثر نبراتـه حـدة، أم هـو رأسـه الجديـد الأبيـض يتكلـم مكانـه.

ـ هـي قافيـة؟ غـاوي قـوي يعنـي تقعـد تسـمع أسـاطير الـزوز واحنـا عارفـين ان بتاعـه بطّـل يقـف قبـل مـا انـت تتولـد؟

قالهـا وهـو يشـعل سـيجارة، تأخـرت قليـلاً في الـرد مندهشًـا مـن منظـر السـيجارة في فمـه، كأنهـا فجـأة لم تعـد تشـبهه، وأجبـت بعـد أن أشـعلت واحـدة لي، وبعـد تحركـه بنـا:

ـ اللي انت عايزه.

اخـترت أن أكـون ناحيـة السـيارات ونحـن نعـبر شـارع طلعـت حـرب، هـذا الرجـل عجـوز حتـى لـو لم يكتشـف بعـد. عـلى الرغـم مـن أنـه مـا زال قـادرًا عـلى الإدهـاش، فكـرت ونحـن ندخـل مـن البـاب الضيـق لبـار سـتيلا. في المدخـل مبولـة بابهـا مـوارب، ووراءها رجـل يدخـن وهـو سـعيد بإفـراغ مثانتـه. خطوتـان وشـعرت أني داخـل كرتونـة صفـراء تُركـت منـذ زمـن حتـى صـارت غـير ملحوظـة. صنـدوق إذا قفـزت أصـل إلى نهايتـه ولا يطـل عـلى شيء، ربمـا كان الشـباك الوحيـد يـرى الشـارع قبـل أن يُبنـى أمامـه كشـك يسـد الهـواء، وبـدا كأن أحـد الزبائـن قـد حـاول الهـرب مـن قبـل فثُبتـت عـلى الشـباك هـذه الأسـلاك. لم أعـرف مـاذا ننتظـر، فقـد كان واضحًـا أنـه لا يوجـد مـتر واحـد خـالٍ في المـكان، وأن هـؤلاء الزبائـن الذيـن تـتراوح أعمارهـم بـين العشريـن والثمانـين، قـد عُبئوا هنـا قبـل وصولنـا بغـرض التخزيـن، حتـى وإن تشـجع أحدهـم وحـاول الخـروج، فهـذا يحتـاج إلى سـاعة لتحريـك الكـراسي وشـفط الكـروش وحمـل الترابيـزات كي يُفسـح لـه ممـر آمـن، ولكـن الرجـل الـذي عرفـت أنـه يعمـل بالمـكان مـن جلوسـه بجـوار ثلاجـة البـيرة كأنـه يحرسـها، كان قـد فتـح لنـا زجاجتـي بـيرة دون أن نطلـب،

t.me/qurssan

وهــو يشــير باتجـاه طاولــة لم أحددهــا بلهجــة لم أكــن أعــرف أنــه يمكــن توجيهها للزبائــن:

- بس هتحاسب دلوقتي. بنغيّر دورية. نُطوا هناك.

لم يعــترض مصطفــى ولم ينظــر حتــى إلى الطاولــة المقصــودة. أعطــى للرجــل ثمنهــما ولم يــترك لــه أي بقشــيش. أمســك كل منــا بزجاجتــه وتحركنــا في المســاحات الضيقــة الخاليــة بتــوازن لاعبــي السـيرك في المـشي عـلى الحبـل. هـل يبـدو كل شيء أصعـب وأنـت تتخيلــه؟ طاولــة بهــا أربعــة أجانــب، ولــدان وبنتــان، وكرســيان فارغـان، جلس هـو فجلسـت، لم يهتمـوا بالترحيـب بنـا وبـدا هـذا طبيعيًـا، لا يقتـضي أن نـبرر اقتحامنـا لقعدتهـم، أكملـوا كلامهـم، إنجليــزي بلكنــة بريطانيــة، حاولــت التنصــت عــلى موضــوع الحديـث. أمـا مصطفـى فـكان راغبًـا للمـرة الأولى في فتـح حـوار لا يمكــن غلقــه بعــد جملتــين.

- ماعلــش بقــى، أنــا عــارف انــك مــا بتحبــش البــيرة، بــس مافيــش هنــا غيرهــا.

- لا تمام.

- أنا برضو ساعات بازهق من الويسكي.

- لا أنا باحبه!

- طب بطّل تحط بيبسي عليه. ده شغل خولات!

انطلــق مصطفــى ولم يتوقــف، تحــدث بحــماس عــن تاريــخ الويســكي، مــن أول تســميته بمــاء الحيــاة وصــولاً إلى فــن التقطــير،

والفوارق بين الويسكي الأسكتلندي والأمريكي. يُحتمل أن الأمر أخذ منه ساعة أو أكثر، كنت فيها قد فقدت تركيزي بسبب الضوضاء في المكان، وكنت شربت ما يكفي حتى تمتلئ مثانتي فأفكر في الطريق الشاق إلى الحمام، وأنا أفرك بيدي على جفني الذي التهب من كثرة الدخان، وكان هذا حين حلت الساعة الثانية عشرة وانطفأ النور احتفالاً برأس السنة. ثبتنا في أماكننا وحين عاد النور فاجأني بخبطة جديدة على كتفي، كنت متأكدًا هذه المرة من أنها من باب الود:

- ذوقك حلو، حلوة فعلاً البت دي!

لم يكن لدي أدنى فكرة عن أي بنت يقصد، ولكنني وجدت أن من المخجل إحباطه، خصوصًا بعد محاولاتي المستميتة في قعدات الزوز أن أقنعهم بمغامراتي النسائية المزيفة. قلت:

- آه جدًّا.

هذا ليس مصطفى، بل شعره الأبيض يتكلم. قلت لنفسي وهو يعدل من قعدته ليكلم البنت الإنجليزية المقابلة لي، ويسألها إن كانت تستطيع أن تدفع لي ثمن زجاجة بيرة. ارتبكت البنت في البداية ولكنها سرعان ما طلبت لي واحدة وهي تسمع قصته عن السبب.

قال إنه صديقي، وإني حزين لأني سُرقت. أنا في قصته فنان شارع، أعيش على العملات المعدنية التي يرمي لي بها المارة، وهم يسمعون عزفي على الجيتار في محطات المترو، وإني اخترت هذا المستقبل بسبب إيماني بأن الموسيقى ملك الجميع، ولا

t.me/qurssan

يجب تعبئتها في شرائط كاسيت. المهم أنه كان معي اليوم حين هاجمتني مجموعة من الملتحين في محطة مترو السادات، زاعقين بأن الفن حرام، ولم يتركونا إلا بعد سرقتهم للجيتار وحصيلة أموال اليوم، وإني الآن لا حول لي ولا قوة، ولا أعرف كيف أستطيع تدبير إيجار السطح الذي أسكن فيه بوسط البلد.

أصابني الذهول، مثل باقي المستمعين الذين كانوا يقاطعون القصة بعرض المساعدة بعمل حملة تبرعات على الإنترنت لابتياع جيتار جديد لي، بل وعرض بعض الأموال. أما هي، فانتظرت حتى انتهاء القصة لتنجح في إبعاد عينيها اللامعتين عني، ثم طلبت رقم موبايلي بعد تقديمها لنفسها بأنها مخرجة أفلام، تود عمل فيلم تسجيلي عن حياتي. قبل أن أتكلم قاطعني مصطفى ليذكّرني بأن موبايلاتنا سُرقت أيضًا مع باقي متعلقاتنا، ثم وعدها بأن نعود في الغد لنلتقيها في البار. ونحن نخرج من الباب لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة الوداع عليها، وكانت عيناها تنتظرانني وبهما شفقة أنستني أن القصة مُختلقة بالكامل. خنقني أول نفس هواء بعد خروجنا من الكرتونة، وانفجر مصطفى في ضحك لم يعجبني، وللمرة الأولى قال لي ونحن نركب السيارة:

- كل سنة وانت طيب ياض.

حاولت طرد الفكرة السخيفة الساكنة في دماغي طوال الطريق، أني كنت أفضل قضاء عيد ميلادي في مكان آخر.

t.me/qurssan

10

هـذا المـكان الآخـر الـذي رغبـت أن أقـضي فيـه عيـد ميـلادي التـالي، لم أبحـث عنـه إلا قبـل نهايـة السـنة بأسـبوع، لأن الأشـياء تحـدث. ومـا حـدث أن عاصفـة ثلجيـة هاجمـت فرانكفـورت فأجلـت رحـلات الطـيران لوقـت غـير معلـوم، وبالتـالي صـار أمـر عـودة مصطفـى إلى القاهـرة قبـل رأس السـنة مشـكوكًا فيـه. بـاب حفـلات الـزوز لم أكـن أجـرؤ عـلى طرقـه، وعزومـات أصدقـاء الجامعـة لم تكـن قـد أتـت بعـد، ففتحـت بـابي أخـيرًا لكريـم، بعـد أن أرسـل إليّ مثـل كل سـنة يُعلمنـي بوجـوده في مـصر في أثنـاء إجـازة الكريسـماس، واقترحـت أن أسـتضيفه للعـب البـلاي ستيشـن.

لكريـم حاجبـان عريضـان، يرفـع الأيمـن حـين يسـتنكر، مثلـما فعـل ونحـن زميـلا مدرسـة في اليـوم الـذي لم أعـرف فيـه كيـف أبـرر لـه سر إنهـائي لصداقتنـا. ويرفـع الأيـسر حـين يندهـش، وهـذا

رأيتـه بعدهـا بسـنوات حـين طـال حضنـي لـه عـلى بـاب البيـت، حضـن تأكـدت فيـه مـن انـزواء رائحـة كريـم المربكـة وسـط رائحـة الجلـد في سـترته، فقلـت إن تيتانيـك لـن تغـرق الليلـة مـرة أخـرى، وإن هـذا أصبـح أخـيرًا مـن التاريـخ.

سـيرتفع حاجبـه الأيـسر بعدهـا ثـلاث مـرات. الأولى، وهـو يكتشـف أن بيتـي ظـل كـما هـو دون أي تغيـير وهـو يدلنـي عـلى مسـمار في أحـد كـراسي السـفرة، قـال إنـه كان دائمًـا يمـزق بنطلونـه ونحـن نذاكـر. والثانيـة، حـين لم أجـد شـيئًا أقولـه عـن طموحـاتي بعـد الانتهـاء مـن دراسـة التجـارة في الجامعـة، مُبديًـا إعجـابي برغبتـه في اسـتكمال دراسـته للهندسـة بإنجلـترا، ورغبتـه في التدريـس في إحـدى الجامعـات هنـاك بعدهـا. أمـا الأخـيرة، فقـد أدهشـتني معـه حـين قطـع لعبنـا جـرس البـاب، ففتحـت لأجـد ثلاثـة عـمال يحملـون كراتـين بهـا طاولـة بليـاردو، قـال مصطفـى إنهـا هديـة مبكـرة بمناسـبة عيـد ميـلادي الثـاني والعشريـن، وأصر في مكالمتـه مـن فرانكفـورت أن نضعهـا مـكان طاولـة السـفرة.

لعـل رائحـة كريـم القديمـة قـد مـرت عـليَّ مـرة أو مرتـين ونحـن نسـاعد العـمال في تركيـب الطاولـة، أو كانـت مختبئـة في خشـب السـفرة ففاحـت حـين حركناهـا، إلا أنهـا لم تكـن بالسـطوة نفسـها التـي حبسـت أنفـاسي مـن قبـل، بـل كان وقـع استنشـاقها يبعـث عـلى البهجـة كلـذة قضـم أغطيـة الأقـلام الجافـة.

بعـد انـصراف العـمال وقفـت أراقبـه وهـو يتأمـل البيـت منتظرًا أن يقـترح لعـب مبـاراة بليـاردو، ولكـن اقتراحـه كان أكـثر توريطًا:

t.me/qurssan

- لو شلت الكنب اللي قدام التليفزيون ممكن تعمل حفلة فشيخة هنا!

ثم تحرك باتجاه الباب فسبقته إليه، وقبل أن أفتحه سألت:

- هتبقى لسة في مصر لحد راس السنة؟

- عيد ميلادك؟ كل سنة وانت طيب. هابقى موجود آه!

- هاعمل حفلة هنا. تيجي؟

- أكيد. لو فضلت عايز تعزمني.

ثم مد يده للسلام، لم يرغب أحدنا في عناق هذه المرة، كانت خطواته الواثقة من حديقة البيت إلى سيارته مستفزة. أغلقت الباب حتى تأكدت من أنه انصرف، وفتحته من جديد وفي ذهني قضاء بقية الليلة أتمرن في الجيم.

كانت هذه المرة الأولى التي أقيم فيها حفلاً، فلم أعرف فيم ورطت نفسي. قبلها بثلاثة أيام تذكرت أن الحفل يقتضي عزومة ناس غير كريم. انتظرت حتى بدأ الأصدقاء التشاور حول خروجة رأس السنة فدعوتهم. كنا خمسة، وبيننا صديقة. قالوا إنها فكرة جيدة، ولم يقولوا إنهم سينشرونها في كل مكان بالجامعة، فعاد الاهتمام المبالغ فيه بخصوصي، أتجول وأنا أقبل طلبات جديدة للانضمام إلى الحفل، وأقول إني لا أمانع بالتأكيد استضافة أسماء لا أعرفها، وأوافق على لستة موسيقى تقترحها صديقة، وأطمئن صديقًا بأن قواعد البيت لا تمنع استضافة أي مخدر أيًا كان، وأشرح لشخص لا أعرفه علاقتي بمصطفى

التـي لـن تنتـج مشـكلات، وأؤكـد أنـه خـارج مـصر. أجيـب عـن كل الأسـئلة بالتفصيـل، حتـى سـؤال إن كانـت غـرف النـوم في البيـت تُغلـق مـن الداخـل. وفي يـوم الحفـل، أرسـل إلى كريـم صـورة مـكان الكنـب بعـد إزاحتـه، ثـم أفـرّغ ثلاجـات السـوبر ماركـت مـن الثلـج والشـيبسي ومحـل البيتـزا مـن بضاعتـه، وأجلـس أخـيرًا منهـكًا أمـام دولابي المفتـوح لأرد عـلى مكالمـة مصطفـى.

ـ هاوصل المطار كمان أربع ساعات. يللا نسافر!

ـ بجد؟!

ـ آه بجد، عامل لك مفاجأة!

أصمـت قليـلاً، ثـم أتذكـر تصرفـه في سـتلا بـار، فأتراجـع عـن دعوتـه للحفـل وأتـردد قبـل أن أقـول لـه:

ـ ده الزوز كلمني. وعازمنا!

ـ إنت عرص يلا. سلام!

أنهـى المكالمـة فقسـمني نصفـين، الأول فـرِح بضعفـه الجديـد أمامـي واحتياجـه لي، والثـاني يشـعر بصوتـه يلتـف حـول عنقـي. أتجـول في فـراغ الصالـة والأفـكار تطحـن دماغـي حتـى بقيـت فكـرة واحـدة، شـعر مصطفـى أبيـض والوقـت كالسـيف. قفلـت هاتفـي، لم يُبـدِ أنـه تفاجـأ حـين رآني في اسـتقباله بالمطـار، وهـذه المـرة وافـق عـلى شروطـي.

ـ أنا اللي هاسوق، ومفيش أم كلثوم. هنسمع عمرو دياب!

t.me/qurssan

في طريـق السـفر تنازلـت لـه أيضًـا وسـمعنا أم كلثـوم، بـل وغنيـت معـه مقطعـه المفضـل متجاهـلاً كرهـي للأغنيـة:

- ابتديـت دلوقتـي بـس أحـب عمـري. ابتديـت دلوقتـي أخـاف لا العمـر يجـري.

فتـح لي مصطفـى يومهـا آخـر خزائـن أسراره، مركبنـا في الجونـة. نمنـا حتـى الفجـر، ثـم خرجنـا إلى البحـر. تعلمـت منـه قيـادة المراكـب، وأصـول الصيـد واختيـار الطُعـم، كان حظـه يأتيـه في سـمك صغـير، أمـا أنـا فبقيـت حتـى المغـرب دون شيء ثـم ظفـرت بسـمكة قـاروص ضخمـة، كـدت أقـع وأنـا أجذبهـا بسـنارتي، وأغرقـت ملابـسي بمـاء البحـر وهـي تقـاوم نهايتهـا. كان يومهـا صوتـه جميـلاً وهـو يصفـق لي.

- الكبير للكبير يا معلم.

في طريـق العـودة للقاهـرة، فتحـت هاتفـي غـير مهتـم بكـم الرسـائل الغاضبـة، ولم يمثـل لي عـدم محاولـة كريـم الاتصـال بي أي شيء. أنـا ومصطفـى عالقـان معًـا، وهـذا شيء يسـعدني، وأدرك أن هـذه مجـرد بدايـة.

أغضـب مـن مصطفـى كلـما تذكـرت حـلاوة هـذه الأيـام التـي أنهاهـا بأنانيـة طاغيـة، إنمـا أحيانًـا تمـر بي كطيـف سـعيد مكثـف، يسـتحوذ عـليّ فيهتـز جسـدي لـه. وقتهـا كان كلانـا يعـرف أن للزمـن ذراعًـا حديديـة لا يمكننـا ثنيهـا، فقسـمناها نصفـين. تحركـت أنـا سـنوات تجـاه العجـز، وصغـر هـو مثلهـا والتقينـا في منتصـف

الطريق، في أزهى عصور الرجال، كأننا مراهق وعجوز بلغا الآن الأربعين.

كانت لنا صولات جديدة في البحر، وعلمته لعب البلاي ستيشن متفاديًا أن أسحقه في الهزائم حتى لا يحبط، رغم اتهامه الدائم لي بالغش، انهزم لي كثيراً في البلياردو. كنت أذهب وقتها إلى الجامعة بانتظام، وأنجح بدرجات متوسطة، وكان هو يقضي نهاره في المصنع ليدير أموالنا، ثم نلتقي في المساء لنفكر في كيفية التخلص منها، لم يكن هناك شيء مهم في الخارج، لا نريد شيئًا من أحد ولا أحدَ يريد شيئًا منا، هجرنا حفلات الزوز، وألغيت حسابي على الفيس بوك بعد تعليق منه على انشغالي بأخذ الصور بدلاً من شَيّ اللحم في رحلتنا إلى سيوة.

ـ وبيدّوك كام على كل لايك على كده؟

أصبحنا نسافر في كل عيد ميلاد لي، قطعنا أوروبا طولاً وعرضًا، في برشلونة أصر أن يحجز لنا في الفندق غرفتين، ثم اختفى ليلاً بعد أن غمز لي: "بس ما تجيبش عيال، ما تبقاش حمار زيي"، وفي برلين جرينا من البوليس بعد أن أفرغت مثانتي الممتلئة بالبيرة في جانب الطريق، وفي بوادبست كنا سنصعد جبلاً لنتذوق مئة نوع نبيذ يُصنع منزليًا، لولا أنني أشفقت على ركبته التي لن يعترف أبدًا بأنها تؤلمه، فتظاهرت بآلام في معدتي.

أتذكر يوم تخرجت في الجامعة، لم أهتم بحضور حفل التخرج ولم يكن هو ليهتم. كان حدثًا عاديًا، فقط حوّل مصروفي من الظرف الذي أجده أول كل شهر على السفرة كأنه نُسي،

t.me/qurssan

إلى رقم يُحول إلى حسابي البنكي. كنا نسير في الأيام كمقص في حرير. حتى هذا القرار لم أفكر فيه، ذهبت مرة إلى المصنع وفي نيتي أن نشاهد بعدها مباراة في الإستاد، فوجدت أن لي مكتبًا خاصًّا باسمي مجاورًا لمكتبه، في اليوم التالي كان يمر عليَّ كل ساعة لنسخر من منظرنا بالقمصان والكرافتات، وبعد أسبوع كان يمر كل ساعة ليلعب مباراة على بلاي ستيشن المكتب. أكيد قرأت بعض الأوراق وشاهدت زجاجة الكوكا كولا وهي تُعبأ مفكرًا في أي فم ستنتهي. ماذا كنت أريد وقتها من العالم؟ فقط أن يبقى كما هو.

t.me/qurssan

11

ظـل خجـلي صامـدًا حتـى انهـزم أمـام رائحـة قـدم مريـض القلـب. هـذا حـذائي، خلعتـه فصـار وسـادتي. لعلهـم ليسـوا بالغبـاء الـذي نظنـه فيهـم، أو عـلى الأقـل بينهـم ذكي يُصمـم الزنازيـن. هـي سـاعة واحـدة أو أقـل وصلـت بنـا مـن شـارع محمـد محمـود إلى هنـا، في الأغلـب نحـن في مدينـة نـصر، أقـصى مـا يمكـن أن يشـطح إليـه خيـالي هـو أننـا في التجمـع الخامـس، ولكـن هـذا لم يمنـع إحسـاس الغربـة الـذي يفرضـه المنـاخ الاسـتوائي للزنزانـة، بـارد قـارس ليـلاً، حـار حـارق نهـارًا، ليسـت هكـذا تكـون القاهـرة في نوفمـبر.

أعتقـد أن الزنزانـة صُممـت كي تعطيـك امتيـازات إذا أثبـتَّ قدرتـك عـلى التراجـع. حـين أرسـلوني إلى مؤخـرة الصفـوف شـعرت بخـزي آلمنـي، ولكـن مـا هـون عـليَّ أني صرت أجلـس تحـت الشـباك

مباشرةً، فأصبحت أول من يعبر عليه الهواء، إلا أن هذه الزنزانة أقدم من أن يوجد بها سر ليُكشف، وبالتأكيد فطن أحدهم من قبل لهذه الميزة، فوضع جردل التبول تحت الشباك. ليس هذا السبب الوحيد الذي أحترم بسببه العدل وأكرهه، إنما هي رائحة النشادر تخترق أنفي فكأني أفكر بها. معها لم أعد أدري إن كنت أحلم بعينين مفتوحتين، أم أن عقلي الباطن قد حُبس معي. كنت أشعر بصهد الجدار يشوي ظهري، إلا أني كنت مستسلمًا له دون إرادة أن أحرك نفسي، ولم أفهم لماذا قرر الزملاء فجأة خلع قمصانهم ولِمَ لم أقلدهم. إذا كان حلمًا، فأنا منزعج فيه من نظرات بودي التي تطمئن عليَّ بين الحين والآخر، كأن عينه شاهد سخيف، يكبح جماح كل قصة أريد أن أحكيها حين أصير حرًّا مع أول زجاجة بيرة ساقعة، تروي حلقي في وسط البلد. وإن كان بالفعل يفسح مكانًا لنفسه كي يجلس بجواري، فكيف يمكن ليد غليظة مثل يده أن تربت بهذه الألفة على كتفي، وهو ينصحني؟

- لما ييجي تاني اضربه على وشه. بعدها كل حاجة هتبقى أسهل.

لم أفهم، بعد أن أفقت من حلمي المشكوك فيه، على ملابس الزملاء وقد صارت ملاءة واحدة تغطي أرض الزنزانة. كان بودي يتكلم متأكدًا من مصيري الذي لخصه بكل بساطة، أني وقعت في يد ضابط لا يرحم مندهشًا من عدم معرفتي به، رغم شهرة قضيته السابقة التي صُور فيها وهو يُدخل عصا في مؤخرة أحد المساجين. كان بودي قريبًا بما يكفي كي يشعر

t.me/qurssan

بارتعـادي، فلجـأ إلى الأدلـة العلميـة، مثـل الهـراء الـذي كان يقولـه مصطفـى في كل رحلـة عـن الطائـرات وكونهـا أكـثر وسـائل النقـل أمانًـا، إحصائيًـا. وكذلـك التعذيـب، طلـب منـي بـودي المقارنـة بـين عـدد مـن يتعرضـون للتعذيـب ومن يلقـون حتفهـم خلالـه، مفترضًا لسـبب مـا أن هـذا قـد يُشـعر مؤخـرتي بالأمـان. مـا هـذا العبـث؟ كان بـودي أيضًـا يملـك حـلاً لهـذا، أن أضرب الضابـط فأختلـق مُـبررًا يقنعنـي بـأن أتلقـى الألم بعـده. لم أقـل لـه غـير:

- تمام يا معلم.

تظاهـرت بالنظـر إلى السـقف كي أنهـي هـذا، ولكنـه ظـل مربتًـا عـلى كتفـي كأننـا تجمدنـا في هـذا الوضـع، ولم يفكنـا سـوى أن زميـلاً آخـر دخـل دون سـابق إنـذار في نحيـب خطـف أنظـار الجميـع، قبـل أن يسترسـل في الحـكي كأنـه في مونولـوج مسرحـي كئيـب، عـن حرمانـه مـن وظيفـة معيـد في كليـة علـوم القاهـرة لصالـح ابـن أحـد اللـواءات.

كنـت أنتظـر أن أسـمع ذلـك في التحقيقـات، ولكنهـا عـدوى وأصابـت الجميـع، كلّ يـبرر وجـوده معنـا. صـارت خشـبة المـسرح تتنقـل بالـدور، هـذا ماتـت أمـه في مستشـفى لم يقبلهـا في الطـوارئ دون قبـول مقـدم العمليـة، وآخـر دكتـور ينجـح في توصيـل البيتـزا سـاخنة كل مـرة، وثالـث أخـوه يوصـف بالبلطجـي لأنـه مـات أمـام قسـم شرطـة إمبابـة يـوم جمعـة الغضـب، ورابـع جفـت قصـة حبـه في خطوبـة دامـت سـبع سـنوات، وخامـس نبـاتي رغـمًا عنـه، وهـؤلاء أربعـة متتالـون مـن العاطلـين. لم أكـن آخـذ الأفـلام الكئيبـة

المصريـة بالجديـة التـي كانـت تسـتحقها. أمـا بـودي، فلـن يحـكي شـيئًا لأننـا كلنـا نعرفـه.

أعـرف بـودي مـن قبـل أن يـؤدِّي دور البطولـة في كوابيـسي. وليـس مـن الميـدان ولا مـن هديـر، صحيـح أنني كنـت أراه أحيانًـا حـين كانـت تندلـع أي اشـتباكات، إلا أني لم أكـن أقـترب أبـدًا كي أعـرف حقيقـة مـا يُحـكى عـن بطولاتـه في محمـد محمـود، وفي كل الأحـوال الأمـر أقـدم مـن ذلـك. محـرك بحـث جوجـل يعرفـه باسـم عبـد الرحمـن غريـب، بطـل مـصر الـذي اكتشـفناه في أثنـاء أولمبيـاد أثينـا عـام 2004. فجـأة اكتشـفنا أن مـصر تمتلـك بطـلاً أولمبيًّـا في رياضـة الملاكمـة لم يكـن قـد تجـاوز العشريـن. جلسـنا في البيـوت وعـلى المقاهـي نشـاهده وهـو يسـحق منافسـيه بالضربـة القاضيـة دون عنـاء، ويعبرهـم وصـولاً إلى ميداليـة ذهبيـة لم تكـن مـصر قـد حظيـت بمثلهـا مـن قبـل. كان العـالم يتكلـم عنـه باعتبـاره ظاهـرة، وخرجنـا نحـن إلى الشـوارع نحتفـل بابننـا الـذي لم يأخـذ الملاكـم الأمريـكي في يـده أكـثر مـن دقيقـة، حتـى لقنـه درسًـا وصـل بالبعـض إلى وصفـه بأنـه شـفى غليلنـا مـن احتـلال أمريـكا للعـراق.

أذكـر جيـدًا كيـف صحونـا في يـوم لنجـد صـوره وقـد مـلأت الشـوارع واعتلـت كوبـري 6 أكتوبـر، وكيـف كان النـاس يتبادلـون الرسـائل عـن موعـد وصـول طائرتـه، مُطلقـين الدعـوات لاسـتقبال شـعبي للبطـل. وقتهـا، لم أسـتجب للدعـوات وفضّلـت أنـا ومصطفى مشـاهدته مـن التلفزيـون، ولكـن الرئيـس كان أول المسـتجيبين. شـاهدناه في انتظـار بـودي عـلى سـجادة حمـراء ومـن خلفـه وزيـر الشـباب والرياضـة، سـلَّم عليـه وانـصرف تـاركًا بـودي وحـده مـع

t.me/qurssan

الكاميرات لنشاهده وهو يسخر من الاستقبال الرسمي له، ثم يصرح بأنه كان يتوقع استقبال أصدقائه ليستردوا أموالهم التي صرفوها عليه كي يتمكن من التدريب والسفر. ذلك قبل أن يختفي من الشاشة، بالطبع لخطأ في الإرسال التليفزيوني، وهو يقول جملته الشهيرة:

- ماعلش كان نفسي اتكلم معاكم أكتر، بس أنا جعان وسمعت ان فيه بوفيه خايف المسؤولين يخلصوه!

أذكر أني رأيت أيضًا هذه الجملة مكتوبة على أحد جدران مدينة نصر، قبل طلوع وزير الشباب والرياضة علينا مداريًا ابتسامته وهو يزف إلينا شائعة أن المعمل الطبي بسويسرا، قد راجع التحاليل الخاصة ببودي واكتشف تعاطيه للمنشطات في أثناء البطولة. نفت اللجنة الأولمبية كلام الوزير، ولكن لم يهتم أحد، مرت الأمور أسرع بعد هذا، قيل إنها مؤامرة من النظام، وقيل إنه التلاعب في نتائج المعمل. في كل الأحوال لم يُجرد من ميداليته الذهبية وأنزلت صوره من الشوارع، وبقيت جملته مكتوبة في مدينة نصر حتى اكتشفوها بعد أسبوع واختفت، كما اختفى تمامًا بودي الذي التزم الصمت. كنت أعتقد أنه نُسي تمامًا منذ ذلك الوقت، ولكنني حين أجريت بحثًا مكثفًا عنه في الفترة الأخيرة، اكتشفت أن جريدة نشرت خبراً عن إدمانه الكوكايين وعزله في مصحة. وأخرى كتبت أنه في أمريكا للتفاوض على اللعب باسمها مقابل مبلغ كبير، ومرات في مقالات عن الأخلاق والرياضة. قبل أن يبدأ أداء دور البطولة في كوابيسي، كنت أراه داخلاً أو خارجًا من محمد محمود.

كنت سارحًا في قصة بودي، فلم أكن مستعدًّا حين أتى الدور عليَّ بأي شبب أحكيه. ومع ترقب الزملاء شعرت بضغط جعلني أستعير أقرب شيء إلى دماغي، كلمة قالتها لي فريدة في الميدان، حين جئت أقولها شعرت كأنها كلمتي:

- أنا مش عايز حاجة. أنا عايز الناس تعيش كويس.

كان لدوري في المونولوج مفعول سحري أنهى المسرحية الدرامية إلى كوميديا صارخة، بعد أن فشل أحدهم في كتم ضحكه وهو يقول لي:

- وده بييجي ازاي ده؟ صحيت م النوم لقيت نفسك كده عادي يعني؟

ليرد عليه آخر:

- لا يا عم عادي، أنا مرة صحيت حاسس كده، بس أكلت بقيت كويس!

ارتداني خجلي لثوانٍ ثم وجدتني أضحك معهم مستسلمًا لطاقة دبت في المكان، كنا لنجري بها لو كانت مساحة الزنزانة تتسع لما هو أكثر من تحريك الأيدي، وبدأ الوقت في التحرك أسرع، حتى توقف تمامًا مع سماع صوت تكة القفل ومن بعده بدأ الهجوم، خمسة ملثمين عبروا الصفوف دون اشتباك. وضعت علبة السجائر في جيبي استعدادًا للرحلة. حملوني بين أيديهم إلى الخارج، ثم أغلقوا باب الزنزانة، ومنه أُلقيت في البوكس، كان هذا أسرع من أن أرى الضابط كي أخلق مبررًا لما ينتظرني.

t.me/qurssan

12

في الزنزانـة لم يكـن أمـين الشرطـة يحتـاج إلى أن يقـول إن علبـة السـجائر أرسـلتها أمـي، لـكي أفـترض أنهـا آتيـة مـن طنـط دعـاء، وكذلـك حـين رأيـت بعدهـا صـورتي معلقـة عـلى جـدران وسـط البلـد بحثًـا عنـي، لم أشـك للحظـة أن أحـدًا غـير فريـدة علقهـا، لأن هديـر لم تكـن لتعلـق صـورتي إن لم تكـن موجـودة فيهـا، ولأن فريـدة تفـترض عنـي أشـياء منـذ عرفتهـا، أحبهـا ويؤسـفني أنهـا ليسـت فيّ. يؤسـفني أيضًـا أني لا أملـك قصـة مُلهمـة أحكيهـا عـما قـذف بي في السـجن، بالطبـع غـير قفـزتي في سـيارة الترحيـلات، فمـن المخجـل أن أكـون قـد دخلـت هـذا العـالم الخطـر قبلهـا بكثـير مصادفـةً، في يـوم كان مـن المُفـترض أن أكملـه في المصنـع.

بالطبـع، لم أكـن أقضي كل سـاعات العمـل في اللعـب. أحيانًـا، كان مصطفـى يسـافر فتُنقـل إليّ دفـة القيـادة تلقائيًـا. كان الأمـر مُربـكًا

في البدايـة، أجاهـد للوصـول إلى شـكل إمضـاء يمنـح اسـمي أهميـة، أتابـع كل الإيميلات المُرسـلة مـن الموظفـين إلى العمـلاء والعكـس، وأسـتمع إلى عـم صدقـي مديـر المصنـع الـذي كان يـصر أن يُشركنـي في كل مشـكلة مهـما صغـرت. أكـثر مـا كان يؤرقنـي هـو أني لم أكـن أعـرف كيـف أشرح نشـاط المصنـع في جملـة واحـدة، فنحـن لا ننتـج أي شيء بأيدينـا، ولكـن لنـا إصبعًـا في كل منتـج، نعبـئ الشـيبسي في أكيـاس، والزيـوت في جراكـن، والعصائـر في زجاجـات، والميـاه الغازيـة في صفائـح، ولاحقًـا صرنـا نطبـع القمصـان، أرسـل إلينـا قميصًـا أبيـض وسـنعيده إليـك حامـلاً ماركتـك، في الوقـت الـذي نطبـع فيـه قميصًـا أبيـض آخـر لمنافسـك.

في يـوم دخـل عـليَّ عـم صدقـي المكتـب حامـلاً مصيبـة كادت تكلفنـا ملايـين. أخطـأ العـمال وأدخلـوا جراكـن شركة بيبـسي في خط إنتـاج شركـة كـوكا كـولا، وعبـأوا بالفعـل خمسـين ألـف زجاجـة، وكان باقيًـا لنـا عـلى ميعـاد تسـليم البضاعـة سـاعتان فقـط. فكـرت قليـلاً. أيهـما كنـت أُفضـل قبـل أن أقلـع عنهـما احترامًـا لتماريـن البطـن التـي أواظـب عليهـا؟ يومهـا اتخـذت أول قـراراتي الهامـة، أن نتجاهـل الأمـر تمامًـا. سـخر عـم صدقـي منـي قائـلاً إني أطـور شـعار الشركـة مـن "نحـن نعبـئ كل شيء"، إلى "عبـي لـه وِادّي لـه"، وفي هـذه الليلـة قضيـت لحظـات ممتعـة أتجـول عـلى الأكشـاك سـعيدًا بخدعتـي التـي لم يكتشـفها مدمنـو الميـاه الغازيـة.

هنـا بـدأت أحـب وظيفـة المديـر. أجمـل مـا فيهـا أنـك تتخـذ قـرارات دون عنـاء تبريرهـا، في الأغلـب سـيدخل عليـك الموظـف ويبـدأ شرح المشـكلة، لا عليـك سـوى أن تنصـت وأنـت تعبـث في

t.me/qurssan

أوراق أخـرى، فـور أن ينتهـي سـيبدأ تلقائيًّـا عـرض أكـثر مـن حـل، هنـا انتظـر قليـلاً ليبـدو أنـك تفكـر ثـم اخـتَر أحـد حلولـه بعـد إضافـة تفصيلـة جديـدة أيًّـا كانـت. كل الباقـي سـهل، هنـاك آخرون غـيرك يحاولـون إرضـاء العمـلاء، مـا عليـك سـوى أن تصمـت قـدر ما اسـتطعت، لتحصـل منهـم عـلى أفضـل النتائـج. كثـيرون سـيدقون بابـك عارضـين خدماتهـم، تضييـع وقتهـم يجعـل يـوم العمـل أقـصر وأمتـع. الأهـم، مـا كنـت سـمعت عنـه وانتظرتـه حتـى شـككت أنـه يحـدث فقـط في الأفـلام. قالـت السـكرتيرة في هـذا اليـوم الهـام إن ضيفـة تنتظـرني اسـمها فـرح. أغلقـت اليوتيـوب، ونزعـت مـن أذني السـماعات قبـل أن أسـمح لهـا بالدخـول، مسـتعدًّا لتسـلية جديـدة. فاجأتنـي:

- إيه ده، هو حضرتك رامي مصطفى؟

سـلمت عليهـا باليـد بجديـة بعـد أن هـززت رأسي بالإيجـاب. جلسـت أمامـي وأشـعلت سـيجارة دون اسـتئذان.

- أنـا آسـفة، أصـل لمـا طلبـت أقابـل العضـو المنتـدب ماكنتـش متخيلـة إني هاقابـل حـد زي حضرتـك.

- زي حضرتي ازاي يعني؟

عزمـت عـليّ بسـيجارة، فوافقـت وعُـدت بظهـري عـلى الكـرسي للـوراء قليـلاً، ثـم خطـر لي أن قبـول السـيجارة كانـت فكـرة غبيـة، ليـس مـن المفـترض أن تسـير هكـذا مثـل هـذه الأمـور، فوضعـت السـيجارة أمامـي عـلى المكتـب.

- مش قصدي حاجة وحشة أكيد، قصدي حد صغير وحلو زي حضرتك كده.

أشعلت السيجارة خجلاً من ارتباكي. توقعت أن تكون متدربة أو أني أول عملائها، المنطقي حدوث العكس، أن أغازلها وتبتسم على استحياء. لم يدربني مصطفى على ذلك، ولم أره يغازل مندوبة لأي شركة كي أقلده. إذًا سنرتجل، قبل أن أرد بما يتناسب مع منصبي، وجدت عينيها الجريئتين في انتظاري، سوداوين مكحلتين بعناية فانزعجت، المدير لا يُقتحم.

- إيه الموضوع يا أستاذة فرح؟

لم تمنعها نظرتي الحادة من مواصلة النظر إلى عيني، بل وبابتسامة أظهرت غمازتي خديها كأنها تتحداني. قالت إنها تمتلك جاليري في التجمع الخامس اسمه "بالعربي الفصيح". مصممة ملابس هي، تصنع فساتين منقوشًا عليها باللغة العربية، وقالت إنها حتى الآن تنقش الحروف على القماش بيدها، ومع زيادة الطلب على فساتينها أصبحت تحتاج إلى مصنع يطبع لها الحروف آليًّا. ناولتني كارتًا عليه اسمها، هكذا رأيتهم دائمًا يفعلون في نهاية الاجتماعات.

ربما كان يجب عليَّ أن أقول سأدرس الأمر ثم أتركه لأحد يفتي فيه حين تغادر، لكنني وجدتني أريدها أن تجلس أكثر دون أي فكرة عما يجب قوله، سارحًا في ذراعيها اللتين كانتا كلما حركتهما وهي تتكلم تحركت معهما سلسلة ضخمة بين نهديها الصغيرين، مكتوب عليها "شغف"، ومن ورائها كنت ألمح خطًّا خفيفًا من العرق أشعرني بعطش.

t.me/qurssan

- طب ونشوف شغلك ازاي؟

قامـت مـن مكانهـا، فقلـت إني فشـلت. مـددت يـدي لأسـلم منتظـرًا أن تقـول شـيئًا عـن ميعـاد آخـر سـتمر فيـه، ولكنهـا لم تمـد يدهـا وابتعـدت بضـع خطـوات للـوراء، ثـم وجدتهـا تـدور حـول نفسـها، ويرتفـع مـع دورانهـا فسـتانها الأحمـر فـوق ركبتيهـا كاشـفًا عـن فخـذ صلبـة أكـثر اسـتفزازًا مـن النمـش الصغـير في ظهرهـا الأسـمر. ثـلاث لفـات ثـم ضحكـت وهـي تسـمع صـوت حنجـرتي تحـاول بلـع ريقـي.

- الفسـتان ده مـن شـغلي. حلـو؟ أنـا الجالـيري بتاعـي مـش بعيـد. تحـب تتفـرج عـلى الشـغل كلـه؟

لم أتصـور أن تُعجـب بي فـرح مـن النظـرة الأولى، لكننـي تحمسـت للعبتهـا، أن تصطـاد ابـن صاحـب المصنـع الشـاب بجمالهـا، فتمـرر مشروعهـا، فدخلـتُ في الموضـوع مـن أقـصر طرقه.

- نتفرج، بس دلوقتي، عشان عندي معاد كمان ساعتين.

تأكيـدًا للصفقـة لمسـت ظهرهـا لمسـة خفيفـة وأنـا أفتـح لهـا بـاب المكتـب، فوجـدت ملمسـه رطبًـا لم يجـف مـن عليـه كريـم العنايـة بالبـشرة بعـد، وأعجبنـي كيـف تفـوح منهـا رائحـة جـوز الهنـد وهـي تمـر أمامـي.

- أنا ما باستخدمش عربيتي، بيتي فوق الجاليري!

في سـيارتي كان هـواء التكييـف يزيـح الفسـتان مـن عـلى فخذيهـا فـلا تهتـم بإعادتـه، مسـتمتعة بتوتـري بـين القيـادة واختـلاس النظـر إليـه، وعنـد خروجنـا من المنطقـة الصناعيـة لم يعد الأمـر يحتمـل التأويـل ولا الانتظـار. بـادرت هـي، وجدتهـا تمسـك بشـعري مـن خلـف رأسي، ورغـم قـصره كانـت تنجـح في وضـع بعـض الشـعرات في قبضـة يدهـا، فامتلكتنـي رجفـة كأن التكييـف بـدأ يعمـل الآن فقـط، رجفـة وصلـت أقصاهـا وهـي ترفـع مـن فسـتانها مـا لم ينجـح الهـواء في إزاحتـه، تمسـك بيـدي وتدسـها بـين سـاقيها وتضغطهـا بعضـلات حوضهـا. صوتهـا عـالٍ، نشـوة أم بـكاء، لم أحـدد، فتجاهلـت أمـر صوتهـا كلـه مؤجـلاً إحسـاسي بالذنـب حـين أنتهـي مـن هـذا. قـد لا يـأتي، في آخـر مـرة لم أشـعر بـأي ذنـب بعدهـا، لأننـي دفعـت المقابـل باليـورو.

طـردت الأفـكار المعطلـة سريعًـا، وحـين عـاد تركيـزي لهـا تذكـرت أنهـا كانـت تدلنـي عـلى الطريـق، فقـط حـين قالـت إننـا وصلنـا إلى نهايتـه. منطقـة غـير مأهولـة بالسـكان، مـدق مـن الزلـط ينتهـي بسـيارة مرسـيدس إنتـاج التسـعينات، يقـف بجوارهـا رجـل ضخـم يحمـل مطـواة في يـده. أنـزل مـن سـيارتي في صمـت، يأخـذ أيضًـا محفظتـي وتليفـوني، يقـود هـو سـيارتي، وتقـود هـي سـيارته بعـد أن ترمينـي بقبلـة في الهـواء. أعيـد أزرار قميـصي إلى مكانهـا وحزامـي إلى البنطلـون وأبـدأ السـير ناظـرًا إلى المبـاني البعيـدة، ممتنًـا لفـرح التـي تركـت لي زجاجـة ميـاه تسـعفني في هـذا الجـو الحـار.

t.me/qurssan

بعـد دقائـق أتوقـف، مندهشًـا مـن عـدم تأثـري بمـا حـدث. حتـى إذا فشـلت في تقمـص الـدور المطلـوب في المكتـب، يجـب الآن أن أبـكي أو أخـاف أو حتـى أفكـر في قصـة تـبرر السرقـة، ولكنـي وجـدت نفـسي مثـل الـتراب الـذي أمـشي عليـه، خاليًـا مـن أي شيء. كأن مـا حـدث أمـر عـادي يومـي، أو كأني ذهبـت بالفعـل إلى جاليري واخـترت تصميـمات أعجبتنـي، أو أني لم أقابـل فـرح بـل خرجـت مـن المصنـع في نيتـي التنـزه قليـلاً في الصحـراء. لا مبـالاة أفزعتنـي، هـل أقتـل أحـدًا في يـوم ثـم أنـسى؟ لم يكـن أمامـي لطـرد الأفـكار سـوى الإسراع في مشـيتي. قبـل العـمارات، مسـاحة هائلـة مـن الزلـط، كانـت قدمـاي تُحدثـان ضجيجًـا مبالغًـا فيـه لشـخص في وزني، ضجيجًـا لم يمنعنـي مـن سـماع صوتهـا كأنـه يخـرج الآن مـن تحـت الأرض.

- إيه ده؟ مش انت رامي؟

انحبسـت أنفـاسي للحظـة. نظـرت فوجـدت وجههـا مألوفًـا، لـولا الـتراب الـذي يغطيـه لعرفتـه.

- أنا فريدة، فريدة وحيد. كنا مع بعض في الجامعة.

سلمت عليها بيدي فتأكدت أنها من لحم ودم.

- إنـت كـمان ولاد الكلـب رمـوك هنـا؟ مـش فاهمـة إيـه لازمـة المشـوَرة دي بـس؟

دسـت يدهـا في حذائهـا الريـاضي لتخـرج منـه ورقـة مـن فئـة المئـة جنيـه. كيـف أغـوى الرجـل صاحـب المطـواة فريـدة؟ تبعتهـا

دون سـؤال، إلى الشـارع ثـم إلى التاكـسي. قالـت لـه أن يصـل بنـا إلى حـي الزمالـك، ثـم نظـرت إليَّ بسـعادة:

- كنــت متأكـدة ان مـوت خالـد سـعيد هيضـم علينـا نـاس كتـير زيـك. بـس المظاهـرة كانـت فشـيخة. صـح؟

t.me/qurssan

13

عـادةً في أي رحلـة طـيران عـدت بهـا للقاهـرة، كنـت أسـعى للجلـوس بجـوار الشـباك. أسرح في سـجادة السـحاب الأبيـض التـي تفصلنـا تمامًـا عـن رؤيـة الأرض، وتدهشـني اللحظـة التـي نخترقهـا فيهـا بسلاسـة كأني أنـسى في كل مـرة أنهـا سـجادة مـن ميـاه. مـا كنـت أحبـه فعـلاً هـو اللحظـة التـي نكـون فيهـا فـوق القاهـرة، تحديـدًا حـين نعـبر الزحـام، ونطـوّق القاهـرة مـن أطرافهـا. كانـت تعجبنـي مشـاهدة مـكان بيتـي. هنـاك الجامعـة وهنـاك بيـت فـلان، وفي هـذا الشـارع أجـري بالسـيارة إلى أقـصى مـا يصـل إليـه الموتـور. والغريـب أني لم أشـعر أبـدًا بضآلـة الحيـز الـذي أشـغله ويشـغلني في السـماء، بـل عـلى الأرض، تحديـدًا عندمـا ركبـت التاكـسي مـع فريـدة، فبـدأ كل شيء.

وقتها لم أفهم لماذا تراجعت عن تصحيح المعلومة لها، ولم أعترف بأني لا أعرف عن خالد سعيد سوى قتله بشكل ما منذ أيام، وبالتالي لا أفهم شيئًا مما تعنيه وهي تقول إن صيف 2010 لن يُنسى. شيء ما كان يحثني على سماعها تقفز من فكرة إلى أخرى، وبي رغبة في ألا أجرح حماسها، ربما لأني لم أكن أعرف بعد إمكانية أن يتحمس أحد لأي شيء بهذا الشكل، أو لأن تخيلها عني أعجبني. كانت تبدأ كل شيء بـ"إنت أكيد عارف"، تفاؤلها بنجاح المظاهرة في الصمود ساعة كاملة على بُعد أمتار من وزارة الداخلية، والتنظيم الجيد، وتوقعها أن تكبر المظاهرات ككرة ثلج لن يتمكن أحد من إيقافها، ودور الناس "اللي زيّنا" في ملء الدنيا ضجيجًا حتى تحين هذه اللحظة الحتمية. قلت إنها ليست ساذجة، لعلّني فقط أشبه شخصًا آخر تعرفه كان يدرس معنا في الجامعة، لأنها كانت متأكدة من رؤيتي وأنا أداري دموعي حين عرض علينا اتحاد الطلاب فيلمًا عن اجتياح غزة، رغم استبعادي بأي شكل أني بكيت من قبل.

أوقفت فريدة التاكسي عند كورنيش أبو الفدا بالزمالك. كانت نيتي أن أسلم عليها باليد وأنصرف إلى حالي كي أفكر كيف سأقطع القاهرة كلها حتى أصل إلى بيتي دون نقود، ولكنها لم تسلم عليّ وتقدمت أمامي إلى العمارة بتلقائية وهي تكمل كلامها عن المظاهرة فتبعتها. فتح لنا باب الشقة رجل تفوح رائحة الصابون من بيجامته القطنية الأنيقة، أشقر له عينان زرقاوان لمعتا حين رأتا فريدة. تكلم فعرفت أنه مصري.

- عملوها الوحوش!

t.me/qurssan

عرّفته بأنه زوجها، الدكتور جاسر، وقدمتني بأني صديق. انتظرت على عتبة الباب ناظرًا إلى الأحذية التي تراصت أمامه حتى انتهيا من حضن طويل. نسيت فريدة أن معها ضيفًا فسبقتني إلى الداخل. خلعت حذائي وفكرت قليلاً ألا أمد يدي المتسخة بتراب جوربي لأسلم عليه، إلا أنه كان قد مد يده وأدخلني البيت بابتسامة ثم تركني ودخل إلى ما بان من بابه المنزلق أنه مطبخ. في الصالة، كان أمامي كرسي صغير من الأرابيسك مصنوع بعناية، خشيت أن أجلس عليه فيكون واحدًا من التحف التي تملأ الصالة، أقصد المتحف الصغير، لوحات فنية قديمة تكسو كل حائط، ومساحات ضيقة بين تماثيل، بدا لي أيضًا أن هذه ليست مجرد ساعة عادية، بل ذهبية. إضاءة خافتة مُسلطة على صندوق خشبي قديم رأيته في فيلم ما يباع في مزاد. حين عاد الدكتور جاسر، كذبت عليه:

- بيتكم جميل!

- يا نصاب!

ثم ناولني واحدًا من الساندويتشات التي رصّها بإتقان فوق صينية يحملها بيديه الاثنتين، وطلب مني أن أفتح له بابًا في طرف من الصالة. بمجرد دخوله، خطفت الصينية أيدي الجوعى. أغلق الدكتور جاسر الباب من ورائي فاضطررت إلى الجلوس على الوسادة الوحيدة المتبقية على الأرض. هذا حزب سياسي، لولا بيجامة الدكتور جاسر، فهذا يُبلغ عن مفقودي المظاهرة في التليفون، وهؤلاء يتابعون التليفزيون ساخرين من عدم وجود أي خبر عن الأمر، وهذه جالسة بجوارهم تدون

أسـماء ثلاثيـة لمـن اعتُقلـوا، وهـذه تجـري حـوارًا مـع وكالـة أجنبية، وهــذا مصــاب في جبهتــه، وهــذه تداويــه، واثنــان عاكفــان أمــام كاميراتهــما يراجعــان مــا صــوراه، وثلاثــة يكتبــون شــهاداتهم عــلى الفيــس بــوك.

لم أكــن أفعــل شــيئًا، ولم ينتبــه أحــد إلى وجــودي حتــى فُتــح البــاب وناولنــي منــه الدكتــور جــاسر صينيــة ساندويتشــات جديــدة، فقمــت ألــف بهــا عــلى الضيــوف يختطفــون منهــا مــا يريــدون حتــى أتى الــدور عــلى هديــر، ولأني لم أكــن أعــرف اســمها كي أناديهــا، وقفــت أمامهــا بالصينيــة حتــى تنتهــي مــما ظننــت أنهــا مكالمــة ســكايب، كانــت تــشرح فيهــا باســتفاضة كل مــا دار في اليــوم، ويبــدو أننــي في لحظــة اقتربــت بالصينيــة أكــثر مــن الــلازم، فأغلقــت هديــر الــلاب تــوب وهــي غاضبــة:

- إنت بتعمل ايه؟ مش شايفني باسجّل؟

اعتــذرت، ولكنهــا لم تقبــل اعتــذاري أو تجاهلتــه كي تُكمــل الفيديــو. المهــم أني بعدهــا وقفــت بالصينيــة في يــدي خاشــيًا مــن أي حركــة، حتــى دخلــت فريــدة فاخترقــت رائحــة الشــامبو الغرفــة، ثــم ســمعنا صــوت جــرس البــاب وأتى الدكتــور جــاسر بضيــف جديــد، هلــل النــاس لاســتقباله. انتهــزت اللحظــة وأخــبرت فريــدة أن عــليّ الرحيــل الآن، ولم تلــح هــي لبقــائي، ولكــن حــين انتهيــت مــن ارتــداء حــذائي لم تغلــق البــاب إلا بعــد أن أعطتنــي مئــة جنيــه.

- دول سلف، لازم نشوفك تاني عشان ترجعهم!

t.me/qurssan

في بيتـي لم تبدُ عـلى مصطفـى أي مظاهـر للقلـق مـن انتظـاري، بـل لـوم عـلى نسـياني اتفاقنـا عـلى ميعـاد الليلـة لمبـاراة البليـاردو. لمحتـه متعاطفًـا بعدهـا، في قسـم الشرطـة. كان الضابـط ينصـت إليَّ باهتـمام وهـو يسـجل أقـوالي في المحـضر: "أنـني خرجـت مـن المصنع متجهًـا إلى بيتـي عـصر اليـوم، وعنـد مـروري بأحد الشـوارع المتفرعـة مـن شـارع التسـعين، أوقفتنـي سـيدة مسـنة ادعـت أن بطاريـة سـيارتها ماركـة فيـات 27 خـضراء قـد نفـدت، وأنـه عنـد ترجـلي مـن السـيارة لمسـاعدتها فوجئـت بسـيارة دفـع رباعـي سـوداء لم أتبـين أرقـام لوحاتهـا، وقـد توقفـت بجـوار السـيارتين ثـم نـزل منهـا أربعـة رجـال، أحدهـم يحمـل مسدسًـا، ثـم قامـوا بسرقـة سـيارتي وهاتفـي ومحفظتـي تحـت تهديـد السـلاح، قبـل أن يفـروا ومعهـم السـيدة هاربـين".

ربمـا شـعر مصطفـى أني عـلى وشـك مفاجأتـه بالدخـول في حضنـه بعـد انتهـاء نجـار الكمبونـد مـن تغيـير كالـون البيـت، إلا أنـه نجـح في العبـور بنـا مـن اللحظـة وأعـادني إلى رشـدي بخبطـة عـلى كتفـي، وعرفـت كـم أبـدو حزينًـا مـن عـدم إحراجـه لي رغـم يقينـي أنـه كالعـادة كشـفني.

- مـا يقـع إلا الشـاطر يـا واد. بعديـن بتقـف ليـه لسـت قـد أمـك؟ مزاجـك غريـب.

في هـذه الليلـة باغتتنـي للمـرة الأولى تلـك الأسـئلة السـخيفة عـما يجـب فعلـه بالسـنوات التـي نقضيهـا أحيـاء. خرجـت الأسـئلة مندفعـة مـع الميـاه السـاخنة مـن حنفيـة الـدش. كيـف لم أفكـر في السـفر مثـل كريـم؟ ولِمَ لسـت مشـغولاً الآن بـشيء مهـم مثـل

فريـدة وأصحابهـا؟ مـاذا أريـد لمسـتقبلي؟ ولِمَ لا يعجبنـي شيء ولا يضايقنـي شيء؟ لمـاذا يشـاركني مصطفـى في هـذه الكذبـة؟ كلانـا يعـرف أنني أحصـل عـلى مـصروف شـهري، حتـى لـو نجحنـا في إتقـان دور أني أعمـل أمـام الغربـاء؟ هـذه ليسـت حيـاة ابـن ثمـانٍ وعشريـن سـنة، هـذه أفـكار الثمانيـة عـشرة أتـت متأخرة لانشـغالي بألعـاب مـا بعـد السـتين.

وجدتنـي ألـوم مصطفـى عـلى كل شيء، هـذا الكائـن الجميـل الشريـر، الـذي لم يـترك لي فرصـة واحـدة لأتمـرد عليـه، أن أغضـب منـه كـما رأيـت أصدقـاء فريـدة غاضبـين اليـوم. هـل تُحـل كل مشـكلاتي إن خرجـت لـه الآن غاضبًـا، أصيـح في وجهـه قائـلاً أي شيء؟ خرجـت بهـذه النيـة فوجدتـه جالسًـا يشـاهد التليفزيـون، وأمامـه جـردل كنتـاكي ضخـم، وعـلى وجهـه ابتسـامة لا تُقـاوم، أكلنـا ثـم غلبنـي النـوم في مـكاني.

لم أنـم كثـيرًا بعدهـا. لشـهر كامـل، حاولـت أن أقـاوم أسـئلتي الخبيثـة بـإرادة شـيخ سـلفي أوقعتـه الظـروف فجـأة في شـاطئ للعـراة. دون جـدوى، أحـاول إبقـائي ثابتًـا، ألـح عـلى مصطفـى لمزيـد مـن اللعـب، وأقـرأ بعنايـة أخيرًا مـا يُـترك عـلى مكتبـي مـن جـداول، وتعرفـت للمـرة الأولى إلى ثقـب فيَّ لم أحـدد مكانـه، ثقـب بـدا أن مـن المسـتحيل لحمـه بـأي شيء، حتـى بسـفرية قصـيرة إلى لبنـان، وصيـد ثمـين في الجونـة، ومشـاهدة مبـاراة برشـلونة وريـال مدريـد في الإسـتاد. ثـم رفعـت لثقبـي الرايـة البيضـاء وأنـا أُعيـد نشـاط حسـابي عـلى الفيـس بـوك. بعـد يـوم، تقبـل فريـدة طلـب صداقتـي، وبعدهـا بدقائـق تدعـوني إلى عـرض للأفـلام التسـجيلية

t.me/qurssan

بمعهـد جوتـه بالدقـي. أذهـب ولا أعـود، كل يـوم في شيء جديـد؛ نـدوة شـعر، حفـل توقيـع كتـاب، معـرض للفـن التشـكيلي، عـرض مسرحـي، مهرجـان موسـيقي. أنبـش بالنهـار عـلى الفيـس بـوك عـن أي فعاليـة تحمسـت لهـا فريـدة وأصدقاؤهـا، وإذا كان هـذا اليـوم بـلا أحـداث، أنـزل إلى وسـط البلـد بـلا خطـة سـوى التجـول، وفي معظـم الأيـام كنـت أقابـل أحدهـم صدفـة فيقـودني إلى مـكان سـهرة الليلـة، ظنًّـا منـه أني بالتأكيـد معـزوم، أتعـرف بـارات أسـطح الفنـادق، وأتخـلى أخـيراً معهـم عـن رهبتـي في العـودة لبـار سـتيلا. للمـرة الأولى، صـارت هنـاك شـلة أتطلـع إليهـا، وكنـت لا أمَـلّ أبـدًا مـن تكرارهـم الخناقـات نفسـها كل ليلـة، عـن مـا أهـم مشـكلة تواجـه العـالم الآن، وعـن النـزاع الدائـم بـين محبـي السـينما الإيطاليـة ومحبـي السـينما الفرنسـية، وعـن أشـياء ما كانـت تحدث في روسـيا في بدايـة القـرن التاسـع عـشر، وعـن الشـعراء الميديوكـر الذيـن مـلأوا البلـد، وعـن زهـق الرجـال مـن الـكلام في القضايـا النسـوية، وزهـق بنـات الشـلة مـن ادعـاء الرجـال احترامهـم مثـل هـذه القضايـا. في كل الأحـوال لم يكـن أحـد يسـألني عـن شيء، وكان معـي جوجـل ينقـذني إذا رغـب أحدهـم في السـؤال.

هديـر أيضًـا كانـت تسـتخدم جوجـل، في مـرة كان الأصدقـاء في خناقـة عـن كاتـب قديـم اسـمه وجيـه غـالي، لـه روايـة اسـمها "بـيرة في نـادي البليـاردو"، بعضهـم كان ضـد الاحتفـاء بروايتـه لأنـه سـافر بعـد كتابتهـا إلى إسرائيـل، وآخـرون كانـوا يحكـون عـن ضرورة فصـل المنتـج الفنـي عـن كاتبـه، وكنـت أبحـث عـن اسـم الرجـل تحسـبًا لجرّي إلى النقـاش، ولمحتهـا تنظـر في هاتفهـا وتبحـث أيضًـا

عـن اسـمه. تلاقـت أعيننـا فابتسـمت لهـا، ولكـن كان عـلى وجههـا غضـب منـي جعلنـي أصرف اللحظـة سريعًـا.

كنـت أتكلـم في أضيـق الحـدود، لأن الـكلام معهـم كان خطـرًا. يقـول أحدهـم إن غـزو أمريـكا للعـراق دمـره بالكامـل، فأكـون عـلى وشـك قـول إن حيـاة العراقيـين بالتأكيـد كانـت أفضـل قبـل الغـزو، فأتراجـع مـع تراجعـه وهـو يقـول إن صَـدّام سـفاح لا يتعاطـف معـه أي إنسـان. وهـذه المـرة التـي كنـت قـد قضيـت فيهـا اليـوم كلـه أذاكـر صفحـة "كلنـا خالـد سـعيد"، ودعواتهـا إلى الوقفـات الصامتـة وتحديدهـا ميعـادًا لاحتجـاج كبـير في ينايـر المقبـل، وفوجئـت بالليلـة كلهـا سـخرية مـن الصفحـة، ومـن عبثيـة تحديـد ميعـاد سـابق لأي حـدث يمكـن أن يُحـدث أي تغيـير في هـذا البلـد.

في كل الأحـوال، كنـت أشـعر بفعـلي لـشيء هـام بمجـرد الجلـوس معهـم، إلا أن هـذا لم يكـن يكفينـي، فعـلى الرغـم مـن ترحابهـم الدائـم، كنـت أرى بعينـي تصنيـف القعـدة إلى مجموعـة أساسـية، ثـم عابـري الصدفـة، ولم أعـرف كيـف ترتقـي مكانتـي إلى أن يخـبرني أحدهـم مـكان السـهرة بالتليفـون، وأحيانًـا كنـت أنـزل وسـط البلـد لأجدهـا صحـراء جـرداء فأعـرف أن حفـلاً مـا يُقـام في بيـت أحدهـم. في مثـل هـذه الليـالي كان يصيبنـي إحبـاط لا يقـضي عليـه سـوى أن أكلـم مصطفـى وأجـده متاحًـا لفعـل أي شيء.

هـذا حـين كانـوا بالنسـبة إليَّ شـلة فريـدة، قبـل أن يصـيروا شـلة هديـر. لم أكـن أحـب هديـر ولا أعتقـد أنهـا كانـت تحبنـي، أو كان يقلقنـي أنهـا تبـدو الوحيـدة التـي تلاحـظ وجـودي. في مـرة

t.me/qurssan

انفعلـت عـليَّ دون داعٍ. كنـا مجموعـة كبـيرة في بـار سـتلا، ظلـت تقـل حتـى تبقـى منـا خمسـة. أصر الرجـل أن هديـر شربـت سـبع زجاجـات سـتلا بينـما أصرت هـي أنهـا خمـس. عندمـا وجـدت حـدة الخـلاف تتصاعـد، قـررت أن أنهيـه وأخرجـت مـن جيبـي مئـة جنيـه لتحـل المسـألة، ولكـن قبـل أن أعطيهـا للرجـل كانـت تسـحبها منـي بعنـف.

- مالكش دعوة. إنت هتبقشش عليّا؟

أعدتهـا لجيبـي محرجًـا، بـدا لي أن فريـدة لم تُعجـب بمـا فعلتـه هديـر رغـم أنهـا لم تعلـق. كنـت أحـب فريـدة لأنهـا تخصنـي بالاهتـمام، وأحـب الدكتـور جـاسر لهدوئـه المريـح؛ لذلـك آلمنـي بشـدة أن يتجنبنـي الدكتـور جـاسر حتـى لـو لم يخـلُ الأمـر مـن لطافتـه المعتـادة. قابلتـه يومهـا بالصدفـة في ميـدان طلعـت حـرب. وقفنـا نتكلـم لدقائـق ثـم قـال إنـه ذاهـب إلى البيـت، وبعـد قليـل مـن المـشي رأيتـه مـن جديـد، هـذه المـرة مـع بعـض الأصدقـاء وهـم يدخلـون عـمارة، وبيـده كيـس أسـود يُسـمع منـه عـن بُعـد ارتطـام زجاجـات البـيرة ببعضهـا، تظاهـر كل منـا بأنـه لم يـرَ الآخـر. يومهـا مشـيت أوبـخ نفـسي عـلى مـا وصلـت إليـه، وتمنيـت لـو أجـد مصطفـى في البيـت فيعـود كل شيء إلى مكانـه. إذا كان لا يـزال مسـتعدًّا للعـب، فلـن يمنعنـي شيء، أيًّـا كانـت أهميتـه، مـن اللعـب.

وجدتـه جالسًـا في غرفـة مكتبـه كأنـه ينتظـرني، وكانـت عـلى وجهـه حـدة لم أعهدهـا منـذ سـنوات، وخشـيت أننـي أمـام ليلـة طويلـة مـن العتـاب. كنـت فقـط نسـيت قدرتـه عـلى الاختصـار.

كلمني وهو يعبث في ورقة أمامه راسمًا خطوطًا عشوائية، قال إنه استبدلَ بي موظفًا جديدًا سيتسلم عمله من الغد، وإنها لم تكن فكرة جيدة أن أعمل معه، وحين لاحظ عليَّ القلق أخرج من الدرج شيكًا بمليون جنيه قرأت عليه اسمي.

- ابتدي بيه أي حاجة انت تحبها!

أخذت منه الشيك بيد، وبالأخرى أغلقت باب غرفتي عليَّ، متيقنًا أنني سأحلم بأسوأ كوابيسي إن رحت في النوم. خرجت من البيت قبل أن يصحو مصطفى من نومه، أمرت بفصل الموظف الجديد، وتركت شيك مصطفى على مكتبه، وفي الليل لقنته درسًا قاسيًا في البلياردو، وأعدت حساب الفيس بوك إلى مرقده، متمنيًا ألا يعبر إليَّ أحد من أي ثقب جديد.

t.me/qurssan

14

- تــشرّق راح تغــرّب، تبعــد راح تقــرب، تقعــد ولــلا تقــوم، ح تولــع صدقنــي!

كان يغنــي، وكنــا شريكــين في الكلابــش، وفي الهــواء القليــل الــذي كان يضــل طريقــه إلى داخــل البوكــس، وكان واضحًــا منــذ البدايــة أن هــذه الشراكــة لا تروقــه. أغلقــوا علينــا البــاب، ففــرد ظهــره عــلى الدكــة الخشــبية الوحيــدة تــاركًا لي الأرض، ثــم سرعــان مــا لوثهــا ببصقاتــه المتتاليــة في نظــام، ثــلاث كل دقيقــة، واحــدة منهــا تســتقر عــلى حــذائي دون اعــتراض منــي. لم أرد أن أعكــر مزاجــه أكــثر، عينــه دائمًــا خــارج البوكــس، وكذلــك فمــه، مــرة يســب بــه الزحــام ومــرة البلــد بأكملــه، ومــرة يغنــي بصوتــه الغليــظ. في مــرة منهــا، عــاد بوجهــه مــن الشــباك إليَّ، وكنــت فاشــلاً في إخفــاء قلقــي منــه، فــأراد أن يطمئننــي عــلى طريقتــه:

- وانت عملت إيه يا بني عشان يحدفوك ورا الشمس كده؟

وأنا أحكي له كيف شرحت للضابط وجود مريض قلب معنا في الزنزانة، كان يضحك وبالتالي يبصق أسرع. وجدت الموقف أيضًا مضحكًا فضحكت معه، وأخرجت علبة السجائر أخيرًا من جيبي وأعطيته منها سيجارة، فقبلها. وقلت حين أخرج من هذا الكابوس سأحكي لفريدة هذا الموقف دون أن أحكي لها قلقي من الرجل في البداية. تقول فريدة إننا نحن نحب الفقراء، ناضلوا معنا. لن أقول لها: ولكن من نحن؟ ولماذا نرتضي ألا يحبنا أحد؟ هذه الأسئلة لا تتسرب إلى داخل البوكس. سأجره إلى الكلام:

- وانت إيه اللي حدفك بقى يا أصلي؟

- إنت عبيط يلا؟

سألني وهو يُخرج مفتاحًا من جيبه، يفك يده من الكلابش ثم يربط يدي برجل الكنبة. يسحب سيجارتي من فمي ويفرد ظهره من جديد، يعقد يديه خلف رأسه صانعًا منهما وسادة وهو يحذرني:

- لو صحتني قبل ما نوصل، عليَّ الطلاق همشيك على بزازك!

لم أسمع له بعدها نفسًا ولم أرَ له حركة. هذا الرجل وطريقة خطفي من الزنزانة بددا آمالي في أن يتدخل الزوز في لحظة مناسبة، وكنت أعرف أن طنط دعاء لم تكن ترعى

t.me/qurssan

احتياجات المساجين إن كانت تستطيع تحريرهم. تخيلت مصيري وقلت: تيجي زي ما تيجي، ولكن أريدها أن تأتي بالسرعة التي سمعت بها حواديت الأبطال المعتقلين ممن جُردوا من ملابسهم وقالوا "أنا مَرَة"، أو من صُعقوا بالكهرباء وأُطفئت فيهم السجائر وعُلقت أيديهم وأرجلهم على كراسي التحقيقات، أو من شربوا المياه الصفراء وتقاسموا أكلهم القليل مع الحشرات. تأتي فيستحق أصحابها أن يبتسموا ناجين من قبضة الذئاب فيخففون علينا آلام سماعها، ويدعوننا لمواصلة الهتاف ويلقون منا الاحتفاء لأيام، بل حتى لأسابيع في بعض الحالات. صحيح أن المطالب ليست بالتمني، ولكن في هذا الفراغ بين الرغبة والقدرة تقبع الأحلام والكوابيس، بكل قسوتها وجمالها. لِمَ لا يتكثف كل شيء في لحظة واحدة أقبض فيها على الجمر، وأناضل وأتشجع وأعاني وأواجه وأتذوق الخطر وأموت من الرعب وأنجو بالقفز بين الرصاص، وأصاب وأتعافى وأضرب عن الطعام وأختار الصح وأدفع ثمنه؟ ثم تلهث الأيام من الجري، وتسير بمهل على زمن من حرير، أجني فيه الثمار وأذكر الماضي بسكينة المُعتزل. لا تهمني النتائج، انتصرنا أم فشلنا، المهم أن أنتهي، ألا يبقى فيَّ شيء ليُطلب، ستكون هذه أسعد الأيام، سواء بحصيلة المنتصر أو بذلك الاكتئاب الرقيق بعد اليقين من الفشل، لا يهم كم يؤلمني ظهري الآن، إن كنت أعرف أنه حين ينتهي الوجع، سيصبح جديرًا بالاحتفاء.

"ورا الشمس". ظلت أصداء الجملة تضرب في أذني مع خفوت الضوء الداخل إلينا، في كل مرة أعلى مما قبلها، وفي

كل مـرة يـزداد صوتـه غلظـة. أنظـر إليـه، إلى فمـه المفتـوح عـلى مصراعيـه، فيضربنـي صـدى مـن جديـد ويبسـط معـه الرعـب جناحيـه الأسـودين عـليّ. لا أملـك إلا أن أنتظـر، وأفكـر كيـف سـأنتهي اليـوم. في الأغلـب بدفعـة كهربـاء زائـدة مـن محقـق حتـمًا سـييأس مـن فشـلي في الإجابـة عـن سـؤاله الأسـاسي، لمـاذا ألقيـت بنفـسي في سـيارة الترحيـلات؟ بالتأكيـد لـن يصدقنـي حـين أقـول لـه إن في لحظتهـا بـدا بـاب المدرعـة كأنـه أوسـع مـن الشـارع. ويُتوقـع فيـما وراء الشـمس لا يحتاجـون إلى إجهـاد التحقيقـات، تكفـي طلقـة واحـدة في الصحـراء ثـم تُغطـى بكومـة مـن الرمـال. لا، هـذا مرعـب، أن أبقـى هنـاك مـع هـؤلاء الذيـن كانـت تظهـر أجسـادهم المنتهيـة بـين الحـين والآخـر بعـد شـهور مـن الاختفـاء، تلـك الأجسـاد التـي كنـا نؤجـل الاحتفـال بموتهـا، وعندمـا كانـت تظهـر لنـا نكـون قـد تألمنـا لهـا بمـا يكفـي، كي نعيدهـا إلى الـتراب مـن جديـد في صمـت.

هـل أتـرك هـذا مـن أجـل جنـازة مهيبـة لـن أحضرهـا؟ سـألت نفـسي نادمًـا وأنـا أشـم دخـان شَيّ دجاجـة كأنهـا تُطهـى عـلى سـياج الشـباك، هـذا مطعـم، وهـذه محمصـة والآن نمـر أمـام محطـة بنزيـن، صـار أنفـي يرسـم لي الطريـق. تسـاعده أذني التـي تُركـت حـرة للشـارع، للمـرة الأولى، دون أن أحبسـها خلـف سـماعات. في الزحـام وجـدت ألفـة ارتجلـت منهـا موسـيقاها، مـن صـوت الكلاكسـات وشـتائم سـائقي السـيارات لبعضهـم، والأقـدام التـي تعـبر بـين السـيارات في ذعـر. كل هـذا صـار فجـأة جميـلاً، حتـى ملمـس حديـد البوكـس، كل شيء جميـل في الحيـاة، حتـى

t.me/qurssan

النفس العادي. لو فقط يصحو الآن المخبر المخيف حتى لتنفيذ تهديده، أو أعود ليوم واحد أتعرف فيه كل من سيحضرون جنازتي. لمَ تمنيت أن تجري الأيام؟ ولمَ أخذ القدر أمنياتي على محمل الجد؟ سألت نفسي وأنا أعرف من رائحة حرق النفايات أننا على الطريق الدائري بأقصى ما يمكن أن يسرع به بوكس متهالك. لا أقدر أن أبقى وحدي. أتحرك بالكلابش كي أوقظه، يصحو مذعورًا وقبل أن يقع من على الدكة أصفعه بيدي الحرة على وجهه متصالحًا مع ما سيأتي.

t.me/qurssan

15

حتى من قبل البوكس المخيف، أحيانًا كنت أجدني نادمًا أني لم أتمسك بحياتي كما ينبغي بعد خروجي من نزوة شلة فريدة السريعة، وأحيانًا أقول إنه لم يكن هناك من مفر، لأن بعض الثقوب حين تُفتح، تضيق وتتسع، ولكن لا تنغلق أبدًا.

دون مبرر أعرفه، في الوقت الذي كان ثقب وسط البلد يضيق تدريجيًا، وحياتي تعود إلى جمال إيقاعها البطيء، كان ثقب آخر يتسع أيضًا ببطء دون أن أدري مصدره. ثقب هدير، كأن كل هذه الشلة كانت مجرد ديكور لها في الخلفية. بالتأكيد لم يصل إلى قلبي وقتها، وكانت عندي هذه القناعة الراسخة، أنني لا أحب هدير، هذه الجميلة الشريرة التي كنت متأكدًا من أنها تتعمد إهانتي. لا أحب فيها شيئًا، ضحكتها الزاعقة وقعدتها بقدميها مفتوحتين وكلماتها العنيفة التي تقولها دائمًا

وعيناها على هاتفها، ولا حتى عينيها السوداوين نفسهما، ولا اللحم الخفيف الذي يمنعنا أن نقول إنها نحيلة، ولا سمانتها التي تشي بتاريخ طويل لها مع الرياضة، ولا حتى الندبة أعلى حواجبها التي يمكن أن نقول إنها جميلة. لا أعرف، لا أعرف من الجميل ولا أفهم في هذه الأشياء. ولكن، ما كنت أدركه أن هذا الثقب قد وصل إلى عيني، فلم أعد أعرف كيف يكون العيش في وجود هذا الشباك المطل عليها، التي كانت لهفة النظر منه تسحب روحي، لا أعرف كيف أغلقه كي أعود مع مصطفى لألعابنا القديمة، ولا أعرف كيف أقفز منه. كل ما كنت متأكدًا منه أني واقف أشاهده دون إرادة، وربما لهذا لم أَلُم نفسي وأنا أرى ثقبي يتسع كل يوم ليجرف الأرض بيني وبين مصطفى، حتى صارت فكرة أن يقفز أحدنا إلى الآخر مستحيلة.

مصطفى لم ينتظرني. قال في رسالته:

- كل سنة وانت طيب، أنا في الجونة مع ناس صحابي. اتبسط بيومك!

وقالت أنجيلا على سكايب:

- فاضل لك سنة على التلاتين. أكيد فيه حاجات كتير تلحق تعملها.

وكنت جالسًا أمام شباك هدير على الفيس بوك. أقفز منه فأدخل بقدمي إلى المتاهة التي سأتقدم فيها وأفشل ثم أعاود المحاولة من جديد. صرت أنبش في قديمها بحثًا عن سياق بدلاً من هذا الذي ينعقد فيه لساني أمامها.

t.me/qurssan

بـدا أن السـياق الأقـرب كان في عـام 2007، تحديـدًا صيـف هـذه السـنة حـين أنشـأت هديـر صفحتهـا عـلى الفيـس بـوك. صحيـح أننـي كنـت وقتهـا نائـب رئيـس مجلـس إدارة المصنـع، وهـي كانـت في سـنتها الثالثـة بحقـوق القاهـرة، لكـن عـلى الأقـل كنـا نشـترك في شيء، حُبنـا مثـل سـائر الخلـق لعمـرو ديـاب. كان يمكـن أن تتـاح لنـا فرصـة تبـادل الإعجـاب ونحـن نختـصر الأمـور مثلـه:

- نقول ايه خلاص انا وانت حبيبي مافيش حاجة نقولها.

كنـا أصغـر في كل الأحـوال مـن أن يتطـور الأمـر إلى التقـاء الأهـل، وبالتـالي لم تكـن سـتعنيني صورتهـا العائليـة مـع أبيهـا الملتحـي، وأمهـا التـي لا نـرى منهـا سـوى عينيهـا، وهـي بالتأكيـد لم يكـن سـيعنيها أن مصطفـى يرتـدي الشـورت في الصـورة التـي التقطناهـا في رحلـة السـفاري. المشـكلة الكـبرى في اعتقـادي كانـت في الأصدقـاء، لم نكـن لنفلـح في خلـق شـلة بـأي شـكل، ففـي الوقـت الـذي كنـت أصـادق فيـه الـزوز وشـلته، كانـت صديقاتهـا البنـات يعلقـن عـلى صورهـا بـ"قمرايـة وكيـوت"، ربمـا كان ردهـا الدائـم بـ"شـكرًا يـا عسـولة"، مقلقًـا بعـض الـشيء، ولكـن هذه كانـت اللغة الدارجـة للبنـات في ذلـك الوقـت، حتـى لـو لم أكـن أسـمعها مـن الطنطـات صديقـاتي. في كل الأحـوال كان مـن السـهل تخيلنـا نجلـس في كافيـه بالمهندسـين بعـد أن تلامسـت أيدينـا وأنـا أناولهـا الفشـار في السـينما. ولكـن، كل ذلـك لـن يـدوم، سـتزداد الأمـور صعوبـة مـع حلـول 2008، سـتخلع هديـر الحجـاب وسـأقفل أنـا حسـابي عـلى الفيـس بـوك متعاليًـا عـلى كل وسـائل التواصـل الإلكـتروني، وسـتفوتني قصـة حبهـا مـع سـلام يـسري، سـتختفي الصـور العائليـة

وتحـل محلهـا صـور رومانسـية معـه في حـرم جامعـة القاهـرة، يعلـق عليهـا الجميـع بـ"ربنـا يخليكـو لبعـض"، ثـم تكتمـل قصتهـما للجماهـير بأغنيـة يؤلفهـا سـلام ويلحنهـا خصوصًـا لهديـر، فتشـتعل التعليقـات "بجـد تحفـة، ربنـا يحميكـو"، وتبـدأ هديـر الاقتصـاد في ردودهـا مـن الحـروف إلى الابتسـامات. أتخيـل أني كنـت سـألتقيها في ذلـك الوقـت عـلى اليوتيـوب، حـين مثّـل سـلام مـصر في مسـابقة لبنانيـة لاكتشـاف المواهـب الغنائيـة، كانـت هديـر أقـرب مـما أتخيـل في ذلـك الوقـت الـذي كنـت فيـه مشـحونًا بمشـاعر وطنيـة في المنافسـة بـين سـلام والمطـرب التونـسي، حتـى إننـي كنـت دائـم الاتصـال برقـم المسـابقة لجعـل حبيـب هديـر، ابـن مـصر، يفـوز. كانـت كـما قالـت نصًّـا: "فخـورة بحبيبـي، ومـش مهـم الجايـزة، المهـم احنـا مـع بعـض"، وبمـا أني لم أكـن أعرفهـا، فلـم أكـن لأربـط هـذا مـع الخـبر الـذي قرأتـه بعدمـا كتبـت بشـهر عـن إعـلان خطوبـة سـلام عـلى زميلتـه المتسـابقة الأردنيـة، ولكننـي الآن أسـتطيع أن أعلـل بهـذا اختفاءهـا لمـدة سـبعة أشـهر كاملـة، لم تكتـب فيهـا أي شيء عـلى الفيـس بـوك.

لعـل أهـم مـا دار في حيـاتي في هـذه الفـترة، هـو هزائمـي الساحقة لمصطفـى في البليـاردو وتخرجـي في الجامعـة، أمـا هديـر فمـن السـهل أن تلاحـظ حـدوث الكثـير معهـا في هـذه الفـترة، عـادت في أوائـل 2009 أنثـى متوهجـة، ظهـرت الفسـاتين القصيرة في صـور متتاليـة، كأن صفحتهـا قـد تحولـت إلى غرفـة قيـاس للملابـس، ثـم دعتنـا إلى عرضهـا الأول في الهناجـر كممثلـة في فرقـة مـسرح، وبـدأ العـرض ولم ينتـهِ. تركـت بيـت أهلهـا بعـد خناقـات كانـت

t.me/qurssan

توثقها يوميًّا، ثم نشرت لنا صورة لبيتها الجديد في وسط البلد. ثم ننطلق من هنا، لهدير التي أعرفها، لعشرات الصور في حفلات، معظمها مع رجال قد أكون رأيتهم في قعدات الشلة، وتطرد أغاني زياد رحباني أغاني عمرو دياب للأبد من صفحتها، وينفك لسانها فنرى كتابات دون سياق عن "أم العيشة على الرجالة"، و"الفن الحقيقي مالوش علاقة بالفلوس"، و"حريتنا تبدأ من حرية أجسادنا"، ثم صور جديدة تجمعها مع رجال جدد تراهم جيدًا وهم ينتقلون من صندوق التعليقات على صفحتها، إلى قسم الصور بعدها بأسبوع على الأكثر. وفي 2010، انتقلت من الصور إلى الفيديوهات. تقريبًا كل أسبوع فيديو، عن مبارك، عن التحرش الجنسي، عن العدالة الاجتماعية، كل ما لم أفهم فيه ويجعل مهمة الوصول إلى هدير مستحيلة. ولكن هل كنت أريد أن أصل؟ لم أكن متأكدًا.

ذلك إلى أن ارتكبت غلطة يوم عيد ميلادي يمكنني أن ألومها على كل شيء. كانت الساعة قرب التاسعة مساءً، وكنت على وشك أن أغلق اللاب توب، منهكًا من جولتي في حياتها، أفكر في الدخول للسرير مبكرًا بعد أن لاحظت تأخر الوقت على أن أتصل بأي صديق قديم وأنضم إلى حفله. وذلك حين ظهر فجأة اسم هدير على الفيس بوك ومعه رسالة:

- مش كبرنا ع الكلام ده وللا إيه يا أستاذ؟

فزعت. للحظة شككت أن لهدير قدرات مصطفى نفسها في قراءة أفكاري. بعد ثوانٍ اكتشفت أني ضغطت بالخطأ زر الإعجاب على صورة قديمة لها. وجدتني أقوم من كرسيِّي،

أمــشي هنــا وهنــاك بحثًــا عــن رد يســتر خجــلي، حتــى أرســلت رســالة أخــرى:

- طب مش هتيجي تشوفني النهارده في حفلة فريدة؟

لا أعرف كيف رددت بهذه السرعة.

- آه أكيد، كل سنة وانتي طيبة!

ولا أعـرف كيـف لم أكـن قـادرًا عـلى الهـروب، ووجدتنـي أكلـم فريــدة متحججًــا بســؤال عــن كيفيــة إعــادة اســتخراج شــهادات الجامعـة، ولا كيــف بلعــت هــذه الحيلــة الرخيصــة ودعتنــي إلى حفلهــا.

المهـم أننــي ذهبــت إلى الحفــل، إلى هديــر، إلى بيــت فريــدة قرابـة السـاعة الثانيـة عـشرة ومعـي زجاجـة ويسـكي أخذهـا منـي الدكتــور جــاسر وأعطــاني زجاجــة بــيرة، مشــيت بهــا أزاحــم النــاس وهــم يرقصــون، وكان هــذا جميــلاً لأني عــبرت دون أن يلمحنــي أحــد ووصلــت إلى البلكونــة في ثــوانٍ. لم أنظــر إلى الشــارع، كانــت البلكونـة واسـعة ويشـاركني فيهـا آخـرون، فهمـت أنـه يجـب عـليّ إعطاؤهــم مــا أحــب قــول إني أعطيــه: بعــض الخصوصيــة. كنــت أنظــر إلى الصالــة، لا شيء جديــدًا فيهــا ســوى موســيقى ورقــص. هديـر كانـت جميلـة، أو لعلـه كان المزيـج بـين الأحمـر النـضر الذي تــسرب إلى وجههــا مــع حــرارة الصالــة والأصفــر في فســتانها، أو رؤيـة كتفيهـا الواسـعتين عاريتـين للمـرة الأولى. لا أعـرف ولـن أعـرف أبـدًا.

المهـم، انطفـأ النـور حـين دقـت السـاعة الثانيـة عـشرة ففتحـت البـيرة وشربـت منهـا، وحـين عـادت الرؤيـة لم أجـد هديـر. ظهـرت

t.me/qurssan

بعـد دقائـق وعلـق معـي السـؤال: أيـن كانـت ومـع مـن؟ كنـت أعـرف الكثـير، كلـما رقصـت مـع أحـد تذكـرت قصتـه. هـذا كتـب قبـل ثلاثـة أيـام: "أنـا اتـوب عـن حبـك أنـا، ده انـا ليـا في بعـدك هنـا؟"، بعـد دقائـق مـن نشرهـا لأغنيـة: "أما تقـرب أنا بتونـس بيك، واما بتبعـد أنـا بتونّـس بيـك"، وهـذا الـذي كتـب: "كل الأحاديـث مـا بتفيـد ما دامـك مـش معـي، والأسـوأ مـش وحيـد"، فـورًا بعـد نشرهـا لصـورة لهـا في حضـن شـخص آخـر وهـما يتنـاولان الغـداء في مطعـم مشـمس بالمعـادي، وهـذا الحزيـن الـذي كان يجلـس أمامــي، تلقــى ردًّا صاعقًــا منهــا بعــد كتابتــه: "اتذكــر تذكــرني"، بكتابتهـا: "تتذكـر مـا تنعـاد ونشـوفك بالأعيـاد"، وكثـير مـن هـذا، بعـض مـا أمسـكته مـن الخيـوط العنكبوتيـة التـي تابعـت كيـف تمدهـا هديـر مـع كل ضغطـة عـلى أزرار الكمبيوتـر، هـذا العقـل النابـه القـاسي القـادر عـلى جمـع كل ضحايـاه في بيـت واحـد، دون أي شـك في أن أحدهـم يريـد التمـرد عـلى دوره المرسـوم لـه بعنايـة. مــاذا كان دوري؟ أن أشــاهد. أتقنتــه شــاعرًا براحــة لم تخــلُ مــن حقـد عـلى مـن طُلبـت منهـم أدوار أكـبر.

ولأني مشـاهد ملـول، تركـت فيلـم هديـر قبـل انتهائـه. قـرب الثالثـة كنـت أقـف في انتظـار الأسانسـير بعـد أن ودّعـت فريـدة. ولكـن الفيلـم لم يتركنـي، بـل فوجئـت بهديـر تخـرج منـه لتسـلّم علـيَّ للمـرة الأولى منـذ بدايـة الحفـل. فِعليًّـا لم نسـلّم عـلى بعضنـا، ربمـا لأن الليلـة كانـت تنتهـي فلـم يكـن هنـاك وقـت للتمهيـد لـدوري، أو لأنهـا كانـت قـد شربـت بما يكفـي كي تخلطني بشـخصية أخـرى. المهـم وجدتنـي أدخـل الفيلـم في مشـاهده الأخـيرة وأنـا

أملح بالطو أسود في يدها وفوقه حقيبة، فصرت أمام تحدٍّ أن أكمل حوارًا لا أعرف بدايته.

ـ طب توصلني وسط البلد في سكتك؟

قالت وهي تحاول التوازن في الأسانسير. وبمجرد أن ركبنا سيارتي، أدركت أن دوري لن يحتاج إلى أي موهبة، سوى القيادة، والإنصات بحرفية سائق تاكسي لمونولوج البطلة وهي تميل برأسها على الكرسي ناظرةً إلى الشارع، ثم تحكي لي ما قالت إن أحدًا في الحفل لا يعرفه، وهو أنها فُصلت من عملها اليوم.

لم أقل شيئًا، متخيلاً أنني يجب ألا أُدخل سوى أذني في المشهد، رغم رغبتي في العودة إلى شخصيتي الأساسية التي يجب أن تفكر في عرض وظيفة عليها. إلا أنني انتبهت لعدم معرفتي، رغم كل جولاتي في التلصص عليها، ما وظيفة هدير، لماذا تستيقظ في الصباح. ومع الكلام فهمت أن هذا أيضًا لم تقله لأحد، أنها مسؤولة التواصل الاجتماعي لشركة مستحضرات تجميل، تقضي يومها في الكتابة باسمهم على فيس بوك وتويتر:

ـ لو بتحبيه، حطي الآي شادو ده! لو بتحبيه، استخدمي الشامبو ده! لو بتحبيه حافظي على رشاقتك واستخدمي ده...

تردد وهي تقلد صوت طفلة وتضحك، حتى قالت لي إنها اليوم كتبت:

ـ لو بتحبها، ما تجيبهمش قبلها!

t.me/qurssan

أربكنـي احتـمال أن تكـون هديـر خلطتنـي بشـخصية أخـرى، بـل أيضًـا نسـيت شـخصيتها الأساسـية، فكنـت واثقًـا مـن متابعتـي الدقيقـة لـكل مـا تكتبـه يوميًـا، حتـى أوضحـت أن هـذا هـو سـبب فصلهـا، أنهـا أخطـأت فكتبـت مـن صفحـة الشركـة بـدلاً مـن صفحتهـا، واكتشـفت بعـد انتشـار الإعـلان عـلى الإنترنـت. تخيلـت نفسـي في الموقـف، مأسـاة. نظـرت إليهـا في نيتـي أن أُدخـل فمـي في الـدور أواسـيها بـه، فـإذا بي أراهـا تضحـك، تضحـك بخفة أدهشـتني حتـى ضحكـت معهـا. في وسـط البلـد، حـل الوجـوم عـلى وجههـا بـدل الضحـك وهـي تطلـب منـي إيقـاف السـيارة. ظللـت قابضًـا بيـدي عـلى المقـود أنتظـر اللحظـة التـي سـتندهش فيهـا مـن أننـي لم أكـن أعـرف مـكان بيتهـا، فتـدرك أنهـا كانـت تحـكي لشـخص غريـب، ولكنهـا لم تـأتِ، لأنهـا لم تنظـر إليّ وأبقـت عينيهـا كـما هـما منـذ بدايـة المشـهد، عـلى الشـارع.

- أنا ما ينفعش اطلع بيتي!

ثـم أشـارت إلى البـواب الجالـس تحـت العـمارة، وقالـت إنهـا توقعـت أن تجـده نائمًـا. يجـب عليهـا دفـع فلـوس الإيجـار اليـوم ولكنهـا لم تحصـل عـلى أي شيء مـن الشركـة. لم أعـرف مـاذا أقـترح، قلـت بالتأكيـد لـن أقـترح أن أدفـع لهـا الإيجـار خاشـيًا مـن غضبهـا الـذي كنـت أعرفـه جيـدًا، فاقترحـت وأنـا أتحـرك بالسـيارة بنـاءً عـلى إشـارة مـن يدهـا:

- تحبي أرجّعك لفريدة؟

لكن عينيها الهجّامتين كانتا قد عادتا إليها ما إن تحركت.

- يعني بدل ما تقول لي اتفضلي في بيتي يعني؟ مافيش أي جدعنة كده؟

- لا، اتفضلي طبعًا.

- وللا ماما وبابا يزعلوا؟ ما تقلقش هابقى مؤدبة!

- أنا عايش لوحدي.

- أحسن برضو.

ثم نامت. هل قصدت أن تصيبني بهذا الرمح، أم أني جريت إليه متمنيًا أن تصيبني؟ لن أعرف أبدًا، ونسيت هذا كله ونحن ندخل إلى البيت مكتشفًا أنها أول سيدة تزوره منذ رحيل أنجيلا، كم من الوقت ضيعته مع مصطفى؟ أوقدت النور فلم تخفِ هدير انبهارها.

- واو! إيه يا عم بيوت الأغنيا دي!

كنت سأقبل أن تقحمني هدير في أي دور تريد، إلا دور ابن الناس. نفيت التهمة عن نفسي وقلت إني ورثته على هذا الشكل من العائلة، قالت إنها ورثت سيارة فولكس من أبيها لا تخرج أبدًا من حي إمبابة. أعجبني أصلها الشعبي، وقبل أن أدعوها كانت قد بدأت التجول في البيت كأنها محقق في مسرح جريمة، تصوّر بعينيها رخام الأرض والسلم الخشبي وتفتح الستارة المُطلة على الجنينة. فكرت أن أدعي نيتي بيع بيتي بعد ادعائي ملكيتي له، ولكنها كانت قد وصلت إلى طاولة البلياردو، فانفتح فمها وقفزت فورًا فوقها في حماس.

t.me/qurssan

ـ ممم.. إيه الصياغة دي؟ ودي بتاعة العيلة برضو؟

حاولت أن أبدو بقدر الصياغة المذكورة، فتظاهرت كأن هذا شيء أفعله كل يوم مع دخولي البيت، أمسكت بالعصا وأنزلت بها كرتين بضربة واحدة، ثم وقفت أمامها وبي ثقة تجعلني أخيراً أواجه عينيها، وأقول لها إن اليوم عيد ميلادي، ولكنني قلت:

ـ دي الحاجة الوحيدة اللي بتاعتي هنا.

من أي فيلم بورن قفزت عليَّ هدير؟ وما الجميل في رش البهارات على قطعة لحم مشوية سوى نسيان أننا نحب مذاق أكل حيوان آخر، فجًّا وصافيًا؟ سألت نفسي وهي تمسك بالعصا وتميل على الطاولة طالبةً مني أن أعلمها كيف يكون اللعب. لا أعرف، يُحتمل لم أكن أتوقع هذه السرعة، وربما لأنها كانت تمسك بالعصا المُفضلة لمصطفى. أعرف أنه لن يمانع، بل قد أمنحها العصا فقط لإرضائه، وإلا لمَ كان هذا الروتين العبثي في أن يتصل قبل الوصول إلى البيت ليسألني إن كنت وحدي؟ ولكنني وجدتني كأنني فقدت حالاً مهارتي في إمساك العِصيّ.

ـ طب تحبي تتفرجي على فيلم؟ شكلك فايقة!

أمام التليفزيون جلسنا. لا أذكر أي شيء شاهدناه ولا أذكر حتى إن كان له صوت. أتوقع أني لهذا كنت أتخيل سماعها لكل حركة مني وأنا أتقلب في قعدتي، أطقطق أصابعي، أقضي وقتًا طويلاً في اكتشاف أزرار الريموت كنترول، بينما ظلت هي ثابتة في وضعها، فاردة كتفيها على الكنبة، وبعد ساعة من

الثبـات أمـام مشـهد لم أكـن أجـرؤ عـلى التصريـح بمليمـتر منـه، قامـت مـن مكانهـا أخـيراً وهـي تشـم إبطهـا. كيـف تجـرؤ عـلى هـذه الأفعـال؟

- أنا محتاجة استحمى. الحمام فين؟

أشرت إلى الطابـق الثـاني، ولم أقـدر عـلى ألا أختلـس نظـرة إلى مؤخرتهـا وهـي تصعـد السـلم، رغـم يقينـي أنهـا سـتنظر إلى الـوراء لتجـد شـيئًا تسـخر منـه. حـين اختفـت لم أعـد قـادرًا عـلى مشـاهدة الفيلـم، ووجـدت خيـالي يتجـرأ كأني أقفـز في فيلـم هديـر. سـتدعوني بعـد قليـل للاسـتحمام معهـا؟ أم سـأصعد للطابـق الثـاني فأجدهـا عاريـة عـلى سريـري؟ أحـاول أن ألقـي بهـا عاريـة مـن ذهنـي وأفشـل، أنظـر إلى بنطلـوني فأجـده ينتفـخ. رامـي، هـل تعـرف ضريبـة أن يكـون كل هـذا الفيلـم سـوء تفاهـم؟ هـل تـدرك رد فعلهـا إن شـعرت باسـتثارتك لمجـرد لجوئهـا إلى بيتـك في ليلـة مثـل هـذه؟ حسـنًا، مـاذا كنـا نفعـل لتفـادي مثـل هـذه اللحظـات؟ وجدتنـي أجـري إلى حـمام الـدور الأرضي، أمسـك خيـالي بصـدر هديـر متوقعًـا أنـه شـهي، أحملهـا فـوق طاولـة البليـاردو وأخلـع عنهـا بنطلونهـا، وقبـل أن أخلـع حذاءهـا أجدهـا ترفـع سـاقيها عـلى كتفـي، تضحـك فأكتـم صوتهـا بيـدي، أدخلهـا وألهـو، تلهـث ثـم أفـرج عـن فمهـا وأنـا أنتهـي، فتبتسـم.

أنظـر إلى مـا قذفـت بنـدم، مـاذا إن خرجـت الآن، ووجدتهـا بالفعـل في انتظـاري عـلى الطاولـة؟ هـل يمكـن أن أفشـل في إيقاظـه مجـددًا مـن أجلهـا؟ لـن تنفعـك خبراتـك التـي اشـتريتها مـع بنـات فنـادق أوروبـا يـا رامـي، هـذه المـرة لـن تسـعد إلا برضـا هديـر،

t.me/qurssan

هـذه المرة، هـي مـن تحكـم، وأنـت تعـرف، هديـر لسـانها بالتأكيد أطـول مـن "بتاعـك". جلسـت أمـام التليفزيـون مـن جديـد، بعـد أن شربـت كأسًـا مـن الويسـكي أمـلاً في بعـض الشـجاعة. بعـد أن انتهيـت منـه، بـدأ تأخرهـا يثـير فيّ الريبـة. صعـدت السـلالم آمـلاً أن تكـون قـد نامـت في مكانهـا، وحـين وقفـت أمـام بـاب الحـمام كانـت تخـرج مـن غرفتـي، مرتديـة قميـصي الأبيـض، كان ينتهـي عنـد ركبتيهـا، وكانـت سـاقاها منحوتتـين كعصـا بيسـبول.

- مـا لقيتـش بنطلونـات عـلى مقـاسي في دولابـك.. بـس قميصك مظبـوط.. صح؟

ضمـت بيدهـا القميـص عليهـا، فـبرزت حلمتاهـا النافرتـان مـن تحتـه وتكثـف المـاء الملتصـق بهـما عليـه، فصنـع دائرتـين كأثـر قبـلات مـن خلـف زجـاج. حـين رفعـت رأسي مـن عليهـما كانـت في انتظـاري عيناهـا الطافحتـان باللعـب.

- شكلك مكسوف تستحمى.. اتفضل البيت بيتك!

راقبتهـا تنـزل عـلى السـلالم ثـم إلى الحـمام مـن جديـد، أغلـق بابـه وأتنفـس بانتظـام، أخلـع هدومـي وقبـل أن أقفـز إلى البانيـو ألمـح حمالـة صدرهـا متروكـة فـوق الغسـالة. حـين أحملهـا وأقربهـا إليَّ تهاجـم أنفـي رائحـة طاغيـة لفـول سـوداني خـارج للتـو مـن المحمصـة، أتركهـا فتنتـشر الرائحـة في كل مـكان، كأني قضمـت قطعة مُملحـة فـوق نهدهـا. ثـم أعيـد هديـر فـوق طاولـة البليـاردو، ألعق الملـح مـن رقبتهـا فيـذوب بـين أسـناني، أخلـع لهـا حذاءهـا وأصعـد معهـا فـوق الطاولـة، تطـير كـرات البليـاردو مـع حركتنـا فتلتقـط

إحداهـا وتكتـم بهـا أصواتهـا الشـبقة، تنهـار بنـا أرجـل الترابيـزة مـع ذروتنـا، تقـع بنـا عـلى الأرض فننتهـي.

أمـرر بعـض الصابـون عـلى جسـدي فيهـزم رائحـة الفـول السـوداني. أخـرج مـن الحـمام. أقـف عـلى السـلالم، بـين الطابقـين، هديـر مسـترخية عـلى الكنبـة أمـام التليفزيـون، وبيدهـا كأس ويسـكي.

- لا، مـا هـو انـت لازم تفهمنـي إيـه كل أنـواع الويسـكي الـلي عندكـو دي يـا رامـي؟

- أنـا حاسـس اني محتـاج أنـام.. خـدي راحتـك ونامـي في الأوضـة الـلي تعجبـك.

صعـدت السـلالم سريعًـا، لم أكـن أريـد أن يعلـق بذاكـرتي أي رد فعـل لوجهها. وأقفلـت بـاب غرفـة مصطفـى عـليَّ بالمفتـاح، في تكتـه الثانيـة شـعرت بأمـان مخـزٍ.

t.me/qurssan

16

صحيح أن الأشياء وهي تحدث للمرة الأولى لها رهبتها، ولكن أحيانًا يزعجني الهوس بأشياء، مثل الحب الأول، والقبلة الأولى، والمرة الأولى التي نزلت فيها ميدان التحرير، والإصرار على أنها وحدها تملك المشاعر الأصلية ولا ينافسها أبدًا في القوة والصفاء ما يأتي بعدها. أنا مثلاً، قلت إني لن أشعر بخزي مثلما مر بي يوم اختبأت من هدير في غرفتي، وقلت بعدها أيضًا إن ما أحسست به في اليوم الذي صفعت فيه المخبر في البوكس، لا يضاهيه شيء، والآن أقول، ربما لأنه لا يصح قول غير ذلك، إن قمة الخزي أن يكون لليومين الأثر نفسه.

بعدما صفعته ضحك، ولم يسعفني الوقت كي أفهم إن كان ضحكًا أم وعيدًا. دقائق وكنا نخرج من البوكس، وفي الدور الثاني لمبنى بلا لافتة، ابتسم لي دون سبب وهو يفك يدي

مـن الكلابـش، ثـم انـصرف وبقيـت وحـدي في المكتـب مـع طاولـة مـن الحديـد وكـرسي، وكنبـة سـوداء يتـدلى مـن بـين جلدهـا حشـو إسـفنجي أصفـر، كانـت مريحـة حـين جلسـت عليهـا. عرفـت أننـي لـن أُقتـل، عـلى العكـس، كان مريبًـا، كيـف لم يكـن أي شيء يدعـو للقلـق في المـكان. كنـت أرى مـن الشـباك أني في مبنـى يطـل مباشرةً عـلى شـارع صـلاح سـالم، قريـب بمـا يكفـي كي أقفـز منـه إن أردت. المبنـى نفسـه، مجمـع حكومـي مزدحـم. ونحـن نصعـد السـلالم لم أرَ أي أبـواب صلبـة مغلقـة ولم أسـمع أصـوات صراخ. مكاتـب عاديـة وعليهـا موظفـون. كيـف لم أفكـر في الهـرب؟ لم أكـن أحتـاج إلا أن أفتـح البـاب وأخـرج إلى الممـر وأختبـئ في الزحـام حتـى أخـرج إلى الشـارع، إلا أننـي انتظـرت ففُتـح لي بـاب آخـر أدخلنـي إلى مكتـب بـه الـزوز وسـيادة اللـواء الـذي اسـتقبلني بالابتسـامة نفسـها قبـل أربـع وعشريـن سـاعة مـع اختـلاف اللقاءيـن، ومـع ذلـك لم أطمـئن.

- إنت بتحب مصر بجد يا رامي؟

سـألني وأنـا أشرب مـن المـاء البـارد الـذي قُـدم لي، ولم أسـتطع أن أرد حتـى أفرغـت الزجاجـة كاملـة في حلقـي، شـاعرًا بـكل قطـرة منهـا كأنهـا تدخـل وحدهـا إلى عروقـي باعثـةً فيَّ الحيـاة مـن جديـد. كـدت أضحـك مـن الجديـة التـي سـأل بهـا، كأنـه سيصدق ردي وكأن لهـذا السـؤال معنـى.

- أكيد يا فندم!

مكتـب سـيادة اللـواء حوائطـه مدهونـة بزخـارف زرقـاء، وإضاءتـه صفـراء خافتـة والجـو فيـه أبـرد مـن الطبيعـي، رعشـة خفيفـة أتتنـي مـن مـرور الهـواء عـلى عـرق رحلـة البوكـس الـذي

t.me/qurssan

لم يكـن قـد جـف بعـد مـن ملابـسي. خشـيت أن أصـاب بنزلـة بـرد، أكـره الـبرد وأكـره المـرض. أحـب أن أمـوت قبـل أن أمـرض، لا، أكـره أن أمـوت في كل الأحـوال. تحـت التكييـف المقابـل عُلقـت رسـمة ضخمـة لحديقـة، ووراء ظهـر سـيادة اللـواء صـورة لـه وهـو يتلقـى تكريمًـا مـا، مـررت عليهـا بعينـي وأنـا أشـاهده ينحنـي عـلى المكتـب متشـبثًا بـه. قصـير هـو بمـا يكفـي حتـى يختفـي عـن النظر إذا فـرد ظهـره عـلى كرسـيه الكبـير. كان هـذا عـلى الأقـل مطمئنًـا، فقلـت لـن يسـتطيع أن يصـل إليَّ بيـده إن انزعـج مـن أي كلمـة سـأقولها، وإن كنـت شـككت في أن أعـرف كيـف أضمـن ألا أزعجـه، حتـى وإن كنـت بالفعـل نادمًـا عـلى كل شيء، مـدركًا أني كنـت جاحـدًا لجـمال الميـاه البـاردة وأنـا أقفـز في المدرعـة، وكيـف يمكـن أن تتـوارى أهميـة أي شيء خلفهـا، حتـى محـاولاتي الفاشـلة لإيقـاع هديـر في حبـي، مـاذا كانـت سـتفعل بحلـق جـاف؟ وكيـف أرفـض الـود الـذي يكلمنـي بـه سـيادة اللـواء:

- ع العمـوم مـصر بتعتـذر لـك، أنـا أول مـا كلمنـي سـيادة الوزيـر اتدخلـت عـلى طـول، مـصر مـا بتعملـش كـده في ولادهـا.

مـاذا يرضيـه؟ فكـرت وأنـا أرى تأهبًـا في عينيـه لـن ينهيـه الـرد بأكيـد يـا فنـدم، هـل أطلـب منـه توصيـل شـكري إلى مـصر؟ أم أطلـب منـه التوسـط كي تقبـل مـصر اعتـذاري؟ وكيـف أقـول هـذا دون أن تخـرج منـي سـاخرة حتـى وإن لم تكـن بالفعـل هـذه نيتـي، نظـرت إلى الـزوز طلبًـا للنجـدة، خشـية أن تمـل مـصر انتظـاري، فأنقـذني قائـلاً:

- ولادهـا بقـى يـا فنـدم ومتحمسـين، فـلازم تسـتحملهم، ده الـلي مخلفـة عيلـين مغلبينهـا، الـلي مخلفـة تسـعين مليـون هتعمـل ايـه؟

في هـذه اللحظـة فهمـت اللغـة المطلوبـة، بـل كنـت أسـتطيع الـرد مـكان سـيادة اللـواء، إلا أننـي تراجعـت وأنـا ألمحـه يتشـبث بالمكتـب بذراعـه كلهـا، متأكـدًا أنـه سـيغضب إن أخـذ أحدنـا دوره.

- ولمـا يشـتموا أبوهـم يـا سـيادة الوزيـر؟ تقعـد تتفـرج عليهـم وهـم بيدمـروا المنشـآت الـلي دافعـة فيهـا دم قلبهـا؟ لا واحنـا رحنـا فـين؟ مـصر خلفـت رجالـة تديهـم بالجزمـة. دول عيـال ولاد وسـخة!

رأيـت القلـق يطفـح عـلى وجـه الـزوز. فكـرت في التصحيـح لسـيادة اللـواء وإخبـاره أنـه سـب حـالاً أمنـا، وبالتـالي أمـه، ولكنـه تصحيـح لم أعتقـد أن أحـدًا قـد أتتـه الجـرأة لمصارحـة سـيادة اللـواء بـه، فتركتـه يتـمادى في أخطائـه اللغويـة وهـو يـشرب ببـطء مـن عصـير البرتقـال، مـرة وهـو يثنـي عـليَّ بصفتـي مـن أبنـاء مـصر الذيـن يشـبهونها عـلى حـق، وأخـرى وهـو يؤكـد أن مـصر هـي مـن علمتـه كل شيء في حياتـه، وحـين انـصرف الـزوز بنـاءً عـلى تلميـح سـيادة اللـواء بـأن مـصر سـتوصلني بسـيارتها إلى بيتـي بعـد إنهـاء الإجـراءات. أراد سـيادة اللـواء إعطـائي نصيحتـه الأخـيرة كأخ كبـير:

- مصر خلفت نسوان كتير حلوة، مش لازم البت دي يعني.

t.me/qurssan

اكتفـى سـيادته بابتسـامتي هـذه المـرة، ولاحـظ وهـو يضغـط زرًا عـلى المكتـب أني ألمـح متعلقـاتي بجـواره، فطمأننـي والعسـكري يقـودني إلى خـارج المكتـب أني سـأعود إليـه قبـل المغـادرة.

اسـتلمني العسـكري، وسـلّمني إلى مكتـب سـيادة العقيـد. كان أدفـأ وأصغـر، إلا أنـه كان مزينًـا برسـمة الحديقـة نفسـها، وكنـت قـد تدربـت بمـا يكفـي في مكتـب اللـواء لأتمكـن مـن اللغـة. مـا إن جلسـت حتـى ناولنـي بعـض الأوراق، ثـم بـدأ الـكلام قبـل أن أقـرأ مـا فيهـا. قـال إن مـصر الآن الحمـد للـه بصـدد إنتـاج زيـوت محـركات السـيارات، بالتعـاون مـع شركـة روسـية. جـزء مـن مـشروع كبـير لتوفـير أرخـص سـلع لمواطنيهـا بجـودة مضمونـة. المشـكلة الأساسـية كانـت في كميـات الإنتـاج المطلوبـة، كي تصـل الزيـوت إلى كل مواطـن، خصوصًـا لتتواكـب مـع الخطـة الوطنيـة لمضاعفـة أعـداد محطـات الوقـود، ولهـذا فهـي بحاجـة إلى مسـاعدة أبنائهـا مـن الشرفـاء، وقـد وقـع الاختيـار عـليَّ، أو عـلى المصنـع الـذي أمتلكـه، كي أكـون شريـكًا لمـدة خمـس سـنوات في تعبئـة هـذه الزيـوت، ثـم قـال إن كل التفاصيـل مكتوبـة في العقـد، فقلـت إنـه لا يصـح أن أتناقـش مـع مـصر في التفاصيـل، اسـتأذنته في قلـم ووقعـت عـلى الأوراق منتظـرًا أن يـدوس زر المكتـب، فـإذا بـه يضـع الأوراق في الـدرج، ويصمـم عـلى مرافقتـي بنفسـه إلى مكتـب سـيادة اللـواء الـذي قـام هـذه المـرة مـن مكانـه، بـل ومـد يـده للسـلام عـليَّ.

- شرفت يا حبيبي. لو احتجت أي حاجة تعالى لي.

- كنـت حابـب استأذن حضرتـك. كان فيـه حـد معايـا مريـض قلـب، اسـم الـدوا كونكـور.

لم يعلـق ولم أحتَـج إلى أن يقـول شـيئًا. فهمـت الإجابـة مـن يـده وهـي تخـرج مـن يـدي، وأقنعـت نفـسي وأنـا أمـشي في صـلاح سـالم أني لم أهـرب خوفًـا، بـل نسـيت تليفـوني في مكتبـه، وأن حلقـي ليـس جافًّـا كـما أشـعر بـه، وعنـد وصـولي إلى البيـت أتتنـي الفكـرة الذكيـة التـي بـدت كأنهـا سـتحل مـا قبلهـا ومـا بعدهـا، فثبـت يـدي وقدمـيّ عـلى السـور لأقفـز، وأخـبرت نفـسي بقـراري مـا إن نزلـت إلى الحديقـة:

- هامشى من القاهرة.. ومش راجع تاني أبدًا!

t.me/qurssan

17

أول مـرة رغبـت في الهـروب مـن بيتـي، كانـت حـين أفقـت عـلى صـوت بـاب البيـت تغلقـه هديـر خلفهـا. رأيـت قميـصي ملقـى عـلى السـفرة، ولم أعـرف كيـف سـأنسى هـذه الليلـة، ولكـن كنـت أعـرف أن عـليَّ الخـروج مـن البيـت بعدمـا شـممت رائحـة الفـول السـوداني وقـد عبأتـه بالكامـل، كأنهـا عاشـت فيـه لسـنين. ظلـت الرائحـة معـي حتـى وصلـت إلى الجونـة، ولم تختفِ إلا خلـف رائحة مصطفـى وأنـا أحضنـه للمـرة الأولى منـذ زمـن. حضنـت الـزوز أيضًا كأني أفتقـده، أو بالفعـل في هـذه اللحظـة كنـت أفتقـده. عـلى الرغم مـن وجودنـا في عـرض البحـر كنـت أشـعر كأني دخلـت بيتًـا دافئًـا في ينايـر، وكنـت أنظـر إلى الشـمس والبحـر والجبـل وأقـول هـذا عالمـي، لـن أفكـر في تركـه.

مصطفى كان نائمًا طوال الرحلة، فكان لي في نكات الزوز المتتالية أنس، كنت أضحك معه من قلبي ونحن أمام سنارتينا، وأنا أصب لنا كأس ويسكي جديدة كل ساعة كأننا صديقان قديمان. هو نفسه نسي في مرة أن عمري تسعة وعشرون عامًا، وبدأ يحكي لي قصة عن اليوم الذي من المفترض أن نكون ذهبنا فيه إلى شادية بأغنية من تأليفي، وقبل أن يحكي عن ردة فعلها لاحظ فجأة أنه يكلمني أنا وليس مصطفى، فارتبك وتوقف عن الكلام. لم يكن هذا جديدًا عليّ، أفرّق بيني وبين مصطفى في الصور فقط من تاريخها، لنا النحافة نفسها والأعين المختبئة خلف الحواجب الثقيلة، والشعر القصير شديد السواد، ولنا النظرة نفسها في كل الصور، شيء بين التجهم والشرود. لم أكن أعرف أني سأسأل الزوز هذا السؤال إلا حين سمعته يخرج مني، وبي خوف أن يوقظ مصطفى صوت الزوز العالي:

- هو انتو رجعتو من كاليفورنيا ليه؟

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها الزوز يهمس بشيء ما، وكانت لرؤية مصطفى نائمًا وأنا أتلصص على ماضيه رهبة لها لذة.

يقول الزوز إن مصطفى اكتشف نفسه، أو وسامته تحديدًا، في كاليفورنيا. كانوا بعثة من أربعة طلاب أرسلتها هندسة القاهرة في أواخر السبعينات، وكانوا في ذلك الوقت ينكرون الأسطورة المتداولة في مصر عن هوس الخواجات بالشاب الفرعوني الأسمر النحيف، مستغربين فكرة أن تمنحهم بشرتهم الطافحة بسوء التغذية أي إعجاب، ولكنهم فوجئوا بعد أسبوع

t.me/qurssan

واحـد أن مصطفـى، شـاعرهم الرومانـسي المحبـط وأصعبهـم حـالاً وأكثرهـم تـرددًا في السـفر وأقلهـم كلامًـا، قـد خـرج مـن شرنقتـه وانطلـق في هـذه البـلاد الواسـعة، وظلـوا يراقبونـه في دهشـة وهـو محـاط بـكل هـؤلاء النسـاء الـلاتي يدخلهـن بسـهولة بعـد ابتسـامة في مدخـل الجامعـة، أو حـوار قصـير بلغتـه الإنجليزيـة الضعيفـة بعـد إحـدى المحـاضرات، أو في بـار قريـب، أو في حفـل يحـكي لهـم عنـه حـين يعـود لسريـره بينهـم ليلـة كل أسـبوع، ليلـة أطلقـوا عليهـا اسـتراحة المحـارب. يؤكـد الـزوز أن في هـذه الأيـام تغـير مظهـره، لم يكـن معـه مـا يكفـي ليشـتري ملابـس جديـدة، ولكـن:

- أول مرة نعرف ان السكس بيطلّع عضلات.

يحـكي عـن المـرة التـي عـاد فيهـا مصطفـى إليهـم وقـد بـدا عليـه الإنهـاك، فأدركـوا أنهـم حسـدوه أكـثر مـما ينبغـي، واسـتجابوا لرغبتـه الحازمـة في أن يخلـد فـورًا إلى النـوم. كان الـزوز يعـاني مـن أرق ورغبـة في العـودة مـن السـفر، فصحـا في وسـط الليلـة ليجـد نـور الغرفـة مضـاءً ومصطفـى يجلـس عـلى السريـر بـين كومـة مـن الأوراق، منهمـكًا في الكتابـة، وهنـا عـرف أنـه سـيبقى ضيفهـم لأيـام مقبلـة.

- طلعت بشرتنا دي مش سوء تغذية، طلعت محن.

يصـف الـزوز وجـه مصطفـى في هـذه الليلـة بأنـه انطفـأ، ولم تعـد لديـه حكايـات للتسـلية. هـي حكايـة واحـدة، حكايـة أنجيـلا، التـي يقـول الـزوز عنهـا:

- أمك، نزّلته خمسة كيلو في أسبوع.

أكد الزوز أنه أول من نبهه إليها، بعد رؤيته لها سارحة في صديقه في أثناء المحاضرة، وربما لم يلتفت إليها مصطفى إلا بعد شهر أو أكثر منشغلاً بما كان في يده، حتى أتت في يوم إليه غير عابئة بأصدقائه من حوله ودعته أمامهم إلى العشاء، وفي الليلة نفسها كان قد طلب يدها للزواج بعد أن وجد نفسه أمام فتاة كاثوليكية جميلة ومتفوقة، اكتشف صلاحيتها لأن يدعوها إلى بيت أمه في كفر الزيات، لا تشرب الخمر ولا تسلم إلا باليد، فرضت عليها المعيشة مع أهلها أن ترفض إكمال السهرة بالذهاب إلى السينما، تُعجب بقلقه عليها وتتحاشى السلام على رجال آخرين في وجوده، حتى إنها حين أعدت له العشاء في بيت العائلة اكتشف أنهم كلهم يحبون البط. بعد تمام سنة، كانت البعثة تعود إلى القاهرة ومصطفى يتزوج مقررًا البقاء في أمريكا، والعمل في ورشة للسيارات انتظارًا للحصول على الجنسية. خطة دامت ستة أشهر وانتهت بعد استقبالهما لنبأ حمل أنجيلا وترجيح الدكاترة أن المولودة أنثى.

- أبوك كان بيقول لي هو انا هاستنى لما افتح الباب لعيل بشخة داخل للبت؟ ولو نطقت تجيب لي البوليس؟

وافقت أنجيلا على طلبه أن تعيش في مصر.

- بس طلعت حامل فيك انت يا بيه. روح بقى اضربه، كان زمانك خاربها هناك بدل ما انت قاعد كده وسطنا.

فهمت أن ولادتي لم تجلب الحظ السعيد. ففي الوقت الذي فشل فيه مصطفى في العودة إلى السلك الأكاديمي بهندسة القاهرة، ورفض محاولات أصدقائه في إدماجه في أي مهنة في

t.me/qurssan

التجارة كما كان متاحًا في ذلك الوقت، كانت أنجيلا تتعلم العربية وتضرب صحوبية مع أمه التي كانت تتباهى بها أمام كل فرد في كفر الزيات، "الخواجاية أم شعر أصفر"، التي جلبها مصطفى من بلاد الغرب كي تربيني. ومع إصراره الشديد على عدم استخدام دولار واحد من الأموال التي منحتها عائلة أنجيلا لبداية حياتها في مصر، لجأت أنجيلا إلى الأم فصنعتا له مكيدة محترمة، أخبرته أنجيلا أنها ستستخدم الأموال لمشروع تخطط له، مصنع صغير لإنتاج العبوات، وأخبرته أمه أنها غاضبة جدًّا من هذا القرار، "هو خلاص مافيش دم عندها؟ هتقعد ترضّع انت وللا إيه يعني؟"، فقبل أن يشارك زوجته في إدارة المشروع، وتقاعدت أنجيلا بعدها بشهرين لتتفرغ لمشروع اكتشاف مواهبي، الذي أزعجني التفكير فيه والزوز يختم حكايته عن مصطفى:

- ما شفتش انت ستك؟ الله يرحمها، كانت لو نوت على حاجة، والله لو محمد علي كلاي، هتجيبه بالقاضية.

لم يفق مصطفى والزوز يحكي، وفي عصر اليوم التالي كان الزوز نائمًا حين قرر مصطفى فجأة أن نعود إلى القاهرة. في الطريق قال إنه سعيد بصيدنا الثمين الذي حفظناه مع الثلج في شنطة السيارة، واقترح أن نمر على البيت لنضعه في الفريزر ثم نذهب بعدها إلى مباراة الأهلي وغزل المحلة في الإستاد. كانت لدي أسئلة، ولكني لم أشأ أن أخدش مزاجه الرائق وغناءه المعتاد، فانشغلت بالقيادة وبإخراج بعض الجنيهات المعدنية من جيبي كي أدفعها لكارتة الطريق.

ربما قضيت في هذا ثانيتين أو ثلاثًا، رفعت رأسي بعدها على صوت ارتطام السيارة بشيء حاد لم ألحق أن أراه، قلت لعله طائر أو حجر نُسي بعد إصلاحات الطريق، وأكملت طريقي محتفظًا بالجنيهات المعدنية في يدي، ولكن مصطفى لم يكمل الغناء وظل ينظر إليَّ بعين متفحصة حتى نفد صبره وانفجر فيّ:

- ارجع نتطمن ع الراجل يا عرص!

حين عدنا، كان الرجل العجوز مستسلمًا لنا تمامًا ونحن نحمله إلى داخل السيارة، وكان بالفعل في خفة طائر. وأنا أثبت وضعه على الكنبة كان مصطفى يفصل أكياس الثلج عن صيدنا ليضعها على أماكن كدماته، أتذكره، كان به بعض الكسور أيضًا. طمأنه مصطفى وأمرني أن نذهب إلى أقرب مستشفى، وحين تحركت بالسيارة نطق الرجل أخيرًا:

- ربنا يوقف لكو في كل خطوة ولاد الحلال ويديكو على قد نيتكو. ابن الكلب خبطني وجري. تخيلوا؟!

نظرت إلى مصطفى فوجدته يجاهد لكتم ضحكته، إلا أن عينيه كانتا تبرقان رغم ظلام الطريق، قال للرجل:

- الناس لبعضيها يا حاج.

وطمأنه أكثر بتأكيده ألا يقلق من أمر تكاليف المستشفى، وانتظرني حتى ناولت عامل الكارتة الجنيهات وانخرط في نومه راسمًا على وجهه ابتسامة رائقة، ليتركني أستمع إلى الرجل

t.me/qurssan

الـذي كان كلـما زادت ألفاظـه حنـوًّا في دعائـه لنـا، زادت قسـوته في الدعـاء علينـا.

أمـام المستشـفى كان المُسـعفون يثبتـون الرجـل عـلى النقّالـة بينـما أوقـظ مصطفـى.

ـ اصحى يا مصطفى، وللا عايز نقّالة انت كمان؟

ولكنـه لا يـرد. أفكـر في تركـه لنومـه ثـم أتذكـر أننـي بحاجـة إلى محفظتـه كي ندفـع للمستشـفى، فأهـزه قليـلاً بيـدي، ثـم أهـزه أكـثر، ثـم ينقطـع الصـوت، بـين ملاحظـة المُسـعف وجريهـم إليـه، وفتـح الدكتـور لبـاب السـيارة وحمـل مصطفـى عـلى النقالـة، وانتظـاري أمـام غـرف الطـوارئ، حتـى يعـود مـن جديـد عـلى صـوت الطبيـب، البقـاء للـه!

لم أفهـم ولم أُصـدم، تركـت الدكتـور وصعـدت السـلالم التـي كانـت تقـول اللافتـة إنهـا تصـل بي إلى قسـم العظـام، وهنـاك وجـدت العجـوز وهـم يضعـون قدمـه في الجبـس، وفـور أن لمحنـي عـاد إلى وصلـة الدعـاء، كان وقـع صوتـه عـليَّ منفـرًا، ووجدتنـي راغبًـا لسـبب مـا في أن يمـوت الآن أمـام عينـي، إلا أننـي لم أكـن لأنتظـره، فكنـت قـررت العـودة إلى قسـم الطـوارئ كي أضـع حـدًّا لهـذه المهزلـة، وقلـت لجسـد مصطفـى الممـدد عـلى السريـر، غاضبًا مـن تماديـه في اللعـب، ومـن ابتسـامته المسـتفزة:

ـ فيه إيه يا عم انت؟ ما تبطل الخرا ده؟

لم يكـن أمامـي إلا أن أكلمـه حتـى أثنيـه عـن المواصلـة في هـذه اللعبـة المرعبـة، حتـى تنفـرج ضحكتـه المكتومـة فُتحـرك جسـده رغـمًا عنـه.

- يا مصطفى، أبو تريكة جاب جون فشيخ لازم تشوفه!

- يـا مصطفـى، لـو مـا قمتـش دلوقتـي هـوري العيـال في المصنـع صـورك وانـت بتطرطـر في الصحـرا! طـب لـو مـا قمتـش دلوقتـي واللـه لا اقـوم احضنـك غصـب عنـك!

ولكـن إصراره عـلى تجاهـلي جعلنـي أحضنـه في محاولـة أخـيرة لاسـتفزازه. لم أتـرك فيـه شـبرًا واحـدًا حُـرًّا خـارج كتفـيّ، إلا يـده، وقعـت مـن يـدي، فخـرج منـي صـوتي كأني أسـمعه للمـرة الأولى:

- فيه إيه يا بابا؟ ما كفاية!

ثـم تركتـه ليفكـر مـع نفسـه وبحثـت عـن الحـمام، ذرفـت بعـض الدمـوع فيـه، دمـوع غريبـة كنـت أجهـل مصدرهـا، حتـى إنني ذقتهـا لأتأكـد مـن ملوحتهـا. خـارج الحـمام سـمعت أصواتًـا عاليـة دلتنـي إلى مـكان الاسـتراحة. الأهـلي يُحـرز هدفًـا في غـزل المحلـة، أي لعبـة تسـتحق أن يفوتـك هـدف مثـل هـذا يـا مصطفـى؟ جلسـت لمشـاهدة المبـاراة حتـى آخرهـا، وحـين انتهـت مواعيـد الزيـارات، افـترض أمـن المستشـفى أن العجـوز قريـب لنـا فتركـوه وحـده معـي في الاسـتراحة، فمنحنـي حضنـه عندمـا لاحـظ رجفتـي مـن بـرودة التكييـف، لم أطلـب منـه أن يتوقـف عـن الدعـاء، بعـد قليـل نـام، فأغلقـت عينـي لدقائـق ثـم انفتحـت منـي فجـأة وبي شـك في أن العجـوز هـو الـزوز الـذي تركنـاه وحـده

t.me/qurssan

في الجونـة قبـل سـاعات، ولكـن العجـوز كان أنحـف مـن أن يمتـد الشـك لأكـثر مـن ثـوانٍ، وشـعرت أن مـن المنطقـي الاتصـال بالـزوز وإخبـاره بمـا حـدث، ولكنـي خشـيت أن أكـون بهـذا أؤكـد إشـاعة مـوت مصطفـى بنفـسي، فنمـت.

t.me/qurssan

18

الآن أتذكـر عشرينـاتي باسـتهزاء، وأسـخر مـن كل شيء بـدا فيهـا عظيـمًا، وكل حـدث فيهـا هُيـئ لي أنـه نهايـة الكـون. فلمـدة تقـترب مـن عـام كامـل عـلى تأكـدي مـن إشـاعة مـوت مصطفـى، كنـت أتجنـب السـفر إلى الجونـة، خاشـيًا مـن حفـرة عنـد كارتـة القاهـرة منـذ مـات عندهـا مصطفـى، وأنـا أظـن أنهـا سـتبتلعني إذا حاولـت المـرور فوقهـا، الحفـرة التـي أظـن أننـي اليـوم عـبرت فوقهـا بالميكروبـاص متفاجئًـا بعيـد ميـلادي الثلاثـين، متأكـدًا أننـي أعـرف مـا أريـد، ولم أجـدني خائفًـا منهـا لأني كنـت منشـغلاً بـأن أحلـم بدخـول كنتـاكي مـع هديـر، وقطعـة الدجـاج رقـم ثلاثـين التـي سرقتهـا منـي، ذاكـرتي، التـي لا أفهـم الآن لمـاذا تشـبثت بهـا في الحلـم.

أظن أني الآن أيضًا أعرف لماذا فوجئت بحلول عيد ميلادي، لأني لم أكن أنتظره. أتى كأنه استكمال رسمي لأوراق، حفل زفاف لعروس حامل، لأني كنت قد ودعت عشريناتي بالفعل قبلها بشهر، حين تجاهلت موضوع الحفرة المخيفة هذه، وتجرأت على السفر إلى الجونة، أو تحديدًا قبل سفري بساعة وأنا أقفز من السور إلى حديقة بيتي بعد الإفراج عني، وجدتني أعرف ما أريد، أن أهرب من سيادة اللواء وابتسامته المرعبة وأعيش بسعادة دون الدخول في تفاصيل مؤرقة. دقائق قضيتها في البيت، فتحت اللاب توب فوجدت كل من أعرفهم يستغيثون ببعضهم لإنقاذ زميلنا مريض القلب، ووجدت اسمي الثلاثي مذكورًا ضمن كشوف المعتقلين، ولم أجد شيئًا آخر. أغلقته مقررًا أني لن أصطحبه معي في رحلتي. فتشت البيت، وجدت مفتاح المركب ولم أبحث عن نسخة أخرى من مفتاح بيتي لأني لم أنو العودة قريبًا، وأخذت كل ما كان في البيت من نقود، ومع أقرب أتوبيس كنت في الجونة. لكنني لم أدرك جدية قراري إلا في مرسى المراكب، أن أنام، لسنة كاملة أو أكثر. حتى المشوار إلى السوبر ماركت لم أكن أريده، فاشتريت كل ما فيه من زجاجات مياه وعلب تونة وسجائر، ثم أغلقت عليَّ باب المركب، وتنفست. كنت أظن وقتها أن هذه مشكلتي، أن قدميّ صارتا تسيران بي، بل كأن جسدي كله قد خرج عن السيطرة، حتى إنه قفز بي في سيارة الترحيلات. لم يكن هناك شك أنه بحاجة إلى تقويم، فنمت به، نمت لأيام طويلة لم أحصِها وأطعمته ما يكفيه فقط كي يتقلب في السرير، وأخمدت ثوراته الصغيرة المتناقضة،

t.me/qurssan

مـرة راغبًـا في المـاء ومـرة راغبًـا في التخلـص منـه، وأغرقتـه في سـيول مـن الكوابيـس والأحـلام حتـى صـار لا يفـرق بينهـا.

خضـع لي بعـد أيـام وصرت لا أسـمع منـه طلبًـا. سـيادة كاملـة ظننـت أني فرضتهـا عليـه، ناسـيًا أنـه عـاش معـي بمـا يكفـي كي يشـبهني، فيراوغنـي. باغتنـي فجـأة، بحـرارة عاليـة وآلام شـككت في صدقهـا، يـوم واحـد واستسـلمت لرعشـته. خرجـت مـن المركـب وفي نيتـي البحـث عـن صيدليـة، رأيـت شـمس ديسـمبر فلـم أعـد أقـدر عـلى أن أعـود لعيشـة الخفافيـش.

أصطـاد. أعلـم نفـسي الطبـخ، وأقسـم طبقـي بإحـكام، ثلـث خضـار وثلـث بروتـين وثلـث نشـويات. أتذكـر أنجيـلا فأجـري تعديـلاً عـلى أكلي بإضافـة زجاجـة كـوكا كـولا كاملـة إلى كل وجبـة. أغسـل مركبـي بالمـاء والصابـون. أجـري. أتجاهـل عزومـات جـيراني القليلـين. أتكلـم مـع بائـع السـوبر ماركـت وأنـا أشـتري منـه طُعـم الصيـد، فقـط كي أتأكـد أني لم أفقـد صـوتي. أتأمـل. للمـرة الأولى أعـرف كيـف يكـون التأمـل.

الآن أنزعـج مـن عـدم قـدرتي عـلى الاسـتمرار في هـذه الحيـاة لأكـثر مـن شـهر، وكنـت أحـب أن أقـول عـما حـدث اليـوم إني فجـأة نظـرت إلى البحـر والجبـل والشـمس، بينـما أحمـل طـرف السـنارة بيـد وبالأخـرى أحمـل الجمـبري، عـلى وشـك أن أطعنـه في بطنـه ليكـون طُعـمًا أصطـاد بـه أصدقـاءه، ووجـدت أني أعيـش في لوحـة، لوحـة جميلـة، ولكـن لا يُعـاش فيهـا. جميـل لـو كنـت بالفعـل قلت هـذا الـكلام، عـن الحيـاة فارغـة الطعـم دون الأدرينالـين، وعـن آدم الـذي كان عـلى حـق وهـو يقضـم تفاحتـه، وكل مـا كان سـيعجب

كل مـن أعرفهـم دون أن يعرفـوني. إلا أننـي لم أعـد أمتلـك هـذه القـدرة عـلى المراوغـة، ربمـا فقدتهـا في حبسـتي السريعـة التـي نُـزع مذاقهـا بحقيقـة لا يخدشـها كل الرعـب الـذي أحسسـته، حقيقـة أني أقحمـت نفـسي فيهـا، فلـم أعـد قـادرًا عـلى تجاهـل أننـي كنـت سأسـتمر في حيـاتي هـذه، لـولا أنـه كان صبـاح يـوم عاديًّـا نفـدت فيـه مـن مركبـي زجاجـات الكـوكا كـولا، وكنـت أسـير عـلى الممـشى أمـارس لعبتـي اليوميـة في عـد خطـواتي إلى السـوبر ماركـت، ألفـان وثلاثمئـة وأربعـون خطـوة إن اخـترت البـلاط الأزرق، وأقـل بثلاثـين إن اخـترت الأحمـر. وهنـا وجدتنـي أسـير أكـثر مـن المعتـاد وأحتـاج إلى خطـوات جانبيـة، ورفعـت رأسي عنـد الخطـوة رقـم ألـف، فـإذا بالممـشى مزدحـم بالنـاس. كانـوا في كل مـكان، في المراكـب والمطاعـم المواجهـة لهـا. للمـرة الأولى في السـوبر ماركـت لم أكـن الزبـون الوحيـد ولم أجـد زجاجـة كـوكا كـولا واحـدة.

قال البائع:

- مافيـش غـير بيبـسي.. ماعلـش بقـى ضيوفنـا، كل سـنة وانـت طيـب!

لم أشـترِ البيبـسي، نويـت ولكـن وضعـت يـدي في جيبـي فوجـدت مئـة جنيـه فقـط. عُـدت إلى المركـب، أفتـش كل شيء فيـه بحثًـا عـن أي نقـود، وفي الليـل صرت متأكـدًا وأنـا لا أسـتطيع تجاهـل إزعـاج الألعـاب الناريـة التـي كانـت تمـلأ السـماء، ليـس معـي سـوى مئـة جنيـه، الليلـة أتـم ثلاثـين عامًـا، ولم أفعـل شـيئًا حتـى الآن. فكـرت في كاليفورنيـا، وفي أنجيـلا. قلـت سـأذهب إلى هنـاك ولـن أعـود أبـدًا. سـأبدأ شـيئًا جديـدًا حتـى لـو استسـلمت

t.me/qurssan

لأن تُدخلني في خط إنتاج جديد لاكتشاف المواهب. لن أنتظر حتى أصفّي المصنع، سأجعل عم صدقي يفعل ذلك وسأعطيه مكافأة سخية. لا يهمني أحد هنا ولا أعني أحدًا، حضرت أم غبت، الليلة احتفال.

عشرون جنيهًا أعطيتها لسائق الميكروباص، وبقية النقود كان من المفترض أن أعطيها للتاكسي الذي سينقلني من التحرير إلى بيتي. ولكني ما زلت هنا، في شارع محمد محمود، متجمدًا أمام الحائط وصورتي والسؤال المكتوب تحتها، "رامي فين؟"، وعلبة السجائر التي صمدت معي من الزنزانة إلى الجونة، دخنتها كلها في ساعة. من يبحث عني في ليلة مثل هذه؟ وكم من الوقت مر وأنا هنا على هذا الحائط، أو شبيهي هذا؟ ومن هؤلاء الذين يجاورونه؟ أبطالنا الذين أحببتهم حتى كرهتهم، متى عُلقوا؟ ما من شيء ذاكرته أضعف من جدران محمد محمود، لم أشهد طوال سنة صورة صمدت فيه لأكثر من شهر كامل.

نزعت نفسي من الحائط بعد أقل من ساعة. عبرت الشارع. كيف أخرج من وسط البلد؟ هذه الحيرة أعرفها، وأعرف كيف كنت أحب تخيل نفسي عالقًا هنا، بلا أمل أن أعيش حياة سعيدة، دون أن أجد شيئًا مني لا أعرفه، على الرغم من يقيني بأني نسيته هنا يومًا ما. ولكن الآن؟ بالفعل أريد أن أفهم.

كانت الإجابة في الخطة القديمة. التاكسي. أقفز إلى البيت. هناك اللاب توب. سأعرف منه كل شيء. ولكن كل ذلك تكسر وأنا أرى الشاب اليقظ يعود بشنطته الملطخة ببقع الدهان

الأبيض، يخرج منها علبة دهان وفرشاة ويقف أمام شبيهي. أفزع. أجري إليه. أتراجع وأراقبه وهو مندمج في غرس الفرشاة بالدهان ثم النزول بها على صورتي يمسحها، يبدأ بالكتفين ثم الرقبة وقبل أن يغمس الفرشاة من جديد لينزل على عيني أجدني أود ألا أُمحى. لا يعنيني السبب، ولكن أستسلم لقدمي من جديد وهما تجريان عابرتين الطريق. أصل عنده وهو يمسح فمي، أسأله:

- هو مين ده يا نجم؟

لا ينتبه ويكمل مهمته بقسوة، وحين ينتهي من إزالة أنفي ينتبه أخيراً لي، بنظرة لا تخفي غيظه مني.

- واحد صاحبي.

تمهلت قبل أن أقول أي شيء. عصرت مخي وتأكدت من عدم معرفتي بالشاب، ولكنني تفهمت غضبه لأني أذكر كيف كنت أحس به تجاه دائمي الاندهاش، الذين كانوا يمرون علينا في أي مأساة ويسألوننا بكل براءة عما يجري من باب العلم بالشيء، وبهم عشم أن نترك أي شيء آخر فقط كي نحكي لهم حكايتنا بحرفية مندوبي المبيعات. اعتذرت له عن جهلي، وقلت إني عسكري في الجيش لم أنزل إجازة منذ شهر، ثم أدركت أن ذقني وشعري يفضحانني، ولكنني لم أتراجع حين وجدت فيه استجابة بعد أن مسح كل أثر لي على الحائط.

- واحد صاحبنا، كان مخطوف وماكناش عارفين هو فين!

- ولقيتوه؟

t.me/qurssan

سـألته قبـل أن يعطينـي ورقـة بيضـاء عريضـة ويطلـب منـي تثبيتهـا عـلى الحائـط. بعـد تأكـده أني ثبتهـا كـما يريـد، يبـدأ في رش بخـاخ أسـود عليهـا، وبعـد دقيقـة يأخـذ منـي الورقـة ويتكلـم أخـيرًا.

- آه. على طريق السويس. جثة.

- أحا!

- الجنازة بعد الضهر. هنصلي عليه في التحرير.

وبينـما يلـم هـو شـنطته، سـألت نفـسي وأنـا أشـاهد صـورتي الجديـدة تجـف عـلى الحائـط: متـى كانـت لي هـذه الابتسـامة الواسـعة؟ فـاردًا كتفَـي للهـواء، رائقًـا كـما لم أكـن مـن قبـل، ومـن تحتـي كُتـب "المجـد للشـهيد".

t.me/qurssan

19

حين أفقت في المستشفى كانت الدنيا نهارًا، وكان العجوز المصاب قد انصرف. لم أكن وحدي. فتحت عيني على وجه طنط دعاء الشاحب وثيابها السوداء، كان وجهها مذعورًا وقدماها لا تقدران على الوقوف، فوجدتني أهدئها وأملّس بيدي على كتفها محاولاً إقناعها بشرب بعض الماء، وحين هدأت صار من الممكن أن أسألها:

ـ بابا كلمك؟ قال لك إيه؟

لم ترد، منحتني فقط مسحة خفيفة من يدها على خدي، ثم أجلستني بجوارها وهي تجري بعض المكالمات، كانت تقول أشياء عن ابتياع مدفن، وترسل شخصًا ما لحجز جامع عمر مكرم للعزاء، ثم ترد على مكالمات متتالية تؤكد فيها للمتصل الخبر. لم أشعر أن الأمر يعنيني، حتى إنني في لحظة سألت

نفسي عن سبب جلوسي بجوارها لمواساتها، فلم أكن قد رأيتها منذ سنوات، وقلت لعل السبب هو احتفاظها بجمالها الذي كان يربكني منذ زمن. سألتني إن كنت أود إلقاء نظرة أخيرة على جسده، فرفضت دون أن أعرف السبب.

أصروا أن أركب معه في الميكروباص، صرت أنظر إلى الموكب من خلفنا وبي قلق من رؤية أحد لا أعرفه يقود سيارة مصطفى. ثم أصروا أن أنزل معه إلى تحت الأرض، وحين صعدت فوقها من جديد وجدتهم ينتظرون رد فعلي، فبكيت بحرقة حتى أتخلص منهم، وأخذت من الغريب مفتاح السيارة وانصرفت هربًا من طنط دعاء المُلحّة في البقاء معي. قبل أن أصل إلى البيت، أخذت السيارة للمغسلة بعد امتلائها برائحة السمك العفن، وقبلت عرض البائع أن أشتري معطرًا لها. في البيت بكيت، بعد أن حاولت تركيب لمبة نور جديدة للصالة نسي مصطفى تغييرها قبل سفرنا، وفشلت.

ليومين، أتجول بفم مفتوح في البيت، غير قادر على بلع ريقي، مدعيًا الثبات بين الغرباء الذين احتلوا بيتي ادعاءً للحزن. أحاول جاهدًا أن أتذكر أي وجه منهم دون جدوى. أفترض أنهم أقاربنا من البلد من راحة تعاملهم مع البيت، النسوة في المطبخ يخرجن كل فترة بصواني طعام، والرجال مجتمعون يستمعون إلى القرآن، وأنا أجلس في الحديقة، أحدق إلى هاتفي منتظرًا مكالمته التي سيسمح لي فيها بأن أطردهم، ولكنني أستقبل بدلاً من ذلك مكالمات التعزية، قالت أنجيلا إنها ستشعل له شمعة، وقال كريم البقاء لله، وقالت فريدة

t.me/qurssan

إنهـا لا تعـرف مـاذا تقـول في هـذه المناسـبات، ولم تقـل هديـر أي شيء، وقـال لي أحدهـم: طـب انـا مـين؟ ردًّا عـلى مجاملتـي لـه بـأني بالتأكيـد أعـرف صوتـه.

تأكـدت فقـط أن مصطفـى لـن يكلمنـي وأنـا أقـرأ اسـمه مطبوعًـا عـلى مصاحـف صغـيرة، كانـت طنـط دعـاء تضعهـا فـوق كـراسي العـزاء. جلسـت إلى حافـة الجامـع، أراقبهـا وهـي تنفعـل عـلى عـم صدقـي الـذي اعـترض عـلى نزعهـا للسـتار الفاصـل بـين الذكـور والسـيدات. بعـد انتهـاء صـلاة المغـرب، اسـتجبت لطلـب عـم صدقـي ووقفـت شـامخًا معـبرًا عـن صلابـة سـلالة الفقيـد، في البدايـة مـر عـليٌّ الـزوز والشـلة القديمـة، وبعدهـم كان يمـر فـرد كل دقيقـة فأتجهـم في وجهـه وأنـا أنـزع يـدي مـن يـده، ثـم ركنـت ثلاثـة أتوبيسـات أمامنـا، نـزل منهـا عـمال المصنـع ومـروا أمامـي في طابـور يـرددون كلهـم الجملـة نفسـها:

- البقاء لله.. البركة فيك!

تغـير الوضـع تمامًـا بعـد صـلاة العشـاء وانـصراف القطفـة الأولى مـن الـزوار. ظللـت واقفًـا في مـكاني منتظـرًا أن يطـأ أحـد المـكان دون جـدوى. صحـراء مريبـة، طنـط دعـاء تتنقـل بعينيهـا في إحـراج بـين سـاعة يدهـا وبينـي، وعـم صدقـي يحـاول أن يشـغلني بسـرد أي قصـص غـير مترابطـة عـن مصطفـى، وبالتعليـق عـلى مـذاق القهـوة البشـع. لمَ لم يتوقـف العـالم؟ سـألت نفسـي بعـد أن صـار مـن العبـث الإصرار عـلى الاحتفـاظ بمثانتـي ممتلئـة في انتظـار ضيـوف لـن يأتـوا. في طريقـي إلى الحـمام، كنـت أسـمع خطـوات حـذائي بوضـوح غريـب، وبـدا ميـدان التحريـر كأنـه صـورة سـاكنة

بـلا حركـة، وحـين كنـت أعيـد إغـلاق سوسـتة البنطلـون، وأنـا أعـود إلى الشـارع، رأيـت كريـم ينـزل مـن سـيارته.

- ولا يهمك يا رامي.

لم أعـد بعدهـا للعـزاء. بينـما نسـير في اتجـاه الجامـع، انتبهـت ونحـن نمـشي لحذائـه الريـاضي فتوقفـت. ظـل يلـف ويـدور مُحرجًـا مـن مصارحتـي بأنـه ذاهـب لمبـاراة كـرة بعدهـا، وحـين قـال أخـيرًا أدركـت أني لم ألعـب منـذ سـنوات، وقلـت لـه إن العـالم لـن يتوقف. طـوال الليلـة كان كريـم يراقبنـي، ونحـن نشـتري لي حـذاء وشـورتًا، ونحـن نختـار تقسـيم الفرقتـين. أعتقـد أننـا كنـا ننتظـر الـشيء نفسـه، وأذكـر أن دمعـة أو اثنتـين خرجتـا منـي وأنـا أنهـك نفـسي في اللعـب.

قبـل نـزولي مـن سـيارته قـال إنـه سـيقضي إجـازة الشـتاء في مـصر، وطلـب منـي أن أكلمـه في أي وقـت أريـد، وبمجـرد أن دخلت البيـت هبّـت عـليّ دفعـة مـن الحـزن الصـافي، وددت لـو أحبسـها في صـدري بقـدر مـا أسـتطيع، وجدتنـي مرتاحًـا لهـا وللسـكينة التـي نفختهـا في روحـي، ولكـن لم أكـن مهيـأ بعـد للحـزن في البيـت. صرت كلـما أصعـد إلى غرفتـي للنـوم أتخيـل أني تركـت حنفيـة ميـاه مفتوحـة، فأنـزل للتأكـد مـن إغـلاق الحنفيـات وأدخـن سـيجارة، أحـاول بعدهـا مـن جديـد، فأتخيـل أني لم أطفـئ السـيجارة في الطفايـة، بـل في الكنبـة، فترعبنـي فكـرة أننـي لـن أعـرف كيـف أطفـئ الحريـق، وأني لم أسـأل قـط عـن كيـف أتعامـل مـع مـاس كهربـائي أو تـسرب للغـاز. ثـم كيـف أقـاوم اللصـوص؟ لم أنـم إلا مـع سـماع صـوت أتوبيـس المدرسـة وهـو يتوقـف أمـام بيـت جـاري،

t.me/qurssan

ومـن تحتـي سـكين المطبـخ مسـنون ومتأهـب. عندمـا أفقـت، أخجلنـي أن أهـرب مـن بيتـي، ولكنـي تذكـرت أني تركـت سـيارتي في وسـط البلـد بجـوار الجامـع، فارتحـت أكـثر لهـذه الصيغـة كي تُخرجنـي إلى الشـارع.

بجـوار الجامـع لم أجـد سـيارتي. قـال أمـين الشرطـة إن عـليَّ الذهـاب إلى المـرور كي أسـتلمها، ثـم طلـب منـي أن أنتظـره كي يـأتي لي بهـا وأنـا أمنحـه أكـثر مـما طلـب مـن محفظتـي. أقـرب مـكان لي كان فنـدق سـميراميس. دخلتـه كي أشرب قهـوة ولم أخـرج، منحنـي الحضـن الـذي أردتـه، حضنًـا لا يسـبقه النظـر في عينـي ولا يتبعـه فضـول لا يمكـن تجنبـه مـع الأحضـان البشريـة. رميـت نفـسي في ملاءاتـه البيضـاء، فأدركـت كـم كنـت منهـكًا، ونمـت مطمئنًّـا لأن أحـدًا مـا يحـرس المبنـى، وأني سـأصحو لأجـد إفطـاري جاهـزًا، وأني سـأعود مـن جلسـة المسـاج كل مـرة لأجـد الغرفـة كأنهـا جديـدة، حتـى تـسرب حـزني الصـافي إلى مـا وراء السـتائر المطلـة عـلى النيـل، تـاركًا معـي طقوسـه التـي أصابتنـي بالنعـاس الدائـم، والـشرود الـذي كان يبـدو كأنـه للتفكـير في شيء محـدد، حتـى أتى هـذا الـشيء بالفعـل، إلى متـى يمكننـي البقـاء هنـا؟ سـألت نفـسي ويـد رقيقـة تمـر عـليَّ مـن كتفـي إلى أسـفل ظهـري.

في الغرفـة، قـرأت الفاتـورة التـي طلبتهـا، واحـد وعـشرون ألـف جنيـه في أسـبوع. إذًا، أحتـاج قرابـة المليـون جنيـه سـنويًا، كـم ورثـت مـن المـال؟ لم تكـن عنـدي أدنى فكـرة. هـل سـأكون مضطـرًا إلى العمـل؟ مـاذا لـو اكتشـفت أن عـلى مصطفـى ديونًـا عـليَّ سـدادها؟ تمنيـت أن يكـون موتـه مفاجأتـه الأخـيرة.

t.me/qurssan

20

مـن بعيـد، وقفـت أشـاهد النـاس وهـم يتجمعـون عنـد مشرحة مستشـفى قـصر العينـي انتظـارًا لجنـازتي، وبي سـؤال وحيـد، كيـف أُخـذت أحلامـي بهـذه الجديـة؟ أعـرف هـذه الجنـازات المهيبـة، مشـيت فيهـا أكـثر مـن مـرة، وبكيـت فيهـا كـما كان يُفـترض أن أبـكي، ولم أهتـف فيهـا قـط.

- يا نْجِيب حقهم.. يا نموت زيهم!

كأني كنـت أعـرف كـم كان غبيًـا أن نمنحهـم بأنفسـنا اختياريـن، تمامًـا كـما أعـرف الآن أني لا بـد أن أقـول إن هـذا كابـوس، لأن بعـض الأحـلام لا يصـح أن يُعـترف بـه، ولا بـد أيضًـا أن أقـول إني يجـب أن أبتعـد عـن المشرحـة كي أفكـر، وليـس لأني لا أود أن أُكشـف قبـل أن أرى بنفـسي جنـازتي، كبـيرة ومدويـة. خجلـت مـن أفـكاري ولكننـي لم أبتعـد، لأني رأيـت كتلـة البـشر الواقفـين بعشـوائية تترتـب فجـأة.

اقتربـت فوجدتهـم يتجمعـون أمـام بـاب المشرحـة، ثـم رأيـت هديـر تخـرج منـه، وتقـول لهـم شيئًا مـا جعلهـم يتناوبـون عليهـا بالأحضـان، فرأيتهـا تبـكي. ثـم سريعًـا تفـرق الجمـع إلى مجموعـات صغـيرة تنـصرف، وعـلى وجوههـم رأيـت مـا لم أفهـم إن كان إحباطًـا أم غضبًـا.

بقيـت في مـكاني حتـى تحركـت هديـر. كانـت معهـا طنـط دعـاء، ورجـل آخـر لا أعرفـه. مشـيت وراءهـم، وكانـت مشـيتهم بطيئـة بعـد ابتعادهـم عـن صخـب شـارع قـصر العينـي، ودخولهـم في شـوارع جـاردن سـيتي، التـي سـاعدتني كميـة الأشـجار وأكشـاك أمـن السـفارات بهـا عـلى أن أبقـي نفـسي بعيـدًا عـن أنظارهـم. توقفـوا أمـام عـمارة طنـط دعـاء التـي تركتهـما ودخلـت عمارتهـا، فوجدتهـما يدخـلان سـيارة افترضـت أنهـا ملـك للرجـل، ووجدتـه يحضـن هديـر، حضنًـا طويـلاً تجمـدت أنـا فيـه، ولم أنفـك حتى بعد رحيـل السـيارة، كأني أحافـظ عـلى ثبـاتي وسـط دوامـة. نجحـت بعـد قليـل في رفـع رأسي فرأيـت طنـط دعـاء في البلكونـة، بـين ورودهـا، تدخـن في أسى، ولم أهتـم إن كانـت لمحتنـي، لأني كنـت تلقائيًـا قـد جريـت عـلى سلالم عمارتهـا، وعلّقـت يـدي عـلى الجـرس، ثـم انفـك جسـدي تمامًـا وأنـا في حضنهـا.

في بيتهـا رأيـت أنقـاض احتفـال فاتنـي، كؤوسًـا متناثـرة في كل مـكان وعلـب سـجائر فارغـة وعلـب بيتـزا، وكنبـة وحيـدة في الصالـة أعتقـد أنهـا كانـت اسـتراحة للراقصـين، استسـلمت لطنـط دعـاء وهـي تسـحبني مـن يـدي وتُجلسـني عليهـا. كانـت تتـصرف بغرابـة، لم تكـن تناولنـي كـوب الميـاه في يـدي بـل في فمـي ولا

t.me/qurssan

تنطـق بـشيء. تمسـح عـلى شـعري وتمـر بيدهـا عـلى يـدي كأنهـا تتأكـد مـن وجودهـما. ثـم تضغـط صـدري برفـق كأنهـا تخـشى أن ينكـسر، تجـده مـا زال صلبًـا، فتضـع رأسـها عليـه لينكشـف أخـيراً البيـت مـن ورائهـا، وأرى شـبيهي ذلـك مـن جديـد مُعلقًـا عـلى الحائـط، هـذه المـرة بالألـوان داخـل بـرواز ذهبـي. أرتجـف، فأتأكـد مـن أننـي رغـم كل شيء مـا زلـت حيًـا. تسـحب هـي نفسـها مـن عـليّ فيختفـي شـبيهي وراء وجههـا المذعـور.

- عملوا فيك إيه يا حبيبي ولاد الكلب دول؟

- ماحدش عمل فيا حاجة.

رغـمًا عـن نيتـي أتراجـع. خاطـر يهمـس لي ألا أعـترف لهـا بـأي شيء، عـلى الأقـل قبـل أن أحسـم رأيـي، أهـذا حلـم أم كابـوس مـا أعيشـه اليـوم؟

- مش مهم.. ما تتكلمش دلوقتي!

تقـول وهـي تضـع يدهـا عـلى فمـي. تهاجمنـي رغبـة غريبـة في النـوم، ولكـن طاقـة ابنـة عشريـن عامًـا تـدب فيهـا. أتفـرج. تقفـز مـن الكنبـة وتلهـث في المـكان وراء أفكارهـا. تقـترح حفـلاً في بيتهـا الليلـة:

- نسـتحقها يـا رامـي. إنـت عـارف ان العيـال في المشرحـة فاكرينـك مُـت؟ اتجننـا واللـه!

تشـعل سـيجارة. أتأكـد مـن أنهـا علامـة عـلى حيرتهـا. أفكـر في كيـف بقيـت لشـهر كامـل في الجونـة دون تدخـين، وكيـف أدخـن

عـادةً حـين أود أن أبـدو أمـام نفـسي محتـارًا. أنهـر نفـسي عـلى سـؤال مثـل هـذا وأنتبـه لطنـط دعـاء، والفكـرة تلمـع في عينيهـا.

- مفاجـأة؟ هاقـول لهـم فيـه اجتـماع في بيتـي دلوقتـي عشـان أي هبـل، يخبّطـوا تفتـح لهـم انـت!

تتراجـع. لـن يتسـع البيـت لـكل مـن في انتظـار الجنـازة. ولكـن، خـير الـبر عاجلـه، تقـول وهـي تبحـث عـن هاتفهـا لتأخـذ لنـا صورة تتخيـل أن الـكل سـيراها عـلى الفيـس بـوك بعـد ثـوانٍ ويهرولـون إلى الحفـل. أم أني غـير قـادر عـلى الاحتفـال؟ تسـألني وهـي تخـبرني عـن نيتهـا تنظيـم مؤتمـر صحفـي في الغـد، كي أحـكي فيـه مـا حدث. أسـئلة لم يسـعفها الوقـت لتُجـاب. هاتفهـا يـرن. تجـري بعينيهـا في كل مـكان بحثًـا عـن هاتفهـا، وأجـري وراءهـا.

- هدير مساء الفل.

أنتـزع الهاتـف مـن يدهـا وأغلـق المكالمـة. أنفجـر فيهـا كأن لسـاني يقذفنـي في كل اتجـاه.

- أنا كنت مسافر.. ومش فاهم حاجة!

أعـود إلى نفـسي مـع السـكينة التـي حلـت عليهـا. سـكينة مرعبـة. تشـعل سـيجارة جديـدة بوجـه خـالٍ مـن أي شيء. تملأ لنـا كأسـين مـن الويسـكي. أشرب مُجـبراً مـن كأسي، وقبـل أن تـشرب هـي تنفجـر في الضحـك، وتقـذف بالكلـمات دون اتجـاه محـدد.

- اللي يمشي ورا العيال.. بس هنعمل ايه.. يا بن الكلب!

مع هذيانها، أنسى كلماتي التي أعددتها وأنا أجري على سلالم عمارتها.

t.me/qurssan

- أنا ممكن اعمل أي حاجة عشان اصلح ده.

- لا على إيه؟ دي غلطتنا احنا واحنا نصلحها.

- طب إيه العمل؟

دون مقاومة، يعود هاتفها إلى يدها. ثم لا يصبح ممكنًا سوى أن أتجمد في مكاني. أسمعها وهي تكلم هدير، أفهم من الكلام أن هدير تستأذنها في إجازة، وأفهم من ردها أني في مأزق:

- سافري يا حبيبتي واتبسطي. الدنيا مش هتطير، ولو فيه حاجة هنكلمك.

أراقب طنط دعاء وهي تتحرك في البيت، كأنها علمت بنبأ زلزال آتٍ بعد ثوانٍ، تدخل إلى غرفتها وتخرج بحقيبة، تضع فيها لاب توب، وأسلاك التليفون والتليفزيون، ثم تفتش جيوبي، قبل أن تمسك بي من رأسي فأستسلم لعقابي.

- إنت ميت.. لحد ما انا اقول لك!

تصفق باب الشقة بقوة وهي تخرج، فتهتز لوحة شبيهي. مع صوت تكة إغلاق الكالون يثبت في مكانه.

t.me/qurssan

21

أظـن أني تجمـدت عـلى كنبـة طنـط دعـاء سـاعات في انتظارهـا، بـلا أي فكـرة عـن شيء أفعلـه يغـيّر مصـيري. طبقًـا للمكتـوب عـلى الحائـط، كانـت هـذه المـرة الأولى التـي أمـوت فيهـا، ولم أعتقـد أن الأمـوات يمكنهـم أن يفعلـوا أي شيء، إلا أن يتذكـروا شريـط حياتهـم، ويُقـال إن حياتـك لا تتضـح لـك حقًّـا إلا في لحظـة المـوت، وبمـا أني كنـت أعتـبر نفـسي أمـر بهـذه اللحظـة، وجدتنـي أمسـك أخـيرًا بخيـط مـن أولـه، وأتمسـك بـه، وأعـرف أنـه وصـل بي إلى هـذا البيـت وهـذه الكنبـة. حتـى بعـد احتلالنـا لميـدان التحريـر عـشرات المـرات في السـنة الماضيـة، كنـا حـين نتجمـع فيـه ولا نجـد مـا نقولـه نحـكي عـن أول يـوم. مـن هـم في سـن آبائنـا كانـوا يحكـون عـن أيـام كنـا نشـكك في تهويلهـم لهـا، ومـن جيلنـا كان هنـاك المحاربـون القدامـى الذيـن حـضروا مظاهـرات في الميـدان تخـص

فلسطين والعراق، وكانوا لا يتركون الكلام يمر حين يصلهم. أما الغالبية، فكانت تحكي عن يوم 25 يناير باعتباره يوم ميلادهم، وكنت لا أقول شيئًا؛ لأني كنت في جيل وحدي، وُلد قبلهم بيوم.

في ذلك اليوم، كنت ما زلت مقيمًا في سميراميس حدادًا على مصطفى. صرت أريد أن أشاهد أحدًا غير نفسي، ففتحت أخيرًا هاتفي. وصلتني في غيابي رسالة من عم صدقي يطمئنني فيها بأن المصنع على ما يرام، ويطلب مني أن آخذ ما يكفيني من وقت حتى أعود، وبعض الرسائل التي تعرض عليَّ امتلاك فيلا في دبي، وأن أشترك في خدمة حظك اليوم، ومطعم أبو شقرة أبلغني بأحدث عروضه، ثم ظل هاتفي يرن بسيل من الرسائل التي بعثتها طنط دعاء. في البداية كانت تحاول الاطمئنان عليَّ، "إزيك النهارده؟ أحسن؟" ثم بدأت محاولات إغرائي بالخروج، مرة داعية للذهاب إلى السينما ومرة عزومة على الإفطار، أغربها كانت دعوة إلى حفل في بيت فريدة مبدية فرحتها بأني صديق لها.

اتصلت بطنط دعاء. وقتها كنت لا أزال لا أقدر على تجاهل خيوطها الملقاة دون تنظيم، ظهورها في المستشفى، الزوز وهو يعزيها كما يعزيني. كنت أشك أنها سر مصطفى الذي كان يخجل منه، وكنت محتاجًا إلى أن أفهم كيف تعرفت سيدة في سنها على فريدة، وماذا قالت لها عني، ولكنها بعد كل هذا الإلحاح، حين اتصلت لم ترد عليَّ، فشعرت بغرفة الفندق تضيق عليَّ.

t.me/qurssan

- أنـا آسـفة يـا رامـي مـش عارفـة ارد عليـك.. مشـغولة جـدًا. والنبـي خـلي بالـك مـن نفسـك اليومـين دول واقعـد في البيـت.

قـرأت رسـالتها وأنـا بالفعـل في الشـارع، فتأكـدت أن ثمـة شـيئًا كان مريبًـا في إصرار موظـف الاسـتقبال عـلى خروجـي مـن الفنـدق ببطاقتـي. كانـت نيتـي أن تكـون جولتـي سريعـة، إلا إذا حالفنـي الحـظ وقابلـت فريـدة وأصدقاءهـا في أحـد البـارات، آمـلاً أن يكونـوا قـد بـدأوا أحـد نقاشـاتهم الحـادة، فـلا يلحـظ أحـد انضمامـي إلى القعـدة. ولكـن كأن وسـط البلـد قـد أخفـى عنـي أبنـاءه وأنـا أخـرج مـن الفنـدق. صمـت مطبـق، لا نـاس ولا سيارات. أتنقـل بـين المقاهـي والبـارات لأجدهـا كلهـا مغلقـة. بعض القطـط، وأصـوات قدمـيّ. أسـمع صـوت حـذائي عاليًـا وأخـشى أن يقلـق منـام الحـي فأُبطـئ خطـواتي. أفكـر في الكارثـة الطبيعيـة التـي أودت بسـكان وسـط البلـد فجـأة، ثـم أسـتبعد هـذا الافـتراض حـين أجـد العـمارات مـا زالـت ثابتـة في مكانهـا ومضـاءة. أسـمع نبـاح كلاب مـن شـارع مجـاور، فأغـير طريقـي وينتابنـي خـوف أن أواجـه كل كلاب وسـط البلـد وحـدي، فأبحـث عـن طوبـة عـلى الأسـفلت وأجدهـا بسـهولة، ثـم أسـمع ذلـك الصـوت العجـوز الآتي مـن شـباك في الـدور الثـاني ليفزعنـي.

- جدع!

أتراجـع عـن الفكـرة وأعيـد للأسـفلت طوبتـه مـن جديـد. لا أنظـر إلى الرجـل، أشـعل سـيجارة سريعًـا وأكمـل مشـيي في اتجـاه الفنـدق. أجـد خطـواتي تتسـارع رغـمًا عنـي فتحـدث ضجيجًـا أعلى، وألمـح بطـرف عينـي سـيدة تخـرج مـن البلكونـة لتصـورني بهاتفهـا،

وآخرين يخرجون من عمارات الشارع ليتابعوني كظاهرة غريبة، رجل يمشي مشعلاً سيجارة في وسط البلد، تتقطع أنفاسي دون سبب، أخاف أن أجري فتجري ورائي الكلاب التي بدا أن صوتها يقترب، ثم تبتعد الأنظار عني فجأة، أسمع صوته مدويًا قبل أن أراه، شاب يغني في منتهى الروقان:

- السكة مش بعيدة فاضل على حسني زقة، هنشيله في يوم وليلة لو كلنا قلنا لأ!

كان يرقص في مكانه وهو يغني، وكنت كلما مررت على عمارة وجدت أضواء شققها تنفتح وسكانًا يخرجون إلى البلكونات. ربما تلاقت عيناي معه وأنا أعبر الشارع في فزع، ولكنني كنت مصممًا على عدم النظر ورائي، تاركًا خلفي هذا الجنون الذي أعاد إلى الحي فجأة حياته، وصوته، والتصفيق، وبوكس الشرطة الذي يعبر أمامي مسرعًا في اتجاه الشاب، دون أن يلمحني.

لم تعد لي أنفاسي إلا في غرفتي، لا أذكر أنني طلبت العشاء ولكنه أتاني، فتركته أمامي على السرير متفرغًا لمشاهدة التليفزيون. أقلب بين القنوات شاعرًا أني لم أحضر هذه الخناقة من بدايتها، حتى ولو كنت أتذكر يقين فريدة وهي تكلمني عن كرة الثلج التي لن ينجح أحد في إيقافها. كان الأمر أكبر منها ومن أصدقائها الغاضبين، بل وتعدى حدود وسط البلد كله. في كل القنوات فريقان، أحدهما منفعل يحاول الصراخ بكلمات متناثرة عن التعذيب والفقر والحريات والعدل والانتخابات، والبلد الذي لا نريد له سوى أن يكون قابلاً للحياة، والآخر

t.me/qurssan

ساخر، يضحك باستهزاء ولكن حين يتكلم يحذر المشاهدين من دمار البلد، إذا استجابوا لهذا الشباب المُغيب عن مؤامرة نُسجت له بعناية على الإنترنت. في واحدة منها كان الضيف هو الزوز، كتبوا تحت اسمه "بهاء عز العرب- وزير النقل السابق". كانت المرة الأولى التي أراه يتكلم فيها بهذه الجدية. ألقى بقلمه على الطاولة وأعلنها بلهجة ملحمية:

- أنا بانضم لمطالب الشباب، ولو فيا صحة كنت نزلت معاهم. وبكرة هنغير مصر.

فما كان من الضيف الآخر الذي كتبوا تحت اسمه "محمد شهدي- لواء سابق بوزارة الداخلية"، إلا أن ألقى هو الآخر قلمه ضاحكًا:

- باقول لك إيه يا بهاء بيه. ما تعملش فيها سعد زغلول. دول شوية عيال. افتراضية افتراضية، مصر هتفضل غالية عليا!

أغلق التليفزيون. أتصل بغرفة المساج، فيخبرونني مع الاعتذار أنهم أغلقوا الليلة. أسمع أصواتًا في بطني ولكن حين أقترب من الأكل لا أشعر بجوع. تتسرب يداي رغمًا عني إلى اللاب توب، تحديدًا إلى الفيس بوك في محاولة أخيرة لفهم المطالب التي ينحاز إليها الزوز، ولكن أتأكد أنه قد فات الأوان وأتوه وسط نصائح عملية جدًا عن ارتداء ألوان داكنة لتفادي القنص، وابتياع الخل والبيبسي لتخفيف تأثير الغاز المسيل للدموع، وضرورة المشي في مجموعات من ثلاثة حتى الوصول إلى ميدان التحرير، وضرورة عدم رفع أي شعار حزبي،

وبعـض الهتافـات حتـى أنتهـي أمـام صفحـة فريـدة مصدومًـا، "اللي هيقعـد في بيتـه بكـرة خايـن!" وقبـل أن أغلـق الـلاب تـوب أجـد أمامـي فيديـو ينتـشر عـلى كل الصفحـات، تحـت اسـم "مسـحراتي الثـورة"، فيـه الشـاب يغنـي وحـده.

- السكة مش بعيدة، فاضل على حسني زقة.

أشـاهد الفيديـو أكـثر مـن مـرة لأتأكـد مـن عـدم وجـودي فيـه. أطمـئن وأحـزن، أبتلـع حبتـين مـن المنـوم وأمنـح رأسي للوسـادة، وبي أمـل أن يتأخـر الغـد بقـدر مـا يسـتطيع.

t.me/qurssan

22

أما الغد الذي وُلد فيه الجميع، فلم ينتظرني، لأني صحوت فيه قرابة العصر. لم يكن نومًا ولا صحيان، صراع انتهى بانتصار جفني عليّ وأنا أرفع رأسي عن الوسادة بعينين جاحظتين. بعد الهبّة الأولى من السرير هدأت، سعيدًا بالمفاجأة التي كان يخبئها لي جسدي، دور برد عظيم. نوبات متتالية من الرشح والسعال أخرجت معها كل الحمول التي نمت بها، وكل القرارات التي كنت أعرف أن عليّ أخذها فور أن أفتح عيني. نظرت من شباك الغرفة غير عابئ بإحماءات الأعداد المهولة من عساكر الأمن المركزي الموجودة تحت الفندق، ثم عدت إلى سريري مرتاحًا لمقعد البدلاء الإجباري، مستمتعًا بطعم العشاء البارد الذي تركته من الأمس. ثم فتحت هذه المرة الفيس بوك على مصراعيه لأكتب أخيراً شيئًا عليه، "يسقط حسني

مبـارك". ظللـت هكـذا حتـى الليـل، أتابـع التطـورات باهتـمام، لحظـة بلحظـة بـين التليفزيـون والـلاب تـوب حتـى سـمعت صـوت الهتـاف آتيًـا مـن الميـدان، فخرجـت إلى الشـباك مصابًـا برعشـة لم أسـتطع تحديـد إن كانـت مـن الـبرد أم مـن الفـرح، وحـين عـدت إلى الـلاب تـوب كان كريـم قـد كتـب عـلى صفحتـه:

- أنا اتقبض عليا ومترحلين على طرة!

"خليـك في البيـت!" رنت رسـالة طنط دعـاء في أذني كأني لم أقرأها بـل سـمعتها، وشـعرت فيهـا بإهانـة تهـزني وتُخـرج المتظاهريـن مـن كل مـكان في التليفزيـون إلى الغرفـة دون إنـذار. كأني كنـت أرى فريـدة أمامـي تجـري ولا أعـرف لمـاذا تتحمـل كل هـذه الأخطـار، وطنـط دعـاء تُـضرب بعصـا عسـكري ولا أعـرف كيـف لا تُكـسر عظامهـا العجـوز. لمـاذا لم يخَـف مثـلي كريـم؟ تخـرج خيالاتهـم مـن غرفتـي ولا أقـدر عـلى اللحـاق بهـم إلى الشـارع، ولا أجـرؤ عـلى إغـلاق التليفزيـون. هـذا اليـوم لـن ينتهـي قريبًـا، فلـن تتحقق أمنيتـي بـأن يفشـلوا ويعـودوا إلى بيوتهـم، ولـن تتحقـق أمنيتـي بأن يسـتجيب أحـد لمـا يطلبـون. لا أحـد يهتـم برغبتـي الوحيـدة، أن ينتهـي هـذا الآن، قلـت لنفـسي وأنا أشـاهد وجهًـا جميلاً مسـتفزًا في الميـدان يعلـن لشاشـة التليفزيـون بـدء الاعتصـام. كريـم مسـجون، وأنـا لا أنجـح في إرغـام جسـدي عـلى المـرض أكـثر مـن هـذا.

كل شيء تـم بسرعـة، نشـوة قذفـت بي إلى السـماء وأنـا أدخـل الميـدان، وقنبلـة غـاز أسـقطتني. تلتهـا نوبـات متتاليـة، فهـرب الـكل مـن الميـدان إلى الشـوارع المجـاورة، صرت أجـري بأقـصى مـا

t.me/qurssan

فيّ، حتـى كادت أنفـاسي تنقطـع فوقفـت، ووجدتنـي وحـدي مـع رجـل غريـب، أقـرب إلى عابديـن، لم يتـمادَ أحـد في الجـري مثلنـا.

ـ ده انا قلت هتسابقني لحد بيتي يا عم!

ثم همس لي قبل أن ينصرف إلى داخل عمارة:

ـ الجمعة الجاية.. ثورة!

كان صوتـه مـن الحكمـة حتـى يبـدو كل مـا يقولـه حقيقيًّـا. قلـت أعـود مـرة أخـرى بالقـرب مـن الميـدان، وبعـد خطـوات أوقفتنـي سـيارة تنضـح مـن ركابهـا رائحـة الخـل.

ـ هو خلاص كده يعني؟ خلصت؟

أرد عليه بكل ثقة:

ـ الجمعة الجاية.. ثورة!

أكمـل سـيري حتـى تلتقطنـي فريـدة مـن بـين الزحـام وتقفـز في حضنـي عـلى الفـور.

ـ ما خلاص يا عم سيبهولهم، كلها يومين ونرجع له.

أجـدني أسـير مـع مجموعتهـا لنبتعـد عـن الميـدان، فأشـم أنفاسي مـن جديـد، كلهـم يرقصـون في الشـارع في نشـوة غريبـة. أسـلم على هديـر باليـد، فتحضننـي. فريـدة والدكتـور جـاسر يتبـادلان قبلـة طويلـة، أنتظرهـا حتـى أصعـد معهـما إلى شـقة في جـاردن سـيتي. نفتـح بـاب الشـقة لأجـدني أمـام مهرجـان مـن البـشر، احتفـالات ورقـص وأحضـان وأنهـار مـن البـيرة في كل مـكان، يصمتـون جميعًـا حـين ينجحـون في مكالمـة أحـد ممـن قُبـض عليهـم، فيغنـي لهـم من

عربيـة الترحيـلات "إنـت فـين يـا بـن عـلي، حسـني بيـدور عليـك؟"، فيبـدأ الغنـاء مـن جديـد وتسـتقبل الشـقة زوارًا أكـثر فتزيـد فيهـا رائحـة الغـاز العالـق بملابسـهم، أخـرج إلى البلكونـة فأجـد الشـارع مـن تحتنـا وقـد صمـت تمامًـا وأُطفئـت أنـواره، أشـعر بيـد عـلى كتفـي فأسـتدير لأجـدني أمـام طنـط دعـاء.

- طـب مـش تقـول ان مصطفـى عـرف يـربي؟ ده انـا فاكـراك مـن النـاس التانيـين.

تسـحبني عـلى الفـور إلى الشـقة مـن جديـد وترقـص معـي، يسـتمر الرقـص حتـى الفجـر. في غرفـة الفنـدق أكمـل غنـائي وأشـعر بطاقـة حـماس تـدب في جسـدي لأرقـص وحـدي لأيـام، تضربنـي الجملـة "الجمعـة الجايـة.. ثـورة!" فأستسـلم لسريـر سـميراميس، وأفشـل في أن أُخضـع عينَـيّ للنـوم، أتخيـل طنـط دعـاء وهـي تقولهـا لي: "والنبـي يـا رامـي تخليـك في البيـت". سـاعة وأكـون قـد أنهيـت إقامتـي في الفنـدق، بعـد الانتظـار في طابـور مـن أجانـب رائحتهـم غـاز ويحملـون كامـيرات. في الطريـق إلى البيـت أفكـر في اسـتحالة أن أجـد بـه الخـوف في انتظـاري، بعـد كل مـا تـسرب منـه إلى الشـوارع الخاليـة مـن أي شيء.

t.me/qurssan

23

مـع تأخـر طنـط دعـاء بـدأت أنظـر حـولي إلى آثـار الحفـل الـذي أعتقـد أن شـبيهي المُعلـق داخـل الـبرواز حـضره بـدلًا منـي. بالتأكيـد أغوتنـي الفكـرة، أن أفتـش بيـت طنـط دعـاء، أنـزل عليـه نبشًـا، لا أفـوت منـه شـيئًا. إنمـا هـذا النهـم، تركنـي فأدركـت أني لم أعـد أنـا.

احتفظـت بنفـسي عـلى الكنبـة دون حركـة ودون نـوم. فقـط أعـود وأمـضي بعينـي عـلى شـبيهي، في كل مـرة أكتشـف أكـثر أنـه لا يشـبهني وفي كل مـرة أتأكـد أنهـم يقصدوننـي بـه. لا أقـوى عـلى أن أثبـت عينـي عليـه لمـا كان لوجهـه مـن هيبـة، ولا أقـوى عـلى إبقـاء عينـي بعيـدًا عنـه. شيء مـا كان يقـول لي إني إن نمـت في أي لحظـة سـينزع نفسـه مـن الحائـط ثـم تتحـرك معـه كل أشـياء البيـت في اتجاهـي. نظـرت إلى أصابعـي، لم أجـد بهـا ظفـرًا لم أنزعـه بفمـي.

عدت إليه، ووجدت علبة سجائر على رف خشبي تحته لسبب ما كنت متأكدًا أنها الوحيدة من بين العلب الفارغة المتناثرة ما زالت بها سيجارة. تجرأت وتحركت. وجدتها فارغة، فوجدت جسدي يخدعني من جديد، سأموت إن لم أدخن سيجارة الآن، كم مرة قلت إنني سأموت إن لم أحصل على شيء؟ ولكن ليس جديدًا أني أحيانًا لا أقدر أن أتفاوض مع جسدي. نبشت كل شيء، أدراج بجانب الباب، وفواتير الكهرباء وهواتف المحمول القديمة والشواحن وشرائط الأدوية الفارغة، في المطبخ بين علب أعشاب الاسترخاء والقهوة والويسكي ومكملات طنط دعاء الغذائية، في الحمام وفي البلكونة، وفي غرفة نومها، في صندوق الذهب وفي دولاب ملابسها الداخلية. تحت السرير الذي لم يعد مهمًّا كيف أتذكر صوت مفاصله، بجوار كراسة مذكراتها فوق الكوميدينو التي لم أتوقف كي أفتحها. جريت إلى غرفة المكتب، فلم أعد أشعر باختناق، ولم أجد سيجارة. وجدت صورتي، في جورنال يعود تاريخه إلى أسبوعين مضيا، وتحت الصورة خبر: "نظم عشرات من أعضاء القوى الثورية وقفة سلمية عصر أمس أمام مجلس الشعب لمطالبة الشرطة بالكشف عن مكان احتجاز الناشط رامي مصطفى والإفراج الفوري عنه".

لا أعرف كيف صارت فجأة لي هذه العين الثاقبة، ولمحت صورتي من بين أكوام الجرائد فوق المكتب وعلى الأرفف الواصلة للسقف وعلى الأرض، غرفة مثل أرشيف الصحف التي رأيتها في الأفلام، إنما من دون الموظف البائس الذي كان من المفترض أن أستلف منه سيجارة وهو يدلني على ما أريد.

t.me/qurssan

وبينـما أزيـح الجورنـال لأفتـح آخـر تحتـه، أدركـت أن كومـة الجرائد أمامـي تخصنـي، لا أحتـاج غيرهـا كي أعـرف كيـف أصبحـت شـهيدًا.

تقـول الجرائـد إني ابــن نــاس. ابـن رجـل أعـمال ورثـت منـه شركـة تـدر الملايـين وإني -والعهـدة عليهـم- أسـاهم في دفـع عجلـة الإنتـاج والنهـوض بالاقتصـاد الوطنـي الـذي تعطـل منـذ ثـورة ينايـر المجيـدة التـي خربـت البلـد وأوقفـت سـير البلـد بالانفـلات الأمنـي والاعتصامـات وإضرابـات العــمال الفئويـة عـلى مـدار مـا يقـرب مـن سـنة كاملـة. "أنـا مـش عايـز حاجـة، أنـا عايـز النـاس تعيـش كويـس"، جملتـي الخالـدة التـي تبـدو جميـع المصـادر متأكـدة أني قلتهـا، نفـس التأكـد مـن أني فقـط لم أنضـم للثـورة دون مصلحـة، مثـل غـيري مـن الشـباب المتعلـم السـلمي الـذي يبـدو أنـه نبـذ العنـف واصطـف في طوابـير الانتخابـات في غيـابي، بـل وكنـت في طليعتهـم حـين كان المشـهد في أولـه يُبهـر العـالم.

كل هــذه المعلومـات أصبحـت حقائـق ثابتـة ومتفقًـا عليهـا. أمـا مـا اختلفـت الجرائـد فيـه فقـد كانـت أسـباب القبـض عـليَّ وإخفـائي. أغلـب الجرائـد يقـول إني اعتُقلـت بالخطـأ في شـارع محمـد محمـود وأنـا أحـاول تهدئـة الثـوار وإقناعهـم بـألا يعيقـوا سـير الانتخابـات البرلمانيـة. روايـات أقـل انتشـارًا كانـت تصفنـي بـأني مخطـوف ذهنيًـا مـن مجموعـة مـن الفوضويـين وأني قُبـض عـليَّ قبـل أن ألقـي بالمولوتـوف عـلى منشـأة حكوميـة. أمـا الجرائـد الحكوميـة فنفـت إلقـاء القبـض عـليَّ مـن أساسـه. روايـة أكدهـا مسـؤول حقـوق الإنسـان بـوزارة الداخليـة وكشـوفات المحتجزيـن التـي أظهرتهـا أقسـام الشرطـة للصحافـة، ولكنهـا لم تؤثـر في سـير

الروايـات الأخـرى التـي تقـول إني عوقبـت بالإخفـاء ربمـا لأني صفعـت الظابـط المسـؤول بعـد إهانتـه لي، أو لأني قـدت إضرابًـا عـن الطعـام اعتراضًـا عـلى سـوء التهويـة في الزنزانـة. المهـم أننـي اختفيـت، ظهـر كل مـن سُـجنت معهـم في النيابـة وقالـوا إننـي اختُطفـت مـن بينهـم. ومنـذ ذلـك اليـوم أصرت الجرائـد الحكوميـة عـلى روايتهـا، مـع فواتـح شـهية طبعتهـا طنـط دعـاء مـن الإنترنـت ورتبتهـا. ومنهـا: "شـاهد رامـي وهـو يـشرب البـيرة"، "شـاهد رامـي بمايـوه بصحبـة أربعـة مايوهـات بكينـي"، ثـم "حـاول أن تجيـب عـن هـذه الأسـئلة: هـل صحيـح مـا يُقـال عـن تـورط شركتـه في صفقـات فاسـدة مـع النظـام القديـم؟ ومـا رأيـك فيـما يُقـال إن شركتـه مجـرد غطـاء يمـر مـن تحتـه التمويـل الأجنبـي للمخربـين؟ مُخجلـة هـذه الألفـاظ التـي كان يكتبهـا عـلى الفيسـبوك"، "وغريـب هـذا الشـاب طويـل الشـعر الـذي يظهـر معـه في هـذه الصـورة".

كل ذلـك لم يمنـع سـيادة النائـب، زعيـم الأغلبيـة الإخوانيـة في البرلمـان بوصفـي بابننـا رامـي. نُقلـت عنـه هكـذا، ابننـا. ثـم أشـاد بـوزارة الداخليـة التـي فتحـت سـجونها لزيـارة لجنـة حقـوق الإنسـان بالبرلمـان التـي يترأسـها لتفتـش بكامـل حريتهـا وتتأكـد بنفسـها مـن عـدم وجـود مختفـين بـين أيـدي الـوزارة، منوهًـا أن هـذا الزمـن قـد انتهـى وأن البرلمـان الجديـد لن يسـمح بـأي احتجاز غـير قانـوني لأي مواطـن، رافضًـا مزايـدات البعـض كأنـه مـن الممكن بعـد ثـورة مثـل هـذه أن يتسـتر أحـد عـلى إخفـاء مواطـن مـصري، مؤكـدًا أن الجميـع عـلى قـدر سـواء يعمـل عـلى إيجـاد ابننـا رامـي سـالمًا. هـذا بالطبـع قبـل تصريحـه الأخـير بالأمـس، الـذي وجـه فيـه

t.me/qurssan

الـكلام لأمـي مبـاشرةً، ينبههـا أن ابنهـا مواطـن مـصري كان بإمكانـه السـفر لأمريـكا واختـار البقـاء في بلـده، وأن لهـذا الوطـن أبنـاء سـيجدونه دون الحاجـة لمـا تمارسـه مـن تظاهـرات أمـام السـفارة المصريـة بأمريـكا لإحـراج القيـادة السياسـية في هـذا الوقـت الحرج.

أعتقـد أننـا كنـا في الفجـر، ولا أعـرف كـم مـن الوقـت ظلـت طنـط دعـاء تنتظـرني واقفـة وأنـا منكـب عـلى الأوراق. رفعـت رأسي لأعيـد الـدم إليـه فوجدتهـا مسـتندة عـلى بـاب الغرفـة، فخرجـت منـي الكلـمات:

- فيه طريقة أطلع من البلد؟ مش هرجع تاني والله!

t.me/qurssan

24

فـور معرفتـي بخـبر الإفـراج عـن كريـم وكل مـن معـه كلمتـه وهنأتـه. ومـع الشـائعة التـي سرت عـن قطـع الاتصـالات في اليـوم التـالي، شـعرت أني أخـيرًا وصلـت إلى بـر الأمـان، ظافـرًا بقصـة أحكيهـا لسـنوات مقبلـة.

يـوم الجمعـة ثـورة، سـأقضيها في البيـت، لا شيء يمكنـه خـدش هـذه الحقيقـة المُفرحـة، أني مـن يومـين كنـت هنـاك في الصـورة البانوراميـة للميـدان التـي تتنقـل معـي بـين قنـوات التليفزيـون، في اليـوم الـذي يُقـال عنـه في البرامـج إنـه أهـم أيـام مـصر منـذ قـرن كامـل، مـع الـورد الـذي يُقـال إنـه فتّـح في شـوارع مـصر. لكـن مـا كان يؤرقنـي فعـلاً هـو اليقـين الـذي كان الـكل يتكلـم بـه عـن الـورد الـذي لـن ينجـح أحـد أبـدًا في الإغـلاق عليـه. حقيقـة كانـت وحدهـا قـادرة أن تقـضي عـلى اكتـمال أي قصـة كنـت أنـوي

حكيها باستخدام الزمن الماضي. بعد جولة سريعة على الفيس بوك لم يعد هناك أي شك، كل ما سبق كان مجرد بروفة، يوم الجمعة ثورة، اليوم الحاسم، النهائي، كيف يعرفون؟ أم أنهم فقط يكذبون على كل يوم مقبل بمنحه اسمًا فخمًا حتى يوافق أن يأتي. من بين آلاف صور البروفة على الإنترنت ليست هناك صورة واحدة لي، ولكن ماذا سيفيدني في هذا إن قُتلت؟ وإن نجوت، هل سأنجو من اليوم الحاسم الجديد حين يدعون إليه؟ وماذا سيحدث يجعل من غير المُخجل أن أبقى في بيتي؟ الخطة أصلاً عبثية، الوصول إلى ميدان التحرير ثم الاعتصام هناك، ماذا لو تركونا هناك لسنوات؟

لم تنتهِ مني الأسئلة إلا في الجيم الذي أراحني ثباته في المحافظة على زحام ليلة الخميس. قلت سأجري حتى أتأكد من أن ركبتي تؤلمني، ولكن لم تمر سوى بضع دقائق حتى صرت ألهث كأني أشم رائحة الغاز، فلم أقدر على تجاهل رسالة طنط دعاء أكثر من ذلك.

- رامي، عشان هيقطعوا الموبايلات. عايزاك تبقى بكرة قبل الصلاة تحت البيت اللي اتقابلنا فيه في وسط البلد. هدير هتنزل لك. محتاجين تبقى معاك عربيتك.

لا أعرف حتى الآن لماذا استجبت، مع أني أذكر هذه الرعشة اللذيذة التي لم أحدد إن كانت من خوف أم من هيبة الموقف. أعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التي أحس فيها باحتياج العالم إليّ، العالم طبعًا بشكله الجديد، طنط دعاء وهذا الذي يموت الناس من أجله. أبلغتني طنط دعاء بالمهمة سريعًا

t.me/qurssan

علـى الهاتـف، سـنجوب حـول مظاهـرات القاهـرة، مهمـة هديـر أن تصـوِّر، ومهمتـي أن أبحـث حـول المظاهـرة عـن هاتـف أرضي لأبلـغ مـن خلالـه عـن أعـداد المتظاهريـن وحجـم العنـف إلى أرقـام أرسـلتها إليّ قبـل انقطـاع الشـبكات. لم يكـن هنـاك مجـال للسـؤال عـن مـاذا سـيفعلون بهـذه المعلومـات ومـدى أهميتهـا، ولم أسـأل خشـية أن تتراجـع طنـط دعـاء في طلبهـا، مُنبهًـا نفسـي بـأن قضـاء اليـوم في السـيارة أسـلم مـن الشـارع وأكـثر راحـة مـن البيـت. حتـى هديـر، تبـدد خـوفي منهـا في الصبـاح وأنـا في طريقـي إلى وسـط البلـد. المشـكلة أننـي كنـت متأكـدًا مـن حتميـة وقوعـي في حبهـا اليـوم، لأني كنـت أحـب أفـلام الحـروب ونهايـات العـالم، وعـادةً كان الأبطـال يقعـون في حـب بعضهـم فيخرجـون مـن المعـارك سـالمين، مهـما وقـع حولهـم مـن ضحايـا.

سـأحب هديـر. ليـس علـيَّ الآن سـوى الانتظـار، أشـعلت سـيجارة وأنـا أشـاهد الضحايـا ينزلـون مـن بيوتهـم متجهـين إلى المسـاجد، وخطـر لي أن أشـغّل عمـرو ديـاب كي يكـون أول مـا أتكلـم فيـه معهـا، شيء أعـرف أننـا نحبـه. مـن البلكونـة، أرسـلت إليّ طنـط دعـاء قبلـة في الهـواء. وعنـد مدخـل العـمارة وقفـت هديـر بوجـه حـاد وظهـر شـامخ مفـرود رغـمًا عـن الحقيبـة التـي كانـت تقريبًـا بطولهـا، مـن كتفيهـا حتـى أعـلى السـمّانة. تظاهـرت بأننـي لا ألمحها فتحركـت باتجاهـي، وقـد شـدّت الحقيبـة الجاكيـت الجلـدي إلى صدرهـا، فبـدا مـن القـوة كأنـه سـينفلت عـن جسـدها في أي وقـت يريـد. مـددت يـدي للكاسـيت كي أشـم نفسـي، كلـه تمـام، كيـف

أبـدأ بمـا يليـق بأبطـال قصـة؟ سـلام باليـد أم حضـن ودي سريـع؟ قلـت:

- صباح الفل.

مـددت يـدي ثـم انتظرتهـا حتـى وضعـت الحقيبـة عـلى كنبـة السـيارة، وضمـت شـعرها بالتوكـة وخبـأت عينيهـا خلـف نظـارة الشـمس، ثـم مـدت يديهـا فلـم تصـل إلى أبعـد مـن عقلـة أصابعـي الثانيـة.

- بجـد يلعـن أبـو كـده! يعنـي عشـان انـا سـت يبقـى لازم اتنيـل اقعـد في العربيـة واعمـل أي حاجـة هبلـة!

كانـت هـذه أول صدمـة، هديـر لا تحـب الفيلـم الـذي تؤديـه اليـوم. الأهـم هـو الصدمـة الثانيـة التـي أتـت بعـد أن تحركـت بالسـيارة في اتجـاه المهندسـين، فعـلى الرغـم مـن بـرودة الجـو، كنـت ألاحـظ كلـما أنظـر إلى المـرآة اليمنـى كيـف تتحـول بشرتهـا البيضـاء إلى الاحمـرار، وكيـف يتـسرب العـرق مـن أسـفل شـعرها إلى رقبتهـا الواسـعة، هـذا حتـى بـدأت في الحركـة لتخلـع الجاكيـت، فهبـت مـن ناحيتهـا رائحـة ملـح الفـول السـوداني، باغتـت أنفـي، فكأنهـا كانـت تقـذف بي إلى ليلتـي المخجلـة معهـا. قاومـت وعـدت مثبتًـا نفـسي فيـما أراه، شـعر إبطهـا الذهبـي الخفيـف الـذي ظهـر خلسـة تحـت طـرف التيشـيرت الأبيـض وهـي ترفـع يدهـا لتلقـي بالجاكيـت وراءنـا. ثبـت عينـي عليـه وقـد اختلطـت مشـاعري بـين القـرف منهـا والرغبـة الطاغيـة فيهـا، إلى أن لاحظـت هديـر أيـن تقـع عينـاي فلـم تعلـق، مكتفيـة بالنظـر إليَّ في ترقـب أعـاد وجهـي

t.me/qurssan

إلى الأمـام. ثـم رأيـت قصـة فيلمـي تتـسرب مـن الشـباك جملـة وراء الأخـرى مـع كل شيء يخـرج مـن فمهـا.

ـ إيه الخرا ده! حد يسمع عمرو دياب في يوم زي ده؟

أغلـق الكاسـيت في صمـت، فتبـدأ عـزف أسـطوانتها السـاخرة عـن ارتـدائي لحـذاء جلـدي في يـوم مثـل هـذا، وعـن السـيارة التـي قالـت إنهـا أفخـم مـا ركبـت، سـخرية كنـت أرد عليهـا في البدايـة بابتسـامة ثـم صـارت تتـوالى دون احتيـاج لأي رد منـي، فجلسـت أسـمعها دون تدخـل، راغبًـا في أن ينحـصر دوري مـن جديـد في شـخصية سـائق التاكـسي الصامـت، مشـاهدًا كابـوسي الـذي سرعـان مـا أكـدت لي إلى أيـن سـينتهي. ليسـت مزعجـة فقـط، بـل مجنونـة أيضًـا، لم يعـد عنـدي شـك وهـي تُخـرج رأسـها مـن الشـباك لتلتقـط سـيلفي ووراءهـا سـيارة الأمـن المركـزي المـارة بجوارنـا، أخرجـت إصبعهـا الوسـطى في اتجـاه السـيارة فأنهيـت المشـهد بضغطـة بنزيـن قويـة، فعـادت هديـر إلى وضعهـا عـلى الكـرسي بوجـه حـاد، وقالـت:

ـ اليوم لسه طويل.. ما تبقاش رخم!

في حـي المهندسـين، كان صـوت خطيـب جامـع مصطفـى محمـود مرتعـدًا، يتـدلى مـن الميكروفـون للواقفـين أمـام الجامـع. أراحنـي كيـف كنـت أنـا وهديـر نمـر بـين سـيارات الأمـن المركـزي والبوكسـات دون أن يعترضنـا أحـد، وحـين وصلنـا أمـام الجامـع، كان هنـاك صـف ضخـم مـن كاميرات التليفزيـون مقابـل للأحذيـة الملقـاة دون ترتيـب أمـام المدخـل، فوقفـت خلفهـم أشـاهد هديـر وهـي تجاهـد لإيجـاد ثغـرة تخـترق منهـا الصـف، وبيدهـا كامـيرا

بحجم كف اليد. هنا فهمت سر غضبها وعبثية المهمة التي أوُكلت إلينا، ثم كانت سرينة البوكس وهي تقترب من المصلين الذين يتباطأون ذعرًا في ارتداء أحذيتهم، ثم استدارت الكاميرات فجأة ناحيتي فوجدتني أعود خطوات للوراء، تاركًا مساحة لمسحراتي الثورة الهابط كالعادة من السماء وهو يصرخ فينجرح صوته.

- يا أهالينا انضموا لينا، الحرية ليكو ولينا!

أنا لا أنتقي من ذاكرتي ما لا يُخجل، ولكنني بالفعل لا أتذكر سوى أن بعض الجنود أوقعوني في طريقهم إلى المسحراتي، وأنهم عادوا فوقي دون أن يكون معهم، ومن بعد هذا كانت رائحة الغاز وبعض أصوات الطلقات، ولا أدري حتى الآن كيف قمت وجريت حتى نظرت خلفي لأجد الجامع صار بعيدًا، لدرجة يستحيل معها أن ألمح أين تقف هدير.

كان حولي أيضًا بعض الفارين. بعد التقاط أنفاسهم قرروا العودة للمعركة التي كنا بالكاد نلمحها كلما تخف دفعات الغاز تحضيرًا لدفعة أخرى، فوقفت أشاهدهم مطمئنًّا إلى أن ظهري محمي بالشارع الخالي، وحين اختفوا داخل السحابة البيضاء، خرج بدلاً منهم آخرون محمولين على أكتاف تجري بهم في اتجاه سيارات الإسعاف، ثم انقشعت السحابة وصارت الرؤية واضحة مع جري الجميع للاختباء من الرصاص، فخطر لي أن أعود أكثر للوراء بعدما لمحت كشكًا قريبًا، وأخفي ارتياحي وأنا أنقل الخبر إلى طنط دعاء، "اليوم خلص، هُزمنا في عشر دقائق!".

t.me/qurssan

طنط دعاء لم ترد، وعندها اهتزت الأرض من تحتي. بالفعل شعرت بهزة مصحوبة بصوت بعيد مخيف، هزة أحس بها أيضًا صاحب الكشك فسحب من يدي التليفون وهرول لإدخال بضاعته، فوجدتني أساعده، وقبل أن ننتهي كان الصوت قد اقترب حتى نتعرفه، مدد عظيم، مسيرة بلا نهاية تُهيج تراب الشارع كأنها تمشي على حوافر أحصنة، عاصفة تزداد بأسًا مع كل مدد يأتيها من الشوارع الجانبية، ووجوه خزنت غضب العالم كله تحت أجفانها. اتخذت لظهري جدارًا يحميني ومن أمامي خط إنتاج لا يقل كفاءة عن مصنعي رغم يدويته، تُحمل زجاجات البيبسي، يُفرغ ما فيها، ثم يوضع بدلاً منه خليط من الزيت والكيروسين، تُمسح ثم تصل إلى المحترف الذي يغلق الزجاجة بقماشة ثم يبلّها، وأخيراً إلى صاحب الفوطة الذي يجفف الزجاجة ويناولها للمارين باتجاه المعركة. ماذا لو استمر هذا لغد؟ هل أعود للمصنع وأقرر تخصيص خط إنتاج للمولوتوف؟ أعجبتني الفكرة حتى اهتزت الأرض تحتي من جديد. لا، اهتززت فوقها وأنا أرى صاحب الكشك يعود محمولاً، غارقًا في دمائه التي تسيل من عينه اليسرى، ثم موضوعًا أمامي في انتظار الإسعاف. تفحصت الرجل وهو يتألم، كانت على وجهه نفس سكينة الرجل الذي كان من المفترض أن يموت بدلاً من مصطفى، وربما لهذا لم أبادر بأن أحمله، أو ربما كنت أبطأ من الشاب الذي تطوع بمصاحبته في السيارة. المهم، أنني تعرفت الغضب، نزل عليّ فجأة مبعوثًا من لحظات قليلة قضيتها مع الرجل أمام الكشك، صافيًا قادرًا وحده على أن يحررني مني، ويُخرج صوتي فأهتف دون أن أسمعه،

"الشعب يريد إسقاط النظام". ثم أشعر بالغضب يمتلك قدمَيّ فيحركهما مع المسيرة، وأذني فتألف صوت الرصاص، ورئتي فتتحدى اقترابي من الغاز، وقبل أن يصل إلى عيني أرى بها هدير، واقفة أمام السيارة، فأهرب منه إليها.

- لا بص بقى، إنت بتسرح.. أنا اللي هاسوق!

أناولها المفتاح دون مناقشة، وأجلس بجوارها مراقبًا غضبي الجميل يتبخر والسحابة البيضاء وهي تعود لارتداء ثياب الرعب، ألتقط أنفاسي وبي شك في لقاء غضبي قريبًا من جديد. مع السيجارة الآمنة الأولى تمنيت ألا نصل إلى مظاهرة الجيزة قبل آخر نفس، وأن تقول هدير أي شيء، أي شيء يعيدني إلى نفسي كما أعرفها، ولكنها لم تتكلم حتى سمعنا صوت تقلب أمعائها فلم نقدر على تجاهله.

- إنت عارف ان اللي احنا بنعمله ده مالوش أي تلاتين لازمة؟

خرج صوتها هذه المرة هادئًا لا يشوبه استنكار. نظرت إليها فوجدتها متشبثة بمقود السيارة محنية للأمام، وعلى الرغم من خلو الطريق أمامنا، فإنها لم تكن تضغط بقدمها دواسة البنزين بما يتناسب مع نظرتها المتحفزة. لا أعرف إن كانت قد نسيت أنها سألت، أم أنها لم تكن تنتظر من الأساس إجابة مني، وجدتها تُشغل الكاسيت ناسية أمر ملاءمة عمرو دياب لليوم، وهنا لمحت ذلك العِرق الذي حُبست أنفاسي لجماله، حضرته في لحظة انتفاضه، عِرق أخضر عريض ينبض بادئًا من عنقها ومنتهيًا عند ندبة صغيرة مُكورة تفصل بين جنبي صدرها، فسرحت فيه، في الدم الذي ينقبض بداخله

t.me/qurssan

حتـى اختلـط خيـالي فجـأة بـدم صاحـب الكشـك خارجًـا مـن عينـه، فأصابنـي خجـل مـن زوال ثـورتي بهـذه السـهولة، وقلـت لهـا:

- عندك حق.. رأيك نعمل ايه؟

لم يُعجـب العِـرق الأخـضر بالسـؤال، وتضاعفـت سرعـة انقباضه عنـد رقبتهـا فأخافنـي عليهـا، ومنهـا. مـاذا أقـترح؟ يدهـا أصغـر مـن أن تُمسـك بحجـارة، وكاميرتهـا تمنعنـي مـن ادعـاء أني سـأحترف رمـي المولوتـوف في المظاهـرة المقبلـة، ولـن أقـترح أبـدًا أن نفـترق، ففكـرة أن يحملنـي غربـاء إلى سـيارة الإسـعاف ترعبنـي. اختفـى العِـرق تحـت لحمهـا، فتأهبـت وقالـت:

- كمامـات! النـاس بتتخنـق ومـش كلـه مجهـز نفسـه. معـاك كام في جيبـك؟

فكـرة عظيمـة، قلـت لنفسـي وأنـا أخفـي حـماسي بعـدّ النقـود في محفظتـي، مختلسًـا النظـر إلى هديـر المبتسـمة أخـيرًا، وإلى صوت عمـرو ديـاب الـذي قفـز فجـأة مـن الخلفيـة، فحثنـي خاطـر عـلى أن أقـترح عليهـا السـفر حـالاً إلى البحـر، ولكـن سريعًـا عـاد لي عقـلي متذكـرًا أننـا في شـهر ينايـر، عـلى صـوت طلقـات رصـاص مجهولـة المصـدر، ووجدنـا النـاس يفـرون مـن شـارع جانبـي ثـم يقفـون عنـد السـيارة. ثـوانٍ، وخرجـت مـن الشـارع مدرعـة تجـري بسرعـة مجنونـة، يعتليهـا عسـكري يطلـق الرصـاص في اتجاهنـا، انحنينـا عـلى تابلـوه السـيارة في اللحظـة نفسـها، وحـين كانـت المدرعـة عـلى بعـد أمتـار قليلـة، انطلقـت هديـر بأقـصى سرعـة وعيناهـا مغمضتـان، ولمحـت بطـرف عينـي الـكل في الشـارع يجـري في هلـع، هاربـين منـا في اتجـاه المدرعـة.

أتخيلهـا دقيقــة أو أقــل، أوقفــت بعدهــا هديــر الســيارة، وانهـارت تمامًـا، سـيل مـن البـكاء والخبـط عـلى البـاب والتابلـوه، سـقوط مفاجـئ حركنـي إليهـا وضمهـا في حضنـي، ولمـس شـعرها بيـدي.

- ما تخافيش.. أنا معاكي!

رفعـت رأسـها في عينـي، كان في عينيهـا تحـدٍّ لم يكتمـل، وشـعرت بجسـدها يتصلـب ثـم يـذوب مـن جديـد مـع دمـوع جديـدة بللت ذراعـي كلهـا. شيء مـا كان مريحًـا في حضنهـا، وفي عظامهـا التـي شـعرت بهـا تلـين بـين كتفَـي، ورجفتهـا التـي كانـت تحتنـي عـلى الإحـكام عليهـا بـين يـديّ. هـل كانـت تشـعر بهـذه النشـوة نفسـها وهـي تركـب بالنهـار سـيارة شـاب يطفـح مـن وجهـه الخـوف؟ رفعـت رأسـها قليـلاً فاقتربـت شـفاهها منـي، كانـت جافـة وبهـا شـقوق باعثـة عـلى الاكتشـاف، إلا أنهـا لملمـت نفسـها وانسـحبت مـن حضنـي في بـطء، فعـدت إلى كـرسيّ بعـد أن ناولتهـا زجاجـة ميـاه.

- أنا آسفة.. ممكن اريح شوية بس في العربية وبعدين نكمل؟

أعيـد كـرسيّ إلى الـوراء، ونتجمـد في مكاننـا، بعيديـن عـن المظاهـرات، بـل خـارج الزمـان والمـكان. أصحـو وقـد حـل الليـل، عـلى يدهـا الصغـيرة مختبئـة داخـل يـدي، وعينيهـا الواسـعتين المفتوحتـين، وصـوت أقـدام العسـاكر جاريـن في اتجاهنـا فأفـزع، ولكنهـم يعبروننـا دون اهتـمام، ومـن بعدهـم تمـر علينـا الحشـود المنتـصرة وهـي ترقـص. ننـزل مـن السـيارة ونتحـرك معهـم، نعـرف أن اليـوم قـد انتهـى، هـذا ميـدان التحريـر سـنصله، وهـذا مقـر

t.me/qurssan

الحزب الوطني يحترق، وهذه مدرعة هالكة نقف أمامها، فتقفز فوقها هدير في فرح بعد أن تناولني هاتفها لأصوّرها. بعدها أمسك بهاتفي كي ألتقط لنا صورة فتبتعد عن الكادر، هل تركنا ما فعل بنا اليوم ونحن ننزل من السيارة؟ سألت نفسي وأنا أجاهد للحاق بخطواتها مختنقًا برائحة الكاوتشات المحترقة، والأخبار المُشيّبة عن مئات الضحايا الذين سقطوا.

أصل إليها وهي في حضن فريدة التي رأيتها كأنها تخرج مجددًا من الأرض بين الجموع، وتفرد حضنها لي فور رؤيتي، ولكنني لا أقترب غير قادر على تجاهل الدم الذي كسا وجهها وملابسها.

- مش انا.. عيل صغير عينه طارت واحنا في الأزهر. إنتو كويسين؟ كنتو فين؟

أتلعثم، فترد هدير.

- إحنا كنا في مصطفى محمود. كانت عظيمة.

هذه المرة كان عِرقها نافرًا كأنه سينفجر. ابتسمت لها، فاختفى وتحرك الكل من جديد في اتجاه الميدان، ثم اختفت هدير عني تمامًا. طوال الطريق إلى الميدان كنت أسمع الناس يحكون ما حدث لهم في اليوم، وأدركت عند وصولي أني وحدي، وأن اتساعه يربكني بقدر ما يقلقني ثبات رائحة هدير في يدي.

t.me/qurssan

25

على عكس الراسخ تاريخيًّا، لم تكن تيتانيك تغرق بسبب اصطدامها بجبل من الجليد، بل كنا نُقصف بقذائف آتية من سفن بعيدة. وبما أنها ليست المرة الأولى التي أدخل فيها هذا الحلم، مشيت في وجهتي دون التفات لما يحدث، حتى لا أتأخر على كيت وينسلت، ولكني رأيت هدير، فوق، عند صاري السفينة، مرتدية زي زفاف، ودون مبرر واضح قفز إلى مخي أن هذه ليلة فرحنا، وأن الشماريخ التي رأيت الناس يطلقونها في الهواء ليست للاستغاثة، بل للاحتفال. فرح قلبي وقلت أن أجري لها قبل وصول المياه إلى فوق ركبتي، ولكنني لم أجد سلالم كي أصعد عليها، وانتابني شك من اللون الأسود الذي كان يرتديه كل حضور الحفل الغارق، ومن الفستان الأحمر الذي اكتشفت أني أرتديه. وعلى الرغم من أن الكل كان يهنئني وهم

يعبرونني في اتجاه الصاري، فإن أحدًا لم يوافق على حملي لما كانت لي من رائحة كريهة، اكتشفتها بعدما رأيت هدير على الصاري، تبدأ الحفل وحدها وهي تغني من ميكروفون:

- ارفع كل رايات النصر. إحنا شباب بنحرر مصر.

فتحت عيني على مجمع التحرير، وأنا أسمع صوتًا:

- آسفين ع الإزعاج.. بس احنا خصصنا الجنينة للصلاة، الظهر أذن لو حابب تنضم.

ابتسامته كانت مهذبة، ويده كانت خلف ظهره، ولكنني لم أرد عليه لأني كنت متوجسًا مما يمكن أن يكون سمعه مني في أثناء نومي، وانتفضت من مكاني الذي بدا لي أني نمت فيه دون دراية مني بعد ملحمة الأمس، تاركًا المصلين يصطفون، وبعدما ابتعدت عنهم نظرت إلى نفسي كي أتأكد من أني بالفعل لا أرتدي فستانًا أحمر.

على عكس حالي، كان الميدان نشطًا. الكل منشغل بشيء ما، مراهقون على ناصية محمد محمود لم تنتهِ طاقتهم بعد، يجرون في اتجاه وزارة الداخلية ثم يعودون حاملين أحدهم، خيام تُنصب وعربات لبيع الشاي والبطاطا تصطف، وناس يعبثون ببقايا سيارة الشرطة المحترقة، وآخرون يتناقشون بحدة عن مصير مبارك وهل سيتنحى، ومنافسات بين مسيرات صغيرة تجوب الميدان. أصدقائي كانوا في مركز الصينية، ينصبون خيامهم تحت إشراف طنط دعاء من موقعها خلف نظارة شمسية تخفي نصف وجهها، جالسة على كرسي بحر خشبي. هناك توقفت،

t.me/qurssan

متذكـرًا رائحتـي الكريهـة، فلـم أرغـب في الاقـتراب مـن هديـر وهـي تنصـب خيمتهـا، رغـم مـا لـدي مـن خـبرة في نصـب الخيـم، خاشـيًا أن تعلـق رائحتـي في ذاكرتهـا. لم تكـن ترتـدي فسـتان زفافنـا، ولكنها كانـت متأنقـة أكـثر مـن الباقـين، وعـلى الرغـم مـن بـرودة الجـو تركـت لرقبتهـا الواسـعة حريـة أعجبتنـي. سـلمت عليهـا باليـد، ولم تكـن سـتبادر وتحضننـي، أحرجتنـي لهجتهـا الرسـمية:

ـ أنـا نسـيت الكامـيرا في عربيتـك. أبقـى متشـكرة جـدًّا لـو جبتهـا لي.

ـ أكيد.

انقطـع حوارنـا ووجـه مألـوف يعـرض عليهـا مسـاعدتها، كان عـليَّ أن أشـغل نفـسي بـأي شيء إن أردت البقـاء معهـم في الصينيـة، وقبـل أن أحتـار أنقذتنـي طنـط دعـاء:

ـ تعالى جنبي يا بن الغالي.

جلسـت بجوارهـا عـلى الأرض، وبـدأت أعتـذر عـن تقاعـسي في مهمـة الأمـس، ولكنهـا كانـت تـرد:

ـ انسى امبارح، مش مهم وما تفتكروش مهم.

لم أفهـم شـيئًا، كانـت لا تنظـر إليَّ، بـل إلى هديـر، ولكننـي أدركـت اشـتياقي لجمـل مصطفـى الحكيمـة القصـيرة المُبهمـة، فابتسـمت لهـا حـين وجهـت نظرهـا إليَّ وقالـت:

ـ بـس انـت عـارف، إنـت في إيـدك تبـوظ الثـورة دي كلهـا النهـارده.

- ليه بس؟

- عشان لو ما جبتليش خرطوشة ميريت أصفر، مش هاستنى عليكو لحد ما مبارك يقتلكو، وفيه طوابير ع المحلات.

أُعجبت بمهمتي، أُعجب بموقع الجندي عامةً لأنه لا يتحمل عناء التفكير في قرار قد يقتله، فقمت من مكاني على الفور، وفي طريقي من الصينية إلى الميدان تكررت الإشاعة نفسها مرتين. مبارك تنحى، وفي كلتيهما كان الميدان ينتفض فجأة في أحضان جماعية، ثم يعود لرشده مع نفي الخبر، ولم أكن مرتاحًا لأن أحضن كل هذا الكم من الغرباء.

بعد مشية طويلة وصلت إلى سيارتي ووجدت حولها شبابًا حاملين العصي وسكاكين المطبخ. حين اقتربت من الباب، نهرني أحدهم لأنني تركت السيارة مفتوحة فاضطروا إلى الجلوس بجوارها طوال الليل. شكرته وأنا أدخل إلى السيارة مطمئنًّا إلى أن كاميرا هدير لم تُسرق، وقبل أن أتحرك كنت أُخرج محفظتي فشعرت بضربة خفيفة من أحدهم على كتفي.

- تصدق إحنا ولاد قحبة يا شيخ.. امشي يلا!

ساعتان وصلت فيهما إلى البيت، نصف ساعة في طابور أمام محطات البنزين، والباقي قيادة على مهل فوق بقايا الكاوتش المحترق وزجاج السيارات المكسور، وتوقيف اللجان الشعبية والاستجابة للسكان ذوي المواهب الأمنية المكبوتة، بدءًا من لجنة حي المنيل التي جعلت كلبًا بلديًّا يشم سيارتي، وصولاً إلى

t.me/qurssan

لجان التجمع الخامس التي رأيت فيها للمرة الأولى مسدسات حقيقية بهذا القرب، لم تكن لديَّ رغبة في تأمل أي من هذا، شيء ما كان يقول لي إن هذه الدهشة لا تليق بي، وإنما بغريب فاته الأمس العظيم. عند بوابة الكمبوند، اطمأن قلبي لأن الثورة لم تصل إلى بيتي، حين رأيت أفراد الأمن ما زالوا واقفين بأزيائهم الرسمية، أعطيت واحدًا منهم بعض الأموال مع بقشيش محترم كي يشتري لي خرطوشتَين ميريت أصفر، وقلت سأتذكر أن أسأله عن حجم الطابور الذي سيقف فيه كي أحكي لطنط دعاء عن تضحيتي من أجل سجائرها.

في البيت هتفت تحت الدش، وغطى على هتافي صوت المياه، وفي انتظار السجائر انزعجت من عدم عودة الإنترنت وأنا أجلس أمام اللاب توب في نيتي مشاهدة فيديوهات لما دار بالأمس، وبعض البورن لإزالة التوتر. خشيت أن يفوتني حضور تنحي مبارك في الميدان، فأسرعت بالخروج بعد أن رتبت شنطة ملابس تكفيني أسبوعًا، ونسيت أن أسأل فرد الأمن عن تجربته في طابور السجائر.

t.me/qurssan

26

على حدود الميدان أوقفني رجل وسألني:

ـ تفتكر هيمشي؟

كان واقفًا، كأن إجابتي ستغير مساره. نظرت إلى الدوامة البشرية التي ملأت الميدان بالكامل، وتأكدت من استحالة أن ألتقيه من جديد إذا خطونا إلى الداخل، فأجبته بصدق:

ـ لأ.

وقبل أن أقفز في زحام الميدان نظرت إليه فكان واقفًا، لا يتقدم ولا يتراجع، ومن بعدها غاب عني لأني تهت في طواف دائري حول الصينية كان لا يمكن كسر إيقاعه. ثلاث لفات وبدأت أذني تتألم من اختلاط الأصوات من حولي، بأصوات النشاز الثورية الصادرة من المنصات. أتأكد من صحة إجابتي

للرجل، كيف لثورة بلا مهندس صوت شاطر، أن تُسقط رئيسًا يملك كمًّا مهولاً من الميكروفونات؟ وجدت ثغرة قفزت منها إلى الصينية، وقبل أن أمشي في اتجاه طنط دعاء أمسكت بي سيدة عجوز، ودققت النظر إليّ ثم ملأ وجهها الإحباط.

- والنبي يا بني ما شفتوش؟

أمسكت بصورة ابنها. لم أعتقد أني رأيته من قبل، ولكن الشبه بيننا كان مفزعًا. حضنتها حضنًا سريعًا ثم اختفيت من أمامها، متذكرًا جملة مخيفة قالتها مرة فريدة: "تعرف ان الثورة فشلت إذا خرجنا منها كاملين العدد". ولكن هذا الشبه ليس فريدًا لأني أشبه نصف شباب البلد، كأن رحمًا كاليفورنيًّا لم يلدني. طنط دعاء؟ لا، الأب احتمال قابل للتأويل، أما الأم فحقيقة مطلقة.

أعطيتها خرطوشة السجائر فردّت بقبلة على خدي ثم أكملت تقليم أظفارها. جلست بجوارها على الأرض، في الصف الثاني من الدائرة التي جلس فيها الأصدقاء، متأكدين من أنهم أسقطوا مبارك بالفعل، وبدأوا النقاش عن مرحلة ما بعده. هنا الروائح جميلة، حضور لا بأس به أيضًا من الأجانب الذين لم تكن تعرفهم فقط من شعرهم الأصفر، بل من وجوههم الناضحة بالحماس. في وسط الدائرة ملاءة عليها بعض السندوتشات الصغيرة والشيبسي وعلب الجبنة، وحولها يتحرك شاب هزيل بذقن نمت دون أن يهذبها، يرتدي قميصًا أتخيله ورثه من والده الذي كان بالتأكيد أطول وأبدن، أكثر ما يميزه

t.me/qurssan

نـبرة صوتـه المحشرجـة التـي تُخـرج الكلـمات منـه بصفـارة بسـيطة لتثـير انتبـاه الجميـع.

كان يتحـدث عـن شيء أسـماه الثـورة الشـاملة، يتحـد فيهـا الشـباب مـع معانـاة فقـراء الشـعب. لم تكـن هديـر أيضًـا منتبهـة، وكان موقعـي وراءهـا فناولتهـا الكامـيرا مـن وراء ظهرهـا دون كلام. بعـد قليـل، وضعـت الكامـيرا عـلى الأرض ومالـت عليهـا تشـاهد مـا صورتـه، فارتفـع البلوفـر الأحمـر قليـلاً، واشـيًا لي عـن وشـم يعتـلي مؤخرتهـا المرسـومة بعنايـة دون إفـراط ولا بُخـل، اسـتغربت أني لم أرَه وهـي ترتـدي قميـصي مـن قبـل. كان مـن الصعـب تحديـد شـكل الوشـم، خطـان متباعـدان يبـدآن من أسـفل عمودهـا الفقري ثـم يختفيـان وراء الجينـز، تخيلتهـما جناحـين لطائـر يُفـرج عنـه في غـرف مغلقـة. أي شيء، حتـى أن يكونـا فرعَـي الدلتـا. كان هـذا مخجـلاً ولكـن لا يُقـاوم، أن أنتصـب قليـلاً وأنـا أتخيـل خريطـة مـصر تكتمـل تحـت الجينـز، والنيـل يفصـل بـين ردفيهـا. غـيرت مـكاني بعـد انـصراف أحـد الأجانـب مـن الصـف الأول، ولكـن هاجسًـا مجهـول السـبب كان يقـول لي أن أصرف هديـر مـن خيـالي، وكلـما عـلا صـوت هـذا الهاجـس كان يـرد عليـه خيـالي باشـتهائها أكـثر. تبادلنـا نظـرة أو اثنتـين، ثـم انقطـع النظـر إليهـا بسـبب كتف شـاب ضخـم لمحتـه عنـد دخـولي يغنـي عـلى إحـدى المنصـات، وكان صوتـه أغلـظ مـن يـده التـي أزعجتنـي رؤيتهـا وهـي تلمـس يـد هديـر خلسـة، فتبتسـم.

هربـت مـن النظـر إليهـا، ومـن ابتسـامتها الخاطفـة لي التـي كانـت تحتـاج إلى أن تميـل إلى الأرض أكـثر، فتظهـر لي مـن بـين كتـف

المغنـي وإبطـه. وبينـما أتشـاغل بالنظـر إلى الباقـين أدركـت معنـى ما حـدث بالأمـس الـذي سيشـتهر بالغضـب. الغضـب الـذي أذاب المدينـة، فلـم أندهـش وأنـا أرى نـدى بـين الأصدقـاء في الصينيـة بحماسـها المعتـاد:

- رامي؟ وات ذا فاك!

لم أعـرف إن كانـت هديـر قـد انتبهـت للحضـن الحـماسي الطويـل الـذي استقبلتني بـه نـدى أم لا، لكننـي كنـت أهتـم بهـذا. فهمـت سريعًـا أن نـدى أتـت مـع فريـدة، فجلسـت بجوارهـما مانحًـا ظهـري للهيـب النـار الـذي كنـت أحـس بـه مقبـلاً مـن الطـرف البعيـد للدائـرة، حيـث هديـر وصديقهـا، وكتفـه.

دائمًـا كان شيء مـا خفيـف ومـرح يـأتي مـع ملاقـاة نـدى، بهجـة كالتـي أحسـها مـع أول خروجـة بـذراع عاريـة بعـد انقضـاء الشـتاء. آخـر مـرة قابلتهـا كانـت صدفـة أيضًـا، في مطعـم للسـمك بإسـطنبول، حضنّـا بعضنـا بالحـماس نفسـه ثـم دعتنـي للانضـمام إليهـا في رحلتهـا لتسـلق الجبـال في اليـوم التـالي، أُحرجـت مـن مصارحتهـا بـأني في رحلـة مـع مصطفـى، قلـت لهـا سـأفكر وانصرفت قبـل خروجـه مـن الحـمام. أعرفهـا مـن أيـام الجامعـة، صديقـة لأصدقـاء، لم أكـن أعـرف رقـم تليفونهـا، وكانـت مـن النـاس الذيـن دعـوا أنفسـهم إلى حفـلي الفاشـل دون أن أدعوهـا، ولكنهـا ربمـا كانـت الوحيـدة بعدهـا التـي تفهمـت أمـر اختفـائي يومهـا دون أن تغضـب منـي. كنـا نلتقـي أحيانًـا في مطعـم الجامعـة فتدعـوني إلى طاولتهـا، نتكلـم ونحـن نـأكل، لم أرد منهـا شـيئًا ولم تـرد منـي.

t.me/qurssan

كنــت أســمع كلامًــا كثــيرًا عنهــا، فعــلى الرغــم مــن شــعبيتها العاليــة بــين دفعتنــا لم تكــن أبــدًا صديقــة مقربــة لأحــد، ولم نعــرف لهــا طــوال ســنين الجامعــة شــخصًا أحبتــه أو أحبهــا، كانــت شــعبيتها أساسًــا آتيــة مــن غرابــة نمــط حياتهــا. قبــل تخرجنــا، كانــت قــد تمكنــت مــن رياضــة الغطــس حتــى أصبحــت مدربــة، وكنــت أحيانًــا أراهــا في ملعــب الجامعــة وهــي تــدرب فريقًــا نســائيًا لكــرة القــدم. أغــرب مــا ســمعته عنهــا كان في الصيــف الســابق لتخرجنــا، قضتــه كامــلاً في محميــة طبيعيــة بزامبيــا ترعــى أشــبال الأســود المهــددة بالانقــراض، ثــم لم يبــقَ هــذا الأمــر غريبًــا مــع انقطــاع أخبارهــا بعــد التخــرج، والإشــاعة التــي قيلــت كأنهــا نكتــة، هاجــرت مــن مــصر إلى كــوخ في أحــد الجبــال الهنديــة بحثًــا عــن ســلامها النفــسي.

لم تكــن معلومــاتي دقيقــة، فقــد عرفــت حــين ســألتها أنهــا قضــت ســنواتها الأخــيرة بالفعــل في كــوخ، ولكــن أقــرب، في دهــب حيــث كانــت تقــدم لزبائنهــا مــن الأجانــب برنامجًــا كامــلاً للاستشــفاء، يعتمــد عــلى التأمــل، ونظامًــا غذائيًــا حــين شرحتــه لي كان يمكــن اختصــاره في الاســتغناء عــن الطعــام، والاكتفــاء بــشرب الســوائل. وجدتنــي متحمسًــا للفكــرة، كثــيرًا مــا راودتنــي فكــرة أن أُخضــع نفــسي بــإرادتي لنظــام صــارم في أي شيء، ولكــن قبــل أن أطلــب منهــا الانضــمام، كانــت فريــدة قــد تدخلــت مؤكــدة تنصتهــا علينــا.

- بس خلاص ندى عقلت، وقررت تيجي تقعد معانا.

قــرار لم تؤكــده نــدى، قالــت إنهــا لا تملــك خطــة محــددة، عرفــت بالثــورة التــي تحــدث في القاهــرة وأرادت أن تــرى عــن قــرب، فقــررت العــودة لبعــض الوقــت. فريــدة، كالعــادة، كانــت

لديها خطة محددة أخبرتنا بها وهي تنظر إلينا كأم سعيدة في لحظة اكتشاف أن عيالها قد كبروا.

ـ ماحدش ماشي من هنا يا حلوين.

بعدها تركتنا فريدة في حالنا، وانفك لساني مع ندى. حكيت لها عن المغامرات التي حضرتها بالأمس. حكيت لها كل ما دار على حقيقته، حتى نومي في السيارة في أثناء الاشتباكات، وكان هذا لا يُفتر اهتمامها بقصصي، بدت لي كصديق تمنيته، نجلس كل ليلة على المقهى نفسه خلف الشيش والحواديت التي لا تخرج أبعد من محيط الكراسي.

ـ هو ده من امبارح؟

نظرت معها إلى جرح صغير جدًّا في راحة يدي، غرزتان أو ثلاث اندهشت كيف لاحظتها ندى. ثم حملت يدي واقتربت منها بعينيها لتدقق في الغرز كأنها كشف أثري. لم يكن هناك داعٍ للمراوغة، قلت ما أتذكر، جرح قديم في رحلة صيد، ثم أعادت لي يدي وهي تؤكد أنها صديق القهوة الذي أنتظره:

ـ أنا هادور على مكان أطرطر فيه وراجعة.

ثم انصرفت فوقعت عيني على هدير التي امتلكها الغضب فثبّتت عينيها علىّ وضم حاجبيها ورفع جفنها، فهربتُ منها بتحويل نظري إلى الأرض متفرغاً لنزع الحشائش عنها، ومع عودة ندى وجدتني سعيدًا بهذا الغضب، أنعشتني فكرة تأثيري في هدير بهذا الشكل، فمنحتها ظهري من جديد محولاً تركيزي إلى ندى، في نيتي أن أحكي لها عن مجانين الميدان

t.me/qurssan

الذيـن رأيتهـم اليـوم عـلى ناصيـة محمـد محمـود، يفكـرون في صنع منجنيـق لإلقـاء الطـوب باسـتخدام خشـب عربـة كارو قديمـة.

ولكـن يـدًا نزلـت عـلى كتفـي، يـد هديـر. علقـت عينـي بهـا وتبعتهـا دون كلام. بهـذه البسـاطة؟ ندخـل خيمتهـا، أبلـع ريقـي بصعوبـة متخيـلاً أن يُطـير الهـواء البـاب القـماشي في أي لحظـة، فننكشـف أمـام مـا يقـرب مـن المليـون بنـي آدم. وهـل لا أريـد هـذا؟ بالعكـس، هـي حكايـة يمكـن العيـش عليهـا، الأمـر فقـط أن اللهفـة كانـت طاغيـة ويـدي كانـت ترتعـش، فخشـيت أن أنتهـي مـع أول لمسـة منهـا عـلى صـدري، أو مـع أول خـط جديـد ينكشـف مـن لغـز الخريطـة، خصوصًـا مـع نظرتهـا الضاحكـة لمـا يـشي بـه بنطلـوني، والبهجـة التـي بـدت عليهـا وهـي تفتـح الكامـيرا.

ـ عندي دليل انك بتشخَّر.

كنـا نشـاهد فيديـو لي وأنـا نائـم بجوارهـا في السـيارة. كادت تقـع عـلى الأرض مـن الضحـك، كلـما عـلا صـوت شـخيري، وكان في ضحكتهـا شر خالـص وددت لـو أحطمـه مـع هـذه الخيمـة، ولكننـي انصرفـت غـير عابـئ باعتذارهـا الـذي لم يقطـع ضحكهـا.

ـ أنا آسفة. ما تخافش كده يا عم، سرك في بير!

أمـام الخيمـة، كانـت طنـط دعـاء واقفـة تقطـع طريـق هـروبي، بيدهـا تيشـيرت تُخرجـه مـن كيسـه، أبيـض منقـوش عليـه بخطـوط عربيـة جملـة "كُـن مـع الثـورة"، تقيسـه الفتـاة الواقفـة أمامهـا، يصـل إلى ركبتيهـا فتناولنـي طنـط دعـاء كيسًـا آخـر.

- ما يصحش كده الإهانة دي يا أستاذ رامي! عايزين تقولوا يعني ان الثورة مافيهاش بنات محافظة على رشاقتها؟

فاجأني سؤالها، ولكن قبل أن أسألها عن علاقتي بالأمر، فتحت الكيس فرأيت ختم مصنعنا على ياقة التيشرت. هزتني المفاجأة، نشوة سريعة قالت لي إني أخيرًا وصلت إلى سر لغز مصطفى، وسرعان ما انطفأت تحت حقيقة أني وصلت إليه بعدما ذهب ولم يعد لفك اللغز معنى. مصطفى كان سيجلس معنا في الميدان، بالتأكيد معه كان سيختفي كل هذا القلق. كيف اتبعت طريقه دون أن يدلني عليه؟ وما جدوى كل هذا إن لم يكن لصنع نسختي، نسخة لا تنتهي بعزاء بارد مثلما انتهى؟ وأنا أخرج من الميدان تذكرت أني لم أسلِّم على ندى، ولم أحس بأن هذا شيء هام. قلت سأنام في سيارتي، غدًا سأذهب بها إلى المصنع، حتى لو كلفني هذا أن أنزل منها كي يشمني كلب بلدي.

t.me/qurssan

27

ـ هو احنا بنطبق الحد الأدنى للأجور يا عم صدقي؟

ـ آه بنطبقه، وبنكويه كمان!

تمام، عم صدقي مشكلة. أعترف أن في نيتي دائمًا تجاهله. والحقيقة أنني أصل دائمًا إلى نقطة لا ينفع معها استمرار أي شيء دون أن يُحكى عن عم صدقي فيه، ومهما أردت، لا أتمكن من العبور عليه سريعًا بجملة أو اثنتين. تبسيطًا للأمور يمكن القول إنه ذراع، ذراع يمنى ورثها مصطفى من المالك القديم للمصنع، بعد أن أعجب بمذاق قهوته عند توقيع العقد، ثم وجد فيه ذكاء وقدرة عالية على تصنيف الورق المتناثر طبقًا للأهمية، فرقَّاه ليصبح مشرفًا على العمال، ومن هنا تطور عم صدقي حتى أصبح وصفه بذراع يمنى بخسًا لحقه، أصبح أقرب لكتف يمكنها أن تميل بالجسم كله. دون مسمى وظيفي

واضح، توالى عليه مديرون ومهندسون ورؤساء أقسام، لم ينجح أحدهم في زحزحته من مكانته، يعملون ويرحلون ولكنه يحل أي شيء، بدءًا من كل تفاصيل العمال حتى مشكلات تأخر التوريد للشركات الكبيرة. حضرت هذا بعيني، كانت تأتي المشكلة أيًّا كانت، في اليوم التالي كان عم صدقي يدخل مكتب مصطفى فخورًا ثم يقول:

- حصل يا ريس.

دوره في النهار لم يكن أهم أدواره، فأعتقد أن أهم ما يميز عم صدقي هو عدم زواجه، أو على الأقل لم نرَ له عائلة، ما منحنا وقته اللا نهائي وطاقته التي لا تنضب. حين أقول مثلاً إني كنت في رحلة سفاري مع مصطفى، فهذا يعني في أغلب الأوقات أننا نمنا طوال الطريق بينما كان عم صدقي يقود بنا، وحين أقول إننا شوينا لحمًا هناك، فهذا يعني أننا وضعنا لمسات أخيرة عليه بعدما تبّله عم صدقي وجهز له النار وقلّبه على جوانبه. كان دائمًا وجوده الخفيف ممتعًا، هدوؤه الدائم واستجابته السريعة لنغمة الرحلة، إذا شعر أننا نرغب في الضحك فبإمكانه أن يسترسل لساعات في إلقاء النكات. متسامح أيضًا، أو أظن هذا، يمكنه أن يقبل بسهولة امتداد سخريتنا إليه لساعات أخرى دون أن يبدي أي ضيق. أذكر أن في البداية كان وجوده يربكني، وكنت أحاول بذل مجهود تجاهه، ولا أنساه أبدًا في أي سفر مع مصطفى إلى أي مكان خارج مصر فأعود له بالهدايا، وأفكر كثيرًا قبل طلب أي شيء منه، ولكن كان رده الدائم بـ"ماحدش يتكسف من عم صدقي"، هو ما

t.me/qurssan

استجبت له، فاستسلمت ليكون هو صديقي الذي يتولى كل تفاصيل حياتي اليومية، يتابع صيانة سيارتي ويذهب بها إلى المرور لتجديد الرخصة، يشرف على النقاشين حين أريد تغيير لون دهان الغرفة، ويحجز لي تذاكر السفر ويتولى مشاوير الجامعة لإصدار شهادة تخرجي، وفي مرة عاد لي بتليفوني سليمًا في ساعتين بعد أن كُسرت شاشته.

وأنا أدخل المصنع ذلك اليوم زارتني الفكرة المزعجة نفسها التي جاءت لي يوم عزاء مصطفى، موت عم صدقي قد يُفسد حياتي أكثر من موته. وقلت إني قد أكون أتيت لهذا السبب، أن أطمئن على بقائه حيًّا، يتولى حماية المصنع من الانفلات الأمني دون إزعاجي بالتفاصيل، كي أتمكن من مواصلة مغامرتي في الميدان شاعرًا باطمئنان.

عند البوابة زال قلقي من خطبة الشاب النحيف بالأمس، عن وجوب أن تخرج الثورة من حيز الميدان لتساعد الإضرابات العمالية المتوقعة، بل ووصل به الأمر إلى اقتراح شيء أسماه الإدارة الذاتية للمصانع، فهمت أنه يعني طرد العمال لمُلاك المصانع كي يتولوا إدارتها بأنفسهم، فتراجعت عن الفكرة التي أتيت بها، أن أكون صاحب العمل النبيل الوحيد الذي سينفذ مطالب العمال قبل طلبهم لها، وتخيلت في هذا حلاً وحيدًا للإبقاء على صداقاتي الجديدة بحد أدنى من المعلومات يعرفه أي أحد عني.

دون أن أفعل كل هذا، رحبوا بي بشدة، وبداخل المبنى كان عم صدقي في انتظاري بمكتبه الذي كان يجب المرور عليه

لتصل إلى مكتب مصطفى. بعد حضن طويل أخرج مفتاحًا من الدرج، فتحنا به مكتب مصطفى، فقفزت الدموع في عيني صدقي على الفور. استغربت نفسي، كنت متماسكًا كأنه مشهد عادي. جلست على كرسي رئيس مجلس الإدارة فوجدته أكثر راحة من كرسيَّ.

- يا أستاذ رامي مرتبات ايه اللي تزيد؟ المصنع واقف أصلاً. بعدين صنف العيال دي أنا عارفه كويس، هتدي له جنيه زيادة، بكرة على طول مش هيشتغل غير لما ياخد تلاتة. بعدين هو حد اشتكى لك؟

فهم على الفور انزعاجي من لهجته الحادة فانصرف بهدوء، وكنت بالفعل قد حاولت تذكر كلمات من الميدان لأرد بها، ولكنني لم أجد ما قد يُقنع صدقي الذي بدا غيورًا على أموال العائلة بشكل لا يمكن الجدال معه. لم تمر دقائق لي في المكتب، إلا وانتابتني رغبة في التفتيش في تفاصيله، أفتح الأدراج والدواليب المليئة بالكتالوجات والأوراق، ولا أجد تفاصيل تثير الانتباه بجانب الأوراق، مقص للأظفار، معجون أسنان، بعض الأدوية، إلا أن يقع في يدي ملف مبيعات الشركة، "كن مع الثورة"، لم أجد أي شيء يخص طنط دعاء.

تخيلت أن عم صدقي بالتأكيد يعرف، وفكرت أن أنادي عليه قبل أن أجده يدخل المكتب معتذرًا بطريقته الخاصة، حاملاً في يده صينية فوقها كوب قهوة وكوب مياه.

- قهوة عمك صدقي، أحسن من القهاوي بتاعتكو.

t.me/qurssan

شعرت أنه يختار مفرداته كالعادة بعناية، وأن وصفه نفسه بعمي، وليس عمًّا في المطلق، شيء أراد به تثبيت شكل علاقة كانت بحاجة إلى إعادة ترتيب بعد وفاة الرجل الكبير، ولم أشعر أنني أريد إثبات سلطة أمامه ما دمت أحتفظ بمزايا العلاقة، ومن أهمها مذاق قهوته.

- إنت تعرف مين دعاء نصر دي؟

ابتسم وهو يلمح الملف في يدي بعينيه الذكيتين، ثم قال إنه لا يعرف الكثير. يعرف أنها تعمل في مجال السينما والإعلانات، وأنه بين الحين والآخر كان مصطفى يكلفه بتوصيل بعض الصناديق إليها بنفسه دون دخولها في سجلات المصنع، وأنها سيدة محترمة كانت تعامله بمنتهى اللطف، ولكنه لم يكن يعرف كيف كانت تدفع مقابل هذه الصناديق. ثم قال لي إن الوحيد الذي يعرفها عن حق ومن الممكن سؤاله مهندس في مصنعنا اسمه باسم، لأن مصطفى كان عادةً يكلفه بما يتعلق بطنط دعاء. وحين طلبت منه أن يأتي به إلى مكتبي، وجدت عم صدقي يسبه ويقول إنه لا يفهم كيف احتفظ به مصطفى في المصنع رغم غيابه المتكرر ومشكلاته الدائمة.

- لما يحن علينا الباشا وييجي هاجيبهولك.

كان لدي يقين بأن عم صدقي في مرة فتح هذه الصناديق، إنما كنت غير مستعد لأن يهزمني في جدال عن جدوى ما يحدث في التحرير، خصوصًا بعد هزيمتي السريعة في نقاش أجور العمال فلم أزِد في الأسئلة. سلمت عليه قبل مغادرتي، بعد وعد مني بأن أمر على المصنع بين الحين والآخر لأوقع

على الأوراق الإدارية، وعند البوابة تزاحم العمال حول السيارة لتحيتي. أتخيل أنني سمعت أحدهم يقول: "ماعلش يا باشا، أيام وسخة وهتعدي ونشتغل أحسن م الأول"، ولكن كذبت أذني بعد دقائق من قيادة السيارة وشعرت بحاجة إلى النوم على سريري بعض الوقت، لأفكر كيف سأسرق فيديو الشخير من كاميرا هدير.

لم يستغرق الأمر أكثر من يومين نمتهما كاملين في البيت، حتى اضطر عم صدقي إلى أن يكون حوارنا على المكشوف. كان صوته قلقًا في الهاتف، كأنه فجأة أمام مشكلة يعترف بعجزه عن حلها. أراد أن يحذرني من الذي عرفه، أكثر من رجل أعمال في المنطقة يشحنون الآن عمالهم لضرب المعتصمين في التحرير. لم أسأل شيئًا ولكنه أكد لي أن عمالنا في موقعهم بالمصنع، وحين لم أعلق لم يرد إغلاق المكالمة دون نهاية درامية:

- إنت زي ابني يا رامي. والنبي تخلي بالك.

ارتديت الأقرب ليدي وجريت إلى خارج البيت، متلهفًا لتحذير الأصدقاء دون أن أكلمهم على الهاتف، حتى ولو كلفني هذا أن أنضم عندهم إلى مجموعة الأغنياء التي كانت حواديتهم دومًا مثارًا للسخرية. لِمَ أهتم؟ لم أكن أعرف، ورغم هذا، شيء ما كان يحثني على حمايتهم، وأن هذا أعلى شيء قيمة يمكن أن أفعله في حياتي.

عند وصولي إلى الميدان كانوا قد عرفوا بالفعل. ليس هم فقط، بل كان الميدان كله محاصرًا، ممتلئة أطرافه بالمعتصمين، وكان بالفعل قد بدأ أول اشتباك مع المهاجمين بالقرب من

t.me/qurssan

المتحـف المـصري. كان المشـهد مرعبًـا مـن بعيـد، لم تقفـز لي فكـرة أبنـاء الوطـن سـواء وهـذا الهـراء، ولكـن بالفعـل، كلنـا نرتـدي الألـوان نفسـها، كيـف يمكـن لأحـد أن يتأكـد مـن انتصـاره؟ قليلـون فقـط كانـوا بـين المداخـل والصينيـة، يشـاورون عقلهـم مـع نـداءات المنصـات التـي كانـت تتنقـل بـين صرخـات تدعـو الـكل للتكتـل عند المداخـل لحمايـة الميـدان، ومنصـات أخـرى تركـت ميكروفوناتهـا لعبـد الحليـم حافـظ يغنـي "أمـوت أعيـش مـا يهمنيـش"، كل هـذا خلفيـة لضجيـج خبـط الطـوب بالحديـد الـذي كان يـرج الميـدان، فيرعبنـي بقـدر مـا يُفـترض أن يرعـب الغـزاة.

- يلعن أم العالم التالت!

قلـت لنفـسي وأنـا أتجـه إلى الأصدقـاء الذيـن كانـوا مجتمعـين في الصينيـة. كـم أكـره هـذه الأيـام، أن تكون الاختيـارات بهـذا التطرف، أن تُقحـم بـين اختياريـن يفرضهـما عليـك وجـودك في المـكان نفسـها مـع هـؤلاء المجانـين، إمـا أن تكـون شـجاعًا حتـى المـوت، وإمـا أن يُسـمى اختيـارك لأن تعيـش جُبنًـا لـن تسـامح نفسـك عليـه. لِمَ ليـس هنـاك هـذا الموقـف الشـجاع الـذي لا تضطـر في إلى أن يدفـع جسـدك ثمنـه؟ لِمَ لسـت الآن مـع أنجيـلا؟ لعلّنـا كنـا لنتضامـن في وقفـة سـلمية أمـام السـفارة، منـذ متـى أصبـح هـذا فعـلاً ناقصًـا، إن لم يكـن جبانًـا؟ ولكنـي مـع طنـط دعـاء ووجههـا المذعـور:

- التليفزيـون بيقـول دي خناقـة مواطنـين مـع بعـض. لازم حـد يطلـع ع التليفزيـون، ده أهـم دلوقتـي مـن أي حاجـة!

لم يعلـق أحـد مـن الأصدقـاء، وحـين زادت مـدة الصمـت عـن المتوقـع تأكـدت مـن أن لا أحـد سيرشـح نفسـه للمهمـة الأكـثر

أمانًـا، فرفعـت عـن الجميـع الحـرج مقترحًـا أن تذهـب طنـط دعـاء، وبـررت بأنهـا أكبرنـا سـنًّا وأكثرنـا خـبرة، ولكـن اقتراحـي قوبـل بصمـت أطـول لم يكـن يناسـب الصخـب المحيـط بنـا، وحركـة الميـدان النشـطة في اتجـاه المعركـة عـلى حـدوده، هـذا قبـل أن تنقذنـا طنـط دعـاء وهـي تشـير إلى مـا لـن يجـرؤ أحـد عـلى قولـه:

- ده انا ولا اكل ولا اشرب، بس ما اطلعش ع التليفزيون.

فهمـت كـم كان غبيًّـا الاقـتراح، فضحكـت مـع الأصدقـاء حتـى تصـدر الدكتـور جـاسر مُعلنًـا عـلى اسـتحياء:

- أنا ممكن اروح. مافيش مشكلة.

ولكـن الغضـب الـذي ظهـر عـلى وجـه فريـدة كان كفيـلاً بـأن يتجاهـل الـكل كلامـه، حتـى أنقذتنـا طنـط دعـاء مـن جديـد:

- هدير تروح، الثورة محتاجة مزّة تعبر عنها يا جماعة.

في هـذه المـرة لم تغضـب هديـر مـن المهمـة الموكلـة إليهـا، بـل دخلـت خيمتهـا عـلى الفـور وخرجـت مسـتعدة بشـنطتها قبـل أن توقفهـا فريـدة.

- مش هينفع تتحركي بتاكسيات. البلد والعة.

- رامي هييجي معايا.

لم يعلـق أحـد، يُحتمـل أني رأيـت طنـط دعـاء تبتسـم. كنـت سـعيدًا في كل الأحـوال، واعـدًا نفـسي مـع عـودة أنفـاسي لي وأنـا أخـرج معهـا مـن المخـرج الوحيـد الـذي لم يهاجمـه أحـد بعـد، لـن أسـمح لنفـسي بـأن أنـام في وجودهـا الليلـة.

t.me/qurssan

28

أدهشني فرط خيال كثير مما قرأت عني في كومة الجرائد، ولكن الشيء الوحيد الذي أضحكني كان صورة لوقفة صامتة من أجلي على كوبري قصر النيل. طابور طويل من الناس رأيت في وسطه هدير كأنها كانت تبكي، وكان بجوارها أيضًا الرجل الذي رأيته معها في المشرحة، ودون أن أسأل يمكن بسهولة أن أطلق عليه رجلها الجديد، ودون أن أحرك الصورة يضحكني بؤس هذا الرجل الذي من المؤكد أنه سيحتضنها بعد الوقفة، لأنه يظن أنها منكسرة. هدير لا تنكسر. سأصدق أي شيء، حتى موتي المزعوم، إلا هذه الكذبة الفجة. صحيح أنني أتفهم كيف يُظن من ليونتها أنها قابلة للثني، ولكن هذه خدعة تُخفي من تحتها حديدًا صلبًا، وله رماح مسنونة

تترقب من يقترب، أو تعساء الحظ الذين سيقعون في رادارها عندما يكون حديدها ساخنًا وبحاجة إلى إطلاق رماحه.

رأيت هذا بعيني، من كواليس الإستديوهات التي أرسلتنا إليها طنط دعاء. رفضت هدير طلب مُعد البرنامج الأول أن نظهر معًا، متعللة بأننا سنقول الكلام نفسه، وتفرغت لإخراج علبة ماكياج من شنطتها دخلت بها الحمام قبل التصوير. لم يزعجني رفضها، فلم يكن لدي شيء لأقوله، وكنت أخشى أن يُفض الاعتصام فأتورط صوتًا وصورة. ما يحدث في مصر ليس حربًا أهلية بل مأجورون يهاجمون اعتصامًا سلميًا. خرج منها الكلام باللغة الفصحى في مواجهة أستاذ جامعة كرر كثيرًا أنه خائف على مصر.

ستة لقاءات، لم تقترب حتى من الهزيمة في واحد منها. من إستوديو إلى آخر كنا ننتقل في الشوارع الخالية من أي أحد بسيارتي، أشاهدها وهي تمارس قدراتها الخارقة في انتقاء رمحها، مرة في وجه عجوز غلفت عباءتها السوداء بصور حسني مبارك، برمحها المُزيّن ببعض الكلمات الإنجليزية، ومرة في صدر عضو الحزب الوطني مصحوبًا بدموع تُغرق الإستوديو خوفًا على أصدقائها المحاصرين بالميدان. أما الشاب الذي هددها بملاقاة مصير أصدقائها، فكان مصيره مؤسفًا على يد رماح الصوت العالي.

- مبارك قاتل وهنحبسه. وهنحبسك معاه!

وبالفعل حبسناه وهذا شيء مفهوم. أما الغامض الذي لا أجد له إجابة الآن، كيف انتهت بي الحال محبوسًا على أيدينا

t.me/qurssan

نحـن، في غرفـة مكتـب. بـدأت أسـئلة مثـل هـذه تتـسرب إليّ مـع مـرور سـاعات عـلى تـرك طنـط دعـاء لي، واقـتراب سـجائري مـن النفـاد. أطـرق عـلى البـاب ولا أجـد ردًا. إن كانـت حبسـتني كي أقـرأ الجرائـد فقـد أنهيتهـا. لا يمكـن أن تكـون تركتنـي كي أمـوت مـن الجـوع والعطـش. كانـت غاضبـة، ولهـا حـق، ولكـن هـي أحـن مـن ذلـك. طنـط دعـاء التـي قصدناهـا كلنـا في ضعفنـا، الأذن التـي سـمعت والصـدر الـذي احتضـن. السـيدة التـي كانـت تصحـو حـين ننـام لتلـم مـا تركنـاه وراءنـا، تبحـث عـن ذلـك في السـجون وتداوي أهـل مـن رحـل، لا يمكـن أن تقتلنـي، وكان أهـم مـا يـدور في بالهـا في خضـم المعـارك حمايتـي.

بعدمـا نزلـت أنـا وهديـر مـن الإسـتوديو الأخـير، شـعرت كأننـا عالقـان في سـيارتي ننتظـر أحدنـا كي يقـترح العـودة إلى الميـدان فيوافـق الآخـر. ظللنـا هكـذا لفـترة حتـى وصلـت عـلى تليفـوني رسـالة طنـط دعـاء الحاسـمة:

ـ ما ترجعوش على الميدان. هيتقبض عليكو قبل ما توصلوا.

نظـرت هديـر إليَّ ثـم إلى السـيارة كأنهـا تركبهـا للمـرة الأولى، وكان الغضـب التليفزيـوني لم يـترك عينيهـا بعـد.

ـ هـو احنـا مكتـوب لنـا نقـضي الثـورة دي في عربيتـك ولـلا إيـه؟

ـ شكلها كده.

ـ مممم.. مش عايز تعزمني على ويسكي؟

في دقائـق كنـا في جـاردن سـيتي كلـوب، وكنـت أراقـب هديـر وهـي تقلِّـب في حـيرة أوراق قائمـة الطلبـات المكتوبـة بالفرنسـية، ثـم جئـت أطلـب لنـا كأسـين، فوجـدت المديـر آتيًـا بزجاجـة قـال إنهـا مـن الخزيـن الـذي كنـا نتركـه عندهـم باسـم مصطفـى. أعجبنـي ذكاؤه حـين قـال إننـي تركـت الزجاجـة دون أن يذكـر أي شيء عـن الرجـل الـذي رحـل.

حـين اقترحـت عليهـا أن نذهـب إلى جـاردن سـيتي كلـوب، كنت أظنـه اختيـارًا عمليًّـا، فهـو قريـب مـن الحـرب الدائـرة في وسـط البلـد، وبعيـد عـن بيتـي الـذي خشـيت أن أدعوهـا مـرة ثانيـة إليـه، فيذكِّرهـا هـذا بزيارتهـا الأولى المُخجلـة، ولكـن مـع السـعادة التـي شـعرت بهـا والجرسـون النـوبي الأنيـق يتذكـرني ويقودنـا إلى طاولـة مصطفـى المفضلـة، أدركـت أننـي أردت أن نلعـب ولـو لمـرة واحـدة عـلى ملعبـي، متأكـدًا مـن أن المـكان مـا زال كـما تركتـه مـع مصطفـى في زياراتنـا الأسـبوعية لـه، مُخرجًـا لسـانه للطوفـان الـذي عصـف بالمدينـة، بكراسـيه الأرابيسـك الأثريـة وزبائنـه العجائـز الذيـن كنـا نحـب متابعـة خناقاتهـم الحاميـة عـن إمكانيـة عـودة الملـك فـاروق للحكـم مـن عدمـه، وعـازف البيانـو الـذي عـزف حتـى صـار جـزءًا أصيـلاً مـن ديكـور المـكان، مثـل إضاءتـه الخافتـة الصفـراء والفسـاتين القصـيرة لنسـاء البـار الـلاتي لم نقـترب منهـن أبـدًا.

هـذا كلـه لم يفلـح في تغيـير أي شيء، فبعد كأس واحـدة مخلوطة بالبيبـسي، زال توترهـا وبـدأت الأكل مـن طبـق الكاليـماري أمامهـا

t.me/qurssan

بيدها، متلذذة بإحراجي أمام المدير الذي رأيته من قبل يطرد زبائن بأدب لمثل هذه السلوكيات.

- مش فاضحاك قوي يعني انا؟ لما يبقوا هيطردونا قل لي!

- لا براحتك، ماحدش يقدر هنا يطردنا.

- طب ابعد الإزازة عني، أنا مش متعودة ع الأماكن دي وانت مش قد فضايحي!

تحديتها بملء كأسها إلى آخرها، فضحكت باستهزاء وشربتها دفعة واحدة. فكرت، سأفعل أي شيء حتى لا أعود لإحساس الكتكوت المحبوس في قفصها كما أشعر عادة. طلبت مزّة جديدة وتجنبت أن أطلب فولاً سودانيًّا، فطلبته هي. حين نزل على الطاولة، قضمت منه واحدة فقط، وشعرت بها تقف في حلقي فتبعتها بما تبقى من ويسكي في كأسي، وهي تقول:

- احكي لي بقى.

- حدوتة؟ ما باعرفش قوي.

- يا عم هو انا بنتك.. احكي لي عن نفسك كده!

كانت تأكل بنهم، ولم تكن نظراتها إليَّ تخفي فضولها، فجعلتني أدرك سريعًا سبب لقائنا، هدير لن تتركني دون أن تتذوقني، هذه الليلة التي أغلقت فيها غرفتي عليَّ تركتني غامضًا، مفتوحًا للتأويل، هدير لا تفضل فواتح الشهية، هي من قوم لا يعتبرون السلطات أكلاً من الأساس، فكرت كيف أبدو لها كستيك متوسط التسوية، ثم تذكرت حوارًا من فيلم

لم أتذكر اسمه، أجاب فيه البطل عن سؤال مشابه وهو يحرك رموشه في دلع، اسأليني، فنسخت الإجابة، ونجح الأمر.

- هو انت ليه ما بتكتبش أبدًا على الفيس بوك؟ وما عندكش صور.. إنت جاسوس ولا إيه؟

أجبت بأني أفضِّل التعامل المباشر مع بني آدم، ولا أفضل حتى التواصل من خلال التليفون والرسائل، ثم حاولت أن أبدو لها بتواضع من أخذهم الغرور إلى أقصاه، فقلت إن حياتي ليست مسلية بما يكفي لأكتب عنها.

- نصاب جدًّا.. مين البنت اللي كانت قاعدة معاك من كام يوم دي؟ صاحبتك؟

قالت وهي تضع يديها على خصرها، وفي صوتها اصطناع لدلع طفولي وبراءة، شككني هذا في قدرتي على إقناع شيئي باحتياجي إليه إن أردت، وأبديت توترًا لم أكن أشعر به.

- ندى قصة قديمة.

أحزنني اعترافي لنفسي بما وددت لو أتجاهله، لا علاقة للأمر بخفة ندى ولا اليوجا ولا السلام النفسي وكل هذا الهراء، كان فقط حماسًا غريزيًّا أردت به أن أبدو للبؤة كصيد ثمين كي تتزحزح من كرسيها، ولكن لم يستمر معي هذا الإحساس بالذنب مدة أطول من الوقت الذي ملأت فيه كأس هدير، مستعدًّا للتمادي في الكذب إن سألت عن القصة القديمة. أدركت وأنا أحدق إلى خصرها من خلف الكأس أن خيال دلع البراءة هذا كان مُضللاً، ثم أكدت لي هذا بضحكة عالية،

t.me/qurssan

فرفعــت رأسي وهــي تمــرر لســانها عــلى شــفتيها كأنهــا تمســح مــا عليهــما مــن ويســكي.

ـ ده انا كنت ابتديت أشك انك مالكش في الستات.

ليــس فقــط لأني أغلقــت عــليَّ بــاب الغرفــة يومهــا بالمفتــاح، وهــو شيء ذكرتــه دون أن تــبرر كيــف عرفتــه، ولكــن منــذ لقائنــا الأول، كيــف بــدوت لهــا قلقًــا وهــي تجــرني إلى الــكلام في بيــت فريــدة، ثــم تأكــدت شــكوكها حــين رأتنــي أتجنــب النظــر إليهــا وهــي مرتديــة قميــصي. قصــة كاملــة مُحكمــة، حتــى بعــد هــذا اليــوم المُخجــل، كانــت تفــسر انعقــاد لســاني أمامهــا في صينيــة الميــدان بعــدم رغبتــي في أن أكــون ســخيفًا معهــا بعــد ملاحظــة إعجابهــا بي، والفــترة التــي كنــت أراقبهــا فيهــا عــن بُعــد متخيــلاً أننــي مهــووس بشــخص بالــكاد يذكــرني، لخصتهــا مــن ناحيتهــا في جملــة واحــدة:

ـ أنا قلت اسيبك في حالك بقى.

كأني كنــت أحلــم بهــا وهــي تحــكي. أفقــت مــع انتهــاء الزجاجــة، يقظًــا ومنتعشًــا بعــد نومــة طويلــة هانئــة، لأجدهــا وقــد شــحب وجههــا ووهنــت كتفاهــا فمالــت بيدهــا عــلى الطاولــة، تاركــة الويســكي يتكلــم بصوتهــا.

ـ إنت لسه بتحب فيلم تيتانيك؟

خــرج الســؤال مــن فمهــا وابتلعنــي عــلى الفــور. تأخــرت في الرد لأن المســافة كانــت شاســعة بــين الاحتمالــين، إمــا أني أحــضر لحظــة ميــلاد أســطورتي مــع هديــر ونحــن نكتشــف أننــا نحلــم الأحــلام

نفسـها، وإمـا أني بـين شـخيري الـذي سـجلته بكاميرتهـا تكلمـت في نومـي كالعـادة وهـي لا تفـوت فرصـة لإحراجـي. قلـت ردًّا آمنًـا:

- مش فاكره قوي.

لا هـذا ولا ذاك، رفعـت هديـر رموشـها كعادتهـا وهـي تُحـضر لقـول شيء فـج:

- فيـه إيـه يـا عـم؟ باسـألك عشـان دُسـت لايـك عـلى حاجـة كتبتهـا عنـه زمـان.

بقـدر مـا كنـت مُحرجًـا، وجـدت عـلى وجهي ابتسـامة، سـعيدًا بأسـطورة صغـيرة بـين أحلامـي وفيلـم مراهقتهـا، وكان بإمـكاني أن أحرجهـا بـدوري، خصوصًـا وذاكـرتي الحديديـة تتذكـر قعـدة كانـت الشـلة تسـخر فيهـا مـن الفيلـم وورومانسـيته السـاذجة، وكانـت هديـر مثـلي صامتـة، بـدلاً مـن ذلـك ذهبـت إلى الحـمام وغسـلت وجهـي وأنـا ألهـث كأني كنـت أجـري في مـكاني طـوال القعـدة.

وأنـا أعـود إلى الطاولـة كانـت هديـر ترمـي كأس ويسـكي جديدة في حلقهـا عـلى دفعـة واحـدة. جلسـت فأنزلـت الـكأس بقـوة دراميـة تناسـب اعترافهـا الـذي لم تقابـل عينـي في أثنـاء حكيهـا لـه:

- أنـا شـاكة اني حلمـت بيـك. مـش متأكـدة انـه كان انـت، ممكـن صدفـة عشـان موضـوع اللايـك ده.

ولكنهـا متأكـدة أنهـا في يـوم قريـب حلمـت بأنهـا تمثـل دور كيـت وينسـلت في فيلـم تيتانيـك مـع شـخص آخـر، مُرغمـين عـلى دور البطولـة، وأنهـا اتفقـت معـه في الكواليـس عـلى إفسـاد يـوم التصويـر بـأن يغنيـا أغنيـة غـير أغنيـة الفيلـم، وأنهـا منـذ حلمـت

t.me/qurssan

بهـذا صـارت كلـما تـراني تعـصر دماغهـا محاولـة التأكـد مـن أني كنـت هـذا الشـخص، والأهـم أنهـا لا تتذكـر الأغنيـة، وأن هـذا كابوسـها الأعظـم، أن تنـسى أي شيء، متمنيـة المـوت قبـل العجـز بكامـل ذاكرتهـا.

ابتـزني الضعـف في عينيهـا، فجـردت نفـسي مـن كل أسـلحتي، ووجدتنـي أدعوهـا برغبـة صادقـة إلى أن نحـل هـذه المشـكلة بمشـاهدة الفيلـم مـن جديـد معًـا، وبـرد شيء مـا فيَّ كأننـا في هدنـة عـليَّ احترامهـا، فلـم أجـدني راغبًـا فيهـا بينـما أسـنّدها لنصـل إلى الأسانسـير ثـم إلى سـيارتي، أخـذت البطاقـة مـن شـنطتها وهـي نائمـة كي أعـبر بهـا اللجـان الشـعبية، وأيقظتهـا مـع وصولنـا إلى البيـت بالمسـح برفـق عـلى شـعرها.

ربمـا أكـذب حـين أقـول إني جـردت نفـسي مـن أسـلحتي. لا أعـرف الكثـير عـن نيتـي الآن، فـما بالـك إن كنـت أتكلـم عـن حـدث فـات عليـه مـا يقـرب مـن سـنة. ولكنـي أذكـر الأحـداث، أذكـر هـذا اليـوم كأنـه لم ينتـهِ بعـد، وبالتـالي لم يضحكنـي أن أعـود اليـوم للجرائـد كي أقتـل الوقـت، فأجـد شـهادة مـن شـاب لا أعرفـه يقـول إنـه يتذكـر لقـاءه بي في موقعـة الجمـل، وأنـا أصر عـلى حمـل أحـد المهاجمـين بعـد أن أصبنـاه ليعالـج في المستشـفى الميـداني.

أود أن أصدقـه، ولكنـي كي أكـون صريحًـا لا أعتقـد أني لـو عـاد بي الزمـن كنـت سـأخرج مـن بيتـي وبـه هديـر. كنـت أهتـم فعـلاً بالموقعـة. عندمـا وصلنـا إلى البيـت، فتحـت التليفزيـون لأتابـع الأحـداث، وفتحـت لهـا الـلاب تـوب لتبحـث لنـا عـن فيلـم تيتانيك. كانـت عيناهـا يقظتـين حتـى إننـي شـككت في ادعائهـا النـوم في

السيارة، وفي صدق حكاية حلمها من الأساس، ولم يكن واضحًا في التليفزيون أي من الطرفين أوشك على الانتصار؛ أصدقاؤنا المحتمون بالحواجز عند المتحف المصري أم قاذفو كرات اللهب من فوق كوبري أكتوبر.

فجأة، كأن طاقة من الجنون قد انتابت هدير، تغلق صوت التليفزيون. تقفز على اللاب توب وتسحبه من يدي.

- افتكرتها!

تقوم وتقعد وأنا في مكاني، لعلّها قصدت شخصًا آخر، فمن أول صوت أدركت أنني لم أسمع الأغنية من قبل، وشيء ما حَزِن فيَّ بأن تكتشف بهذه السرعة أنني لست بطل حلمها، وقلت كلها ثوانٍ وستعود هدير وتبدأ سن الرماح من جديد قبل أن أوقظ أيًّا من أسلحتي للدفاع عن نفسي، ولكنني وجدتها تقترب مني أكثر، تغني ورائحة الفول السوداني تغمر أنفي بالملح.

- قوم نحرق هالمدينة ونعمر واحدة أشرف!

أتذكر كل شيء، دون ترتيبه. اقتربت من شفتَي ولما اقتربتُ أزاحت وجهي بأنفها، ودنت إلى عنقي تشده بين أسنانها، ثم أزاحتني بجسدها لأنام على الكنبة وثبتت يديّ خلف رأسي فاستسلمت لها، تخلع ملابسي بروقان، الجاكيت ثم التيشيرت ثم البنطلون، تمر بيدها على فخذيّ برفق فينتصب شيئي، تشاهده ولا تلمسه، ثم بلسانها على سرتي، ثم بأسنانها تقضم حلمة صدري فأرتجف من لذة مؤلمة، أتأوه لها قليلاً فأخجل

t.me/qurssan

من ضحكتها، وينتابني قلق من أني لا أتحرك فأحرر يدي، أمر بها على ظهرها وحين أقترب من فك حمالة صدرها أتعثر، فتمسك بيدَيّ وتعيدهما إلى خلف رأسي مع نظرة حازمة.

- قوم ننسى هالزمان ونحلم بزمن ألطف!

تقوم من عليّ، أشاهدها تخلع ملابسها ببطء الأغنية، سارحًا في خطوط الجلد الخفيفة الشاردة في جنبيها وتحت صدرها، أتخيلها تصل بالوشم في ظهرها لتكشف سر الخريطة ولكنها لا تستدير لأرى، تقفز فوقي تلتهم كل ما فيّ، كأني آخر ما ستأكل، ثم أفقد رؤية أي شيء سوى وجهها، وحين تعلو به قليلاً فيصبح فمي مقابل صدرها، تعيد رأسي إلى الوراء دون أن أذوقه.

- ما زالك بلا شي ما فيك تخسر شي، وأنا مليت من عشرة نفسي .

تعود بظهرها فأسمع أخيرًا الأغنية، تمسك ببنطلوني وتفتش في جيوبه متأكدة من احتفاظي بواقٍ ذكري في أحدها. لا أعرف الآن أيهما أدق، من دخل من؟ لم أكن أحرك جسدي، كنت متجمدًا على ظهري ولكن بشيء منتصب أمسكت به هدير دون أن تنظر إليه وأخذت تمرره عليها، كأنها تبحث عن ثُقب لفيشة كهرباء في الظلام، أوصلته فشعرت بلسعة ثم فقدت الاتصال به، وشاهدتها تستخدمه لتتحرك فوقه وعيناها مغلقتان، بنغمة لم أعرف إن كنت مصدرها أم الأغنية، وبيدها تتحرك مع شيئي تنافسه على من فيهما سيؤتيها نشوتها.

- كان بدي غيّر العالم مش عارف كيف العالم غيّرني.

بدا كأنها لم تنتبه لانتهائي داخل الواقي، ربما لم يكن مهمًّا، بعد ثوانٍ كان قد انكمش خارجًا منها تاركًا إياها مع يدها، تكمل بنفس النغمة، فصار كل ما أشعر به هو احتكاك ركبتيها بفخذي، حركة باتت مع التكرار روتينًا سمح لي بأن أحدق إلى السقف كأني أكتشف النجفة المعلقة، حتى مالت عليَّ لتستعير يدي، تحركها فوق صدرها، ثم تحشرجت أنفاسها قليلاً وانتهت وهي تفتح عينيها، ثم تذكرتني قبل أن تنام بجواري بقبلة على خدي، نظرت إلى ظهرها ولم أندهش أن الوشم لطائر، ليس به جديد سوى أن جناحيه مفرودان بشكل غير ممكن.

- كان بدي أحمل السما وهلأ أنجق حامل نفسي.

فشلت في أن أغلق عيني. جلست أشاهد المعركة الصامتة في التليفزيون، منزعجًا من الأغنية التي بدت أنها ستتكرر دون نهاية، ولكن لم أرد أن أتحرك فأوقظ هدير. كيف لم أشعر بشيء؟ أي شيء؟ أتأملها، هذه الجميلة، رجل شرقي ينقصه قضيب. أمرر يدي عليها كأني مراهق يسرق سيارة الأب النائم دون خطة سوى مخالفة أوامره. وطاولة البلياردو؟ هذا لم يتم، لا يمكن أن يكون قد تم بهذا الشكل، وهذه الأغنية مزعجة، لن أغنيها أبدًا.

أفاقت هدير على حركتي وأنا أغلق اللاب توب، لم يكن هامًّا فقد صنعت لنا النغمة بنفسها، استعارت من جديد شيئي، وانتهينا هذه المرة في اللحظة نفسها، كأننا صديقان

t.me/qurssan

تقابلنـا ليستكشـف كلّ منـا عضـوه أمـام الآخـر، انهـد جسـمي ونمـت.

أفقـت فلـم أجدهـا بجـواري، وبينـما أفـرك عينـيّ ظهـرت فوقـي مصوبـة باتجاهـي كامـيرا هاتفهـا، أفـرد كتفـي بسـعادة تليـق بـأن أُعلـق شـهيدًا عـلى حوائـط وسـط البلـد، تلتقـط هديـر صورتهـا ثـم ترحـل، أفتـح الأغنيـة وأسـتمع لهـا وحـدي، وأكتـب أخـيرًا عـلى الفيـس بـوك، ثـم أنتظـر أن تكتـب أي شيء، حتـى أن تُكمـل الأغنية:

- قول اني منيح.

t.me/qurssan

29

لم أقـل أي شيء حـين فتحـت طنـط دعـاء البـاب، لا شيء مـما كنـت أجهـزه عـن تراجعـي عـن فكـرة السـفر والاعتـذارات المتتالية، ولم يكـن هنـاك شيء يقـال. حضنتنـي طنـط دعـاء وكان العجـز في عينيهـا يقـول كل شيء. في الطُرقـة مشـيت وراءهـا، تجرنـا أقدامنـا، كأننـا نُسـحب في اتجـاه قـوة هائلـة مـن العبـث مقاومتهـا، ولم أنتبه إن كانـت أقفلـت عـليَّ بالمفتـاح وهـي تغـادر غرفتـي الجديـدة أم لا، ولكننـي لم أحـاول فتـح البـاب. فقـط نظـرت إلى الأكل وزجاجـة الميـاه والبـاب الـذي فهمـت أن وراءه حمامًـا، ورميـت نفـسي عـلى السريـر بعينـين مفتوحتـين.

بعـد أكلي لـكل مـا تركتـه لي، نجحـت في أن أغلـق عينـي، ولكـن ليـس عـلى السـواد الـذي كنـت أنتظـره كي أنـام، بـل كأن مـا قـرأت في الجرائـد كان يخـترق جفنـي، فمـع كل غمضـة عـين أشـاهده،

صور الوقفة والمسيرة والمؤتمر الصحفي، وصورة مدرج النادي الأهلي في مباراته أمام الإسماعيلي والجماهير ترفع صورتي، الصورة نفسها التي رُفعت في حفل تخرج الجامعة الأمريكية دفعة الشتاء، وفي أثناء امتحانات كلية الحقوق جامعة القاهرة، بل وفي أثناء حفل غنائي بدار الأوبرا، صورة الابتسامة التي لا أعتقد أني ابتسمتها. والتقارير التي كانت تنقل خبرًا عامًّا مثل "إقامة ندوة عن المختفين منذ يناير هذا العام"، ثم تقول إن عددهم "طبقًا لما جُمع يفوق الألف مواطن"، ثم لا ينتهي الخبر دون أن يكون جديرًا بالذكر أنه "ما زال مصير الناشط رامي مصطفى مجهولاً".

فتحت عيني واعترفت لنفسي بأني أحب ما أنا فيه، بل وأني لا أريده أن ينتهي. أين كنت سأجد ميتة أجمل من هذه؟ وماذا أريد عيشه كي أضحي بهذا الخلود البديع من أجله؟ أنا من عشت في انتظار لحظة سحرية مثل هذه، واعتبرت كل ما أعيشه دهونًا زائدة أحشو بها الأيام، حشرجة صوت استعدادًا للغناء، متيقنًا من وجود هدية ما مخبأة لي ليس عليَّ البحث عنها، في انتظار اللحظة التي سيلتقطني فيها شخص ما دون سياق فيكتشف فيّ موهبة نادرة لا أعرفها، أو أن يصير فجأة كل حجر ألمسه ذهبًا، وأن أجد حب حياتي على سريري دون عناء البحث عنها. ولكن، أن أموت وأنا حي، لا موهبة في هذا ولا بداية، وهذا كله مؤقت وسينقلب. كنت هناك ونحن نصنع أساطيرنا، هذا الشهيد الذي وجدنا في جيب بنطلونه إيصال ابتياع احتياجات للمستشفى الميداني بثمن راتبه لشهر كامل،

t.me/qurssan

وصاحب الخط الجميل الذي حين مات أطلقنا عليه لقب الشهيد الفنان، قبل أن نكتشف أنه عامل نقاشة، والشهيد البورسعيدي المجهول الذي سافرنا مع جثمانه ففوجئنا بمئات الشبان في استقباله مودعين قائدهم المحلي، وهذه الشهيدة التي قلنا إنها ماتت بالخطأ وهي تعبر من ميدان التحرير، وحين زرنا بيتها وجدنا فيه كشوفات لا حصر لها من أسماء المساجين ومواعيد زياراتهم وأرقام أهاليهم.

وجدتني ألحم السجائر ببعضها، وأنا ألف حول نفسي متخيلاً اللحظة التي سيدخلون فيها بيتي بحثًا عن شيء يطعمون به الأسطورة. هناك سينتهي كل هذا. عندما يجد أحدهم بين أوراقي رسمة لبودي عاريًا وسهام حادة تخترق مؤخرته. من سيسرب الخبر الهامّ عن كريمات تفتيح البشرة وإزالة بثور الوجه التي سيجدونها في حمامي؟ بالتأكيد لن تعوقهم كلمة السر لفتح اللاب توب، مغرورة هدير بما يكفي كي تعتقد أنها أرقام عيد ميلادها، وأكره كم ستحب صحة اعتقادها.

والله العظيم كان هذا كله عابرًا، غير هامّ، الفضول وحده قادني إلى أن أشاهد كيف يكون الجنس بين رجلين، وبالفعل كنت فقط أود أن أعرف كيف يغوي بودي النساء، حين أنشأت هذا الحساب الوهمي وكلمته كأنثى. ولكن كيف سأفسر تلك الصور التي كنت أزوِّرها يوميًا لصديقاتي اللاتي ادعيت كثيرًا أنني لا أهتم بهن؟ وهؤلاء الذين قتلت أسماءهم بحثًا، ثم قابلتهم بعدها بأيام وتظاهرت بأني لا أتذكر أسماءهم؟ كيف سأمنع السخرية حين يُكتشف أنني كنت أحيانًا، من باب

الملــل، أبحــث في جوجــل عــن "كيــف تكــون إنســانًا ناجحًــا في عـشر خطـوات؟"، و"عـشرة تمرينـات للتخلـص مـن دهـون البطـن"، و"عـشرة أفعـال تحبهـا النسـاء في الجنـس"، و"عـشرة نـكات تُضحـك النسـويات"؟ والأهــم، كيــف يمكــن تبريــر أننــي كنــت كل يــوم أبحـث في جوجـل عـن اسـمي، إن كنـت لا أعـرف كيـف أبـرر هـذا لنفـسي؟

أوقفــت ســيل الخيــالات المخجلــة بقــرار، أن أعــود إلى الحيــاة قبـل أن يصـير النبـش فيَّ مُباحًـا. لـولا هـذه الحقيقـة السـخيفة التـي كنـت أعـرف أنهـا تقتـل طنـط دعـاء في الصالـة، أننـا نلقـي بالطـوب فـلا يجـب أن يكـون بيتنـا مـن زجـاج، بـل وإن بيتنـا إن وقعـت منـه طوبـة واحـدة سـينهار كلـه، وأن لا أحـد يصـدق القصـص دون أن يصـدق أبطالهـا. ثـم حـضرت الكابـوس في لحظـة ولادتـه وأنـا أعـرف أنـه سـيلاحقني، إن عـدت حيًّـا سـتصير حقيقـة أن هنـاك بنـي آدم وراء الشـمس، نُكتـة سـخيفة سـنظل نكررهـا.

اهـرب يـا رامـي، اهـرب ولا تعـد أبـدًا، ظللـت أردد وأنـا نائـم عـلى السريـر، تؤلمنـي معرفتـي بقـدرتي عـلى النهـوض مـن مـكاني وكـسر البـاب وإبعـاد عجـوز في خمسـينها عـن طريقـي. ولكـن، مـاذا بعـد الوصـول إلى الشـارع؟ بـلا شيء سـأكون، بـكل صراحـة بـلا أمـوال ولا جـواز سـفر، لا أعـرف عـن ميـت ذهـب مـن قبـل إلى بنـك أو مطـار، وهـذه الغرفـة فجـأة أصبحـت تضيـق عـليَّ بمـا يليـق بزنزانـة.

t.me/qurssan

30

قوم نحرق هالمدينة...

لم تكتب هدير أي شيء على الفيس بوك طوال النهار، ومع ذلك قضيته أغني، وتحت الدش قلت لنفسي إن ما فعلته بجسدي ليلة أمس معها، أيًّا كان تعريفه، فيه شيء جميل. أمام المرآة، كنت خاليًا من آثار رائحة الفول السوداني، وسألت نفسي للمرة الأولى: هل أنا جميل؟

نشوة ذلك الصباح، ومضة اشتعلت وعندما دخلت الميدان انطفأت. عبرت احتفالات الانتصار على غزاة أمس وجِمالهم، فوجدتني في الصينية أحضر احتفال الأصدقاء بانتصار أصغر، عودة صديقهم خالد الذي هبط علينا من المطار بشنطة سفره، ليتلقى التهاني على الجائزة التي حصل عليها فيلمه من مهرجان ما في إسبانيا. انقبض قلبي قبل أن أعرف السبب. خالد

غـير الجميـع، في حضنـه أرى هديـر لا تـشرد في هاتفهـا، وتسـكن طاقتهـا، فـلا أرى خيطًـا تمـده لأحـد بنظـرة أو ضحكـة عاليـة. قدمتنـي إليـه باسـمي فقـط، رامـي، ولم تقدمـه لي، وغـادرا الصينيـة بعـد سـخرية الشـلة مـن احتياجهـما إلى سـاعة خاصـة، وإلا سـتؤكد شـائعات التليفزيـون عـن الفضائـح التـي تحـدث داخـل الخيـام. قبـل أن يختفيـا وسـط الزحـام، رأيـت خالـد يمسـك الشـنطة بيـد وبالأخـرى يمسـك يـد هديـر، وسـكنني ارتيـاح مـا وأنـا أشـاهد هـذا، كأن مبـاراة أُلغيـت كنـت أعـرف أني سـأخسرها.

جلسـت طـوال النهـار في الميـدان بعينـين معلقتـين عـلى تليفـوني كأني لـن أسـمعه، أقـاوم ألا أكتـب أي شيء لهديـر، بلياتشـو في السـيرك يسـير عـلى حبـل نحيـف ولا يعـرف بعـد كيـف يكـون السـير عليـه، أنتظـر منهـا أي توجيـه، ولـو برسـالة مقتضبـة تقـول إن مـا حـدث بالأمـس، أيًـا كان تعريفـه، جميـل. لا يمكـن أن تمـر الأشـياء بهـذه السلاسـة، تخيلتهـا مشـغولة الآن في شرح الأمـر لخالد، ولم أقـدر عـلى تخيـل كيـف تكـون مثـل هـذه الحـوارات ومـاذا تكـون نتائجهـا، احتـمالات لا حـصر لهـا تبدأ مـن انفصالهـما وتنتهي عنـد ذهابهـما إلى المـأذون في الحـال. ومـاذا سـيكون موقعـي في كل هـذا؟ النـزوة التـي فجـرت كل شيء، أم الحبيـب الجديـد، أم المطب المفاجـئ الـذي نجحـا في عبـوره؟ لم أعـرف في أي موقـع أريـد أن أُوضـع. خشـيت أن أكـون الحبيـب، إلا أن لهفتـي عـلى هديـر لم تكـن تبرحنـي، لهفـة شيء لم يوجـد، مُصفـاة مـن أي حنـين. خرجـت مـن هديـر كـما دخلـت، طامعًـا في شيء متأكـدًا مـن أنـه هنـاك، شيء أكتمـل بـه، وأتجاهـل مـن أجلـه لـذة صدّقـت وعدهـا بأنهـا

t.me/qurssan

ستأتي في ليلة أخرى. أحببت أن أكون النزوة التي لن تتكرر، ووجدت في هذا مذاقًا رائقًا ومريحًا ينهي التوتر الذي أعيشه مع كل جديد يخصها. شيء واحد وجدتني أريده كأنه وحده يرضيني، أن يعرف الكل بما حدث أمس، مع أني لم أكن أطيق في الانتظار إزعاجهم، الهتافات والكلام وغناء المنصات، ولم تكن بي طاقة للهروب إلى المصنع والاستماع لثرثرة عم صدقي، ولا العودة إلى بيتي. هل أردت أن أحل محل خالد؟ بالتأكيد لا، لم أكن أحب هدير، وأشك أني كنت سأطيقها بسخريتها وغرورها أكثر من أسبوع.

سخيف أن ندى لم تأتِ إلى الميدان ذلك اليوم، فحين عاد خالد وهدير إلى الصينية لم أجد شيئًا يلهيني. لم يحدث شيء، أي شيء مما توقعت، ودُفعت فجأة إلى بؤرة اهتمام مريبة لم تسمح لي بالصمت. فريدة تحكي بين الحين والآخر عن ذكرى مزعومة جديدة لنا في الجامعة، وزوجها الدكتور جاسر يخصني بالكلام عن تفضيلاته في أنواع البيرة. رأيت مرة هدير تهمس لخالد بشيء أضحكه وهما ينظران إليّ وحاولت أن أتجاهل المشهد، ولكنني تأكدت من أن شيئًا ما يدور من اهتمام خالد المبالغ فيه، وابتسامته الأبوية وهو يسألني عن عملي ومستقبلي، وطنط دعاء التي كانت تحاول أن تشغلني بأي شيء، خصوصًا في الأوقات التي كنت ألمح فيها هدير وحدها، فأقترب منها قبل أن ينعقد لساني. ماذا حكت لهم؟ بالتأكيد هناك شيء، شيء ما حتى لو لم أكن مستعدًّا لتخيله. هذه المرة

طلبت طنط دعاء أن أجلب لها بطاطا ساخنة، نظرت إلى الزحام خارج الصينية، فقالت كأنها تودعني:

- خد وقتك!

وأنا أقفز من الصينية، شعرت بخفة لم أعهدها. نظرت خلفي إلى الشلة مُعنفًا نفسي على ما وصلت إليه، وقلت لن أعود إليهم أبدًا. وبينما أطوف مثل الجميع، وجدتني خجولاً من وحدتي. لا تنقصني يد ولا قدم ولن أعود إلى البيت. غريب كيف تبدل الميدان في لحظة وصار كل ما يحدث فيه بديعًا ويطيب النفس، رائحة اللب والشاي وحمص الشام، الخبطات الخفيفة بين الأكتاف وما تليها من اعتذارات، الإنصات إلى الحوارات التي تبدأ مع إشعال السيجارة وتنتهي معها، كم صداقة تنشأ الآن وكم حكاية عابرة تُحكى؟ بالتأكيد لم يأتِ كل هؤلاء فقط لإسقاط هذا الرجل الممل الكئيب. وبالفعل، في تلك الليلة تعرفت إلى أول أصدقائي من الميدان. كنت أدفئ يدي بكوب الشاي حين مر أمامي حاملاً سماعات أثقل من وزنه، فأوحى الترنح في حركته باحتياجه إلى المساعدة. حملت واحدة منه، وأوصلتها معه إلى المنصة الجديدة. خرجنا وعدنا أكثر من مرة مُحملين على أكتافنا، وحين انتهينا صرت صبيه الجديد في توصيل الأسلاك وضبط الميكروفونات. تبادلنا أرقام التليفونات دون سبب واضح، قال إنه يعمل في تجهيز الأفراح والمآتم وصدقت قسمه على أنه يؤجر السماعات لأهل الميدان بسعر التكلفة، ثم رحل ليتركني أسمع بفخر المتكلم على المنصة بميكروفون لا يُصفر.

t.me/qurssan

لم تكـن هـذه مجـرد لحظـة جدعنـة، بـل كانـت المفتـاح الـذي تعلمـت منـه مهـارة الصداقـات العابـرة التـي لا تحتـاج لتنشـأ غـير أننـا هنـا، وأننـا مـا زلنـا أحيـاء. في الأيـام المقبلـة، سـأتعلم كيـف ألتقـط مـن يبحـث بـين جيوبـه عـن ولاعـة فأبـدأ حـواري بتضييعي الدائـم للولاعـات، وسأسـاعد مجموعـة المهندسـين المتحمسـين لبنـاء مبولـة بالميـدان، سـأنضم إلى طابـور المتطوعـين لتأمـين مداخـل الميـدان، وأفتـش الزائريـن بابتسـامة واسـعة. سـأتطوع أيضًـا مـع الشـاب الـدؤوب الـذي يلـف الميـدان لجمـع أمـوال الإعاشـة، وبينـما نمـلأ سـيارتي بالعجـوة سـيحكي لي قصـة رسـوبه الدائـم في كليـة الطـب، لرعبـه مـن أن يُبقـي جمجمـة للتدريـب في غرفتـه. بينـما أوزع العجـوة، سـأتلقى الثنـاء مـن كبـار السـن، وفي الأغلـب سـيطول الحـوار مـع أحدهـم ينـدب حظـه لأن ابنـه لا يشـبهني في أدبي.

لا أذكـر إن كان قـد أصابنـي أي تعـب في هـذه الأيـام، ولكـن أحيانًـا كنـت أسـتغل خلـو يـدي مـن أي شيء وأمنـح ظهـري لـلأرض في أي مـكان، وفي معظـم الليـالي كان يوقظنـي مـن غفـوتي صـوت الشـباب السهّيرة فأنضـم إليهـم بعـد أن أنبـش في ذاكـرتي عـن أحلى نـكات عـم صدقـي، ونقـضي الليلـة كاملـة في منافسـة للنـكات. كنـت أحيانًـا أيضًـا أنسـحب مـن المنافسـة بعـد أن أسـتأذنهم في النـوم بخيمتهـم، حتـى يـأتي الفجـر فأسـتيقظ مـع رغبتهـم في النـوم، وأنضـم إلى تماريـن شـباب الإخـوان الصباحيـة بعـد انتهائهـم مـن الصـلاة، أجـري معهـم ومـع الهتـاف، قـوة عزيمـة إيمـان، حتـى أنسـحب في منتصـف التمريـن وأبحـث عـن أقـرب مقهـى أسـتأذن

صاحبـه في الدخـول إلى حمامـه. حـين أعـود كنـت أجـد الميـدان يقظًـا عـلى القمامـة التـي خلفهـا زائـرو الليـل، نجمـع القمامـة حتـى تـأتي لأحدهـم فكـرة أن نقسـمها، فننشـئ مجموعـة لإعـادة التدويـر، وبـدلاً مـن جبـل الأكيـاس يصبـح ثلاثـة.

ظلـت خيمـة الأصدقـاء مكانًـا أتجنبـه. وإن كان مـا أفعلـه يُجـبرني عـلى الدخـول إلى الصينيـة، كنـت أحافـظ عـلى أن يمـر هـذا سريعًـا ثـم أرحـل قبـل أن تتملـك منـي الوحشـة. لم تنقطـع الصلـة بالكامـل، كنـت مثـلاً أقابـل فريـدة بـين الحـين والآخـر وأسلّم عليها مـن بعيـد، لم أرد أكـثر مـن ذلـك، خصوصًـا أنهـا تكـون مشـغولة في تعليـم القـراءة والكتابـة لأطفـال الشـوارع الذيـن احتضنهـم الميـدان، وفي مـرة فتشـت الدكتـور جـاسر عـلى بوابـة قـصر العينـي وأبـدى احترامـه لأني لم أسـمح لـه بالمـرور بالواسـطة. أمـا هديـر، فاجتنبتهـا، رأيتهـا في مـرة واقفـة خلـف إحـدى المنصـات في انتظـار أن يُسـمح لهـا بالصعـود، وكانـت منشـغلة بحـوار بـدا حميميًّـا مـع مغنـي الميـدان المزعـج. لحظـة واحـدة ارتبكـت فيهـا ثـم انشـغلت بصديقـي الـذي لم يتعلـم كيـف يُثبـت خيمتـه وحـده. مجـرد أننـي نجحـت في مقاومـة الجـري إليهـا أسـعدتني، فـصرت أؤكـد لنفـسي أننـي تعافيـت والآن صرت ملـكًا متوجًـا عـلى أطـراف الميـدان، أسـير عـلى مهـل لأتلقـى السـلامات وعزومـات الشـاي والسـجائر، ولسـبب مـا كنـت مهتـمًّا بوصـول هـذا الأمـر إلى خيمـة الأصدقـاء، فوصفـت طنـط دعـاء لصديقـي بائـع البطاطـا وأرسـلته ببضاعتـه الساخنة إلى قلـب الصينيـة مـع رسـالة سريعـة.

- أستاذ رامي بيمسّي عليكو!

t.me/qurssan

أحيانًا كنت أتذكر سبب وجودنا في الميدان، وكنت وقتها أتمنى أن يصمد مبارك أكثر، خصوصًا بعد أن باتت إمكانية ممارسة العنف ضدنا مستحيلة. لم أرد ترك الشارع، حتى ظهري كان قد تعود على النوم فوق الأسفلت، ولم يعد يحن إلى سريري كما كان في اليوم الأول. صرت متساهلاً في أمور الاستحمام والتأنق، وبعد أن كانت هذه مشكلتي الأساسية، أصبحت أضرب أرقامًا قياسية في التماسك أمام الرغبة في التبول.

تنحى مبارك، أو تخلى عن السلطة لآخرين طبقًا للبيان، وأنا أتبول، عرفت الخبر من الصيحة المدوية التي فاجأتني في الخارج. تمهلت حتى انتهيت وأغلقت زر بنطلوني بتأنٍّ. كان لا بد أن يأتي هذا اليوم، أردته أم لم أرد، قلت لنفسي وأنا آخذ نفسًا عميقًا قبل أن أغطس في هستيريا الأحضان على باب المقهى، أُقذف من هنا إلى هناك حتى وصلت أمام المتحف المصري، على الأرض نمل يدخل في بعضه، وفي السماء ليل انزوى تحت إضاءة الألعاب النارية.

رغمًا عن كل شيء، كان لهذا نشوة تُذهب العقل، وتجعل أي شيء يبدو ممكنًا، يبقى فقط أن تريده. ألذ نشوة لا تصمد أكثر من ثوانٍ، أما هذه فمن عظمتها رفعتنا لربع ساعة أو أكثر، حتى خارت همتها أمام القاهرة وهي تخرج كالغولة لتبتلعنا في الميدان. بانت غلظة مفاجئة على وجوه رفاق رياضة الصباح وهم يصيحون "الله وحده أسقط النظام"، وتهشمت خيامنا تحت أرجل الزاحفين من بيوتهم للاحتفال. صرت أبحث دون جدوى عن وجوه الميدان المألوفة وسط أمواج القادمين

وأصـوات كلاكسـات الموتوسـيكلات. كان لهـذه الهسـتيريا طعـم مختلـف، فـج وصـادم كقضـم قطعـة مـن الحبهـان مُختبئـة في الطبـق، أُقـذف بـين أكتـاف الشـباب القـوي الـذي لم تكـن تعنـي المسـاحات لرقصه أي شيء، أقـع فـلا ينتشـلني أحـد، أتخيـل أننـي فقـدت وعيـي حتـى أقـف فأزاحـم حتـى أصـل إلى طـرف أهـدأ، فـأرى.

فريـدة عـلى الأرض، وحولهـا أربعـة مراهقـين، يجرونهـا إلى توكتـوك يقـوده صاحبهـم. مـن بـين كل الصخـب، أسـمع صراخهـا فأجـري عليهـا، تختفـي عـن عينـي وأنـا أزيـح النـاس مـن طريقـي، وحـين أصـل يكـون التوكتـوك قـد هـرب بعـد أن تركهـا عـلى الأرض، مستسـلمة كأنهـا في نـوم عميـق. تفيـق وأنـا أحملهـا، أجـري بهـا حتـى نبعـد إلى شـارع جانبـي. هنـاك أمنحهـا الجاكيـت لتـداري مـا مزقـه المراهقـون، أوشـك عـلى البـكاء أمـام نظـرة الضعـف في عينيهـا، سـأعود لمطـاردة هـؤلاء الحيوانـات، أيًّـا كان عددهـم وأيًّـا كانـت قوتهـم، فريـدة تبتسـم مـن جديـد:

ـ ماعلش يا رامي، مش هنستقوى على عيال غلابة.

أنظـر إلى آثـار الـضرب عـلى وجههـا، لا أجـد شـيئًا لأقولـه، ولكننـي آخذهـا مـن يدهـا بعيـدًا عـن صخـب الغلابـة المخيـف، وأجـدني معهـا مـن جديـد في شـقة هديـر في صخـب لا يقـل رُعبًـا. مـا إن دخلـت حتـى قلـت إن كل مـن مـلأوا المـكان فـلا تـكاد تـرى قدميـك عـلى أرضـه يرقصـون، ولكنـي انتبهـت لعـدم وجـود موسـيقى، فأصبحـت حركتهـم العشـوائية مقلقـة خصوصًـا مـع الضوضـاء التـي لم أكـن أرى أي أفـواه تصدرهـا، ومـع زجاجـات

t.me/qurssan

البيرة التي كانت تُناول بين الأيادي كأنها تطير وتُشرب دفعة واحدة. جنون، فكرت بعد أن وصلت إلى البلكونة، قبل أن أتراجع عن رغبتي في القفز، جنون وجدتني أنضم إليه، نرقص ونشرب، ثم نشرب ونرقص، ثم أفقد إحساس ما أشرب وما أسمع ومع من أرقص. نفحة مارة من الفول السوداني تقضي على ما تبقى بي من وعي، أغمض عيني فأرى بيتي وهدير، نغلق على خالد باب غرفة مصطفى بالمفتاح، ألصق وجهها بالباب وأفك أزرار بنطلونها فيسقط إلى حذائها، أبعد ساقيها عن بعضهما فينقطع البنطلون.

يخترق نور الظهر جفني، أفتح عيني لأجد أمامي وجه هدير وعليه ضحكة.

- صباح الخير. الفطار جاهز يا فندم، رغم انك ما عزمتش علينا برغيف عيش في بيتكو.

أرفع رأسي فأجدني نائمًا على كنبة في بيتها. أين ذهب الضيوف وماذا قلت في نومي؟ تتركني هدير لتضع مع خالد اللمسات الأخيرة على مائدة الإفطار. أغسل وجهي بالماء وأعتذر لهما بكلمات غير مفهومة وأنا أنصرف. في الشارع أشعر كأني خفاش يُعذب بالشمس. أين ركنت سيارتي آخر مرة؟ ومن هؤلاء الذين يكنسون شوارع وسط البلد ويدهنون أرصفتها بألوان علم مصر؟ ولماذا لا أشعر إلا بالأسى من التفاؤل على وجوههم؟

t.me/qurssan

31

المشكلة أني كنت واعيًا بوجود طنط دعاء في الصالة على بعد أقدام، فلم أبلع فكرة أن هذه الغرفة زنزانة، وبالتالي لم ينحبس خيالي معي، ولم أكن أستطيع تحديد أيها أسوأ، كوابيسي المتكررة عن فرقة من النمل تتسرب إلى داخل يدي الملفوفة بالجبس، أم الأفكار التي كانت توقظني منتفضًا وأنا أتخيل سرًّا مُخجلاً جديدًا سيُكتشف عني، أو سؤالاً عما وصلت قصتي إليه بالخارج، وهل نزلت من مرتبة الشهداء إلى المختفين من جديد بعدما تأكد أني لست صاحب الجسد الذي عُثر عليه على طريق السويس. ولكن الأشياء تحدث وتقلقني فقط في وقت حدوثها، بعدها أعتاد على أي وضع أستقر. أيام وأصبحت مقتنعًا بأن أدع الأحياء ليدفنوني بالطريقة التي تريحهم، وقلت إن شغل هذا الحيز من العالم يناسبني، أوسع من إجباري على

التـورط مـع أحـد، وأضيـق مـن الشـارع بـكل مـا فيـه مـن احتمالات وإلحـاح في الحركـة، وقلـت إن حظـي بالتأكيـد أفضـل مـن شـبيهي المُبعـثر عـلى الحوائـط مستنشـقًا الـتراب وعـوادم السـيارات.

لكـن، أن أتصالـح مـع زعـم أني ميـت، فكـرة لم أعـرف كيـف أمررهـا بسلاسـة ربمـا لأني لم أشـهدها وهـي تحـدث. المشـكلة أني كنـت أعيـش برغبـات إنسـان حـي، سـيطرت عليَّ مـرة رغبـة في أكل الآيـس كريـم حـالاً، رغبـة فشـلت تمامًـا في طردهـا مـن دماغـي، حتـى إني فكـرت في فتـح الشـباك والـصراخ منـه طلبًـا للمسـاعدة، ثـم تنـزوي الفكـرة أمـام رغبـة جديـدة في سـاندوتش هامبورجـر. وأحيانًـا أيضًـا كنـت أشـعر عـلى غـير عـادتي برغبـة في الـكلام مـع أي أحـد، فأحـاول أن أبتـز طنـط دعـاء بـأن أقـترب مـن البـاب وأصرخ زاعـمًا أننـي أصبـت نفـسي بـشيء، أو أقـول أي شيء، ولكـن كل حيـلي لم تكـن تفلـح مـع القسـوة التـي كانـت تعاملنـي بهـا. كانـت تنتظـر سـماع صـوت الميـاه في حـمام الغرفـة لتفتـح البـاب سريعًـا وتمـرر الأكل قبـل خروجـي، وفي مـرة فتحـت الميـاه وعـدت إلى الغرفـة في انتظـار أن أفاجئهـا، فوجـدت صينيـة الطعـام تتـدلى مـن شـباك الحـمام الصغـير، فاكتشـفت أنـه ملتصـق بشـباك المطبـخ. كنـت أتواطـأ معهـا وأصمـت حـين تتكلـم في التليفـون، مكالمـات مـن نوعـين، الأول مقتضـب لا يتجـاوز دقائـق أفهـم منـه أن المتصـل يتـبرع بأمـوال تشـكره عليهـا، والنـوع الآخـر مكالمـات طويلـة بهـا نقاشـات عـن احتيـاج مجموعـة سـجن مـا إلى إعاشـة، أو عمليـة ضروريـة يجـب أن يجريهـا أحـد المصابـين. كنـت أسـلي نفـسي بمراقبـة البنـك وتطويـر قـدرتي عـلى الحسـاب، ولم أجـد

t.me/qurssan

ثغرة واحدة بين الوارد والصادر فخفت اهتمامي، بالطبع فيما عدا المرة التي قفزت فيها من على السرير لأن المتصلة كانت هدير. المكالمة لم تدم أكثر من دقيقة، فهمت منها أن هدير في أزمة، ولكن بسبب إيجار شقتها. أقنعتها طنط دعاء بأن تقرضها أموالاً بعد محايلة، وانتهت المكالمة.

الجزء الأكثر إزعاجًا من يومي كان لحظة أن أقوم من نومي. كنت أصحو دائمًا بشيئي منتصبًا بين فخذيّ، ولكن بخيال ناضب. شيء أقرب إلى شد عضلي لا يحرك أي خيال ولا حتى يستجيب لأن أجرّه فيستدعي أي شيء، حتى استحضار مشهد هدير وهي تفرك الحشيش بين ساقيها لم يكن يفلح معي. وفي المرة التي قررت فيها الإمساك به كان كأنه قد نسي يدي، وشعرت بأني أمسك بشيء رجل غيري، فأفزعتني الفكرة وصرت أتجاهله، وتصالحت مع عودته كما كان مستقلاً عني. نجحت هذه الحيلة معه، بعد أيام نسيني ونسيته، ومن وقتها مرت عليَّ الأيام بسلاسة ملاءة من حرير، وكنت على وشك أن أحس أخيراً بسلام مع نفسي، غير عابئ بأي شيء مما يدور في الخارج، لولا حلمي بالملل الذي يعاني منه مصطفى بين الجنائن الخضراء والأنهار التي بدت بلا نهاية. كان سمينًا لا يقوى على الحركة ،ومع أن طابورًا من أجمل النسوة اصطف أمامه بانتظام، فإنه كان يتجاهلهن واضعًا عصا على ساقيه، وعلى وجهه مرارة أخبرني سببها وأنا أقترب فتهبط أمامنا طاولة بلياردو وعصا في يدي:

- لاعبتهم كلهم أول ما جيت.. وكسبتهم كلهم!

جلسـت بجـواره، ثـم خطـر لي كيـف أخرجـه مـن مللـه مفكـرًا في اقـتراح أن نصطـاد بعصينـا مـن النهـر، ولكـن قبـل أن أتكلـم كان السـمك يخـرج لنـا منـه، مشـويًا وموضوعًـا عـلى أطبـاق، فوجـدت مصطفـى ينظـر إليَّ وقـد مـلأ وجهـه الأسى.

- شفت؟ ده أنا ركبي ما بقتش بتشيلني!

أمسـكت بيـده وقلـت لـه حـين يحـل الليـل نهـرب، ولكنـه ابتسـم في يـأس ناظـرًا إلى الاتسـاع المفـزع وإلى الحـراس المبتسـمين مـن حولنـا، ونبهنـي إلى أن مـن سـبقوه إلى هنـا يقولـون إن الليـل لا يـأتي أبـدًا، وإن أحـدًا لا هنـا ينـام، ثـم رن هـذا الجـرس الـذي كنـت أعـرف أنـه جـرس بيتنـا، وظللـت دون جـدوى أحـاول بعينـي البحـث عـن البـاب الـذي دخلـت منـه.

صحـوت وظـل صـوت الجـرس معـي، خارجًـا مـن ناموسـة تـدور فـوق رأسي. ومـع أنـه لم يكـن مـن نـور في الغرفـة سـوى ذلـك الخافـت المتـسرب مـن شـباك الحـمام، فإننـي كنـت أرى الناموسـة بـكل تفاصيلهـا، بجناحيهـا وعينيهـا الصغيرتـين اللتـين كانتـا تنظـران إليَّ كـما أنظـر إليهـما. كنـت أرى كل شيء، أرفـع عينـي إلى السـقف فألاحـظ للمـرة الأولى خطـوط الرطوبـة الناشـعة فيـه، بـل والنمـل الصغـير المختبـئ بـين حوافهـا. وكنـت أسـمع كل شيء أيضًـا، صـوت الجـيران يتكلمـون عـن مـذاق الملوخيـة التـي أشـمها كأنهـا تنـزل مـن حنفيـة الحـمام. هـذا الـزن كان يقتلنـي. حاولـت أن أنهـض مـن السريـر فـكأني أقفـز بظهـر مفـرود. رفعـت يـدي ببـطء لأبعـد الناموسـة وإذا بي ألتقطهـا وأسـمع صوتهـا ينسـحق بـين أصابعـي.

t.me/qurssan

أعتقـد أن هكـذا صُنـع الأبطـال. هـذا الجـرس لم يتوقـف فهربـت منـه، إلى بـاب الغرفـة الـذي انفتـح معـي بضغطـة واحـدة.

هـذا جـرس هاتـف، وهـذه طنـط دعـاء نائمـة عـلى الكنبـة، بيـد وراء رأسـها ويـد ممسـكة بنصـف جوينـت حشـيش منطفـئ. فتشـت الطاولـة أمامهـا، فوجـدت الهاتـف داخـل علبـة بيتـزا فارغـة، وسـبقتني يـدي إليـه فوجدتنـي أرد:

- أيوا يا فريدة.. إزيك؟

....

- يا فريدة؟ أنا رامي!

أغلقـت فريـدة المكالمـة في وجهـي. اهـرب يـا رامي، كنـت أردد عـلى نفسـي وأنـا عائـد إلى الغرفـة عـلى أطـراف أصابعـي، وأرمـي نفسـي عـلى السريـر مـن جديـد منهـكًا كأني قطعـت ليـلاً المسـافة إلى حديقـة مصطفـى الجديـدة جريًـا، ولكنـي لم أنجـح في إغـلاق عينـي، فبقـدر الراحـة التـي أتتنـي مـن انتهـاء الورطـة عـلى هـذا الشـكل، أن أُكشـف عـن طريـق الخطـأ، لا تنصـلَ مـن مسـؤولية ولا ضمـيرَ سـيزعجني، بقـدر مـا كانـت ترعبنـي قـدرة فريـدة عـلى إخفـاء الأسرار. هـذا كابـوس، أن أصـير الـسر الـذي يتنقـل بـين الجميـع في دائـرة مغلقـة، دون أن يوقفـه أحـد عنـده، ودون أن يجـرؤ أحـد عـلى كـسر الدائـرة. في كل الأحـوال لم يكـن عـليَّ سـوى انتظـار طنـط دعـاء كي تدخـل عـليَّ وبيدهـا تليفونهـا وعـلى فمهـا عاصفـة مـن الشـتائم. ولكـن هـذه اللحظـة لم تـأتِ لأنهـا في الأغلب اسـتيقظت عـلى جـرس الشـقة، واسـتقبلت فريـدة التـي سـمعتها

على الفور تدخل في الموضوع، وتأكدت من أن تواطئي الصامت مع طنط دعاء أصبح عقدًا مُحكمًا لن ينقضه أي من الطرفين.

- أنا بقيت باكره رامي يا دعاء.

ستشرح فريدة، كيف صرت أظهر لها في كل شيء، وأنها على حافة الجنون، ستقول إن ما حدث بالنهار أنها اتصلت بطنط دعاء فظنت أنها تسمع صوتي، ولن تعلق طنط دعاء. فريدة تقول إنها تبكي منذ المكالمة، وهذا غريب أن فريدة تستطيع البكاء. بل ويائسة؟ تقول هذا، وتقول إن اقتراب سنة على بداية الثورة يفزعها. تنساني وتسأل، هل حققنا أي شيء غير المشاهد البائسة التي تُثقل الروح؟ قتلى جدد كل يوم، نبحث عنهم في المشارح والمستشفيات، نزفهم في جنازات ثم نعود لنستقبل قتلى جددًا، نصورهم هذه المرة لنشحذ بهم التعاطف دون جدوى؟ دائرة لا تنكسر، ثم تتذكرني:

- رامي فشخ لي حياتي تمامًا!

قلت بالتأكيد هناك خطأ، فحتى هذه اللحظة كنت أفكر في موضوع الثورة هذه كقطار سريع، كبرى مشكلاتي معه أن أنزل دون إصابات، وأن أصعد إليه دون أن أصيب أحدًا من ركابه، لم أتخيله يتوقف، أو أن به محطات ينزل فيها البعض ويصعد إليها آخرون، والأهم أنني دائمًا كنت أتخيل موقع فريدة في كابينة القيادة، لا تلتفت في كل الأحوال إلى مثل هذه الأمور التي تخص القابعين مثلي في سيارات الركاب، ولم يكن في بالي أنها ستنظر إلى الوراء في لحظة نزولي فتفقد رؤيتها للقضبان.

t.me/qurssan

- إحساس مختلف خالص لما تبقي عارفة الشخص، كنتي بتقابليه.. بتضحكي معاه.. لسة عندك ع الفيس بوك.

ولكنها تعود وتلومني على كل شيء، على المرة الأولى التي تفكر فيها في ترك البلد، وعلى عجزها عن السفر، وعلى اندماجها في رحلة البحث عني، حتى على لقائها أم محمد. كيف نسيت أم محمد في كل هذا؟ بالتأكيد في غيابي لم يحتَج أحد لاقتحام بيتي، لأنها أعطتهم نسختها من المفاتيح.

تقول إنها تعرفت أم محمد في أول مؤتمر نُظم من أجلي، وعرفت أن الخدمة في بيتي كانت توفر لها دخل أسرتها الوحيد. لم أندهش وفريدة تحكي أنها عرضت عليها أي أموال تريدها، ولم أندهش أيضًا من رفض أم محمد، بل وليس عندي أي شك فيما حدث دون أن تقوله فريدة، أنها زارت أم محمد في بيتها حاملة هدايا للأولاد، ووجدت صيغة أنسب بأن تطلب مساعدتها في تنظيف بيتها مرة كل أسبوع بأجر العمل اليومي نفسه في بيتي.

فريدة عادت قبل يومين لتجد أدراج بيتها قد خلت من أي أثر للنقود وبعض المجوهرات. تقول إنها اتصلت بأم محمد، ولكنني متأكد من أنها قالت لها بهذه الصيغة في التليفون:

- أنا آسفة لإزعاج حضرتك.. بس كان فيه حاجات نقصت من البيت فقلت أسألك!

وأكيد أنها صدقت نفي أم محمد علاقتها بالأمر كما أصدقه، ولكني أفقد القدرة على تخيل باقي القصة.

ـ تخيلي؟ أنا أكلم البوليس؟

تفاجـأت، وأعتقـد أن طنـط دعـاء اندهشـت أيضًـا رغـم أني سـمعتها تطلـب مـن فريـدة ألا تكـون قاسـية عـلى نفسـها. تؤكـد أنهـا أصرت حـين سـألوها في المحـضر عـن المترددين عـلى المنـزل أن أم محمـد فـوق مسـتوى الشـبهات. ولكنهـا اليـوم وجـدت نفسـها في قسـم الشرطـة، تسـتقبلها أم محمـد بالتوسـل كي تتنـازل عـن المحـضر، وبالقسـم إنهـا لم تكـن تعـرف أن ابنهـا قـد صنـع لنفسـه نسـخة مـن مفتـاح بيـت فريـدة واسـتخدمها لسرقتـه. أتخيـل كيـف كان الأمـر صعبًـا عـلى فريـدة، أن يخـرج الشـاب مـن الحجـز فتجـد آثـار الـدم عـلى قميصـه وانتفـاخ وجهـه مـن الـضرب، وأن تسـب فريـدة الضبـاط وهـي تخطـب فيهـم عـن التعذيـب وحقـوق الإنسـان التـي تجاوزوهـا، وقـول كبيرهـم:

ـ خدي حاجتك والعبي بعيد يا شاطرة!

أعـرف هـذا الخجـل الـذي تقـول إنهـا شـعرت بـه وهـي تصطحـب الشـاب للعـلاج، وأعتقـد أنهـا فكـرت في التـبرع بـكل مـا تملـك حـالاً حتـى لا توضـع في هـذا الموقـف مـن جديـد، الخجـل مـن أنهـا لم تُصعّـد الموقـف مـع الضابـط حتـى تسـتلم مقتنياتهـا، والفشـل في إقنـاع سـارقها بأنهـا ستسـامحه إن بـات ليلـة في ميـدان التحريـر، وكيـف هـو قـاسٍ عليهـا أن تعـترف بهـذا لأحـد، أنهـا تحلـم بـأن تبنـي حيـاة جديـدة في مـكان مريـح تفعـل فيـه مـا تريـد، ولكنهـا تعـرف أن الأوان قـد فـات، لأن رامـي تـرك روحـه هنـا، وأن أسـوأ كوابيسـها هـو نسـياني مـع مـرور الوقـت، ذلـك قبـل أن يعلـو صوتهـا ويحتـد بشـكل مفاجـئ وهـي تقـول:

t.me/qurssan

- أنـا مـا اعرفـش ابقـى زي هديـر.. شـوفتي صورتهـا ع البحـر يـا دعـاء؟

ثـم تنطلـق، متهمـة هديـر بالزيـف وأنهـا تسـتغلني كي تبقـى في الأضـواء كـما تحـب، حبيبـة الشـهيد التـي يشـغل النـاس الاطمئنـان عليهـا، ويختبئـون منهـا خشـية أن يجـرح مشـاعرها كونهم يمارسـون يومهـم بشـكل طبيعـي، ثـم يفاجـأون بصـورة لهـا مثـل هـذه، كأنها تُخـرج لسـانها لهـم، ولي. فريـدة متأكـدة مـن أن هديـر لم تحبنـي وأنـا حـيّ، وإلا كانـت قـد اسـتجابت مـن قبـل لمـا تقولـه عـن يقـين بـأني كنـت أحـب هديـر.

- دلوقتي بتقول انها بتحبه، عشان كل الناس بتحبه!

هنا فقط تدخلت طنط دعاء بجملة حاسمة أنهت الحوار:

- وهـو كان بيحبهـا لنفـس السـبب يـا فريـدة. مـش مهـم دلوقتـي!

سـاد صمـت بعدهـا، ثـم تكلمتـا في أي شيء لوقـت قليـل، وحـين انصرفـت فريـدة دخلـت عـليَّ طنـط دعـاء فـورًا، وبـدلاً مـن الأسى الـذي كنـت أتوقعـه، كان اللعـب يطفـح مـن عينيهـا، وقالـت وهـي تشـدني بفـرح مـن عـلى السريـر:

. اصحى لي كده!

t.me/qurssan

32

حتـى مـن قبـل هـذا المـأزق، كنـت دائمًـا أشـعر حـين أفكـر في ميـدان التحريـر وأصدقائـه كأن حبـلاً شـفافًا يُلـف ببـطء حـول عنقـي. الغريـب أننـي كنـت أشـعر بسـهولة أكـثر في التنفـس كلـما اشـتد الحبـل عـليّ، كأني نسـيت كيـف يؤخـذ النفـس دونـه، وعـلى الرغـم مـن إدراكي الكامـل منـذ البدايـة أننـي مـن لففتـه حـول عنقـي، فإننـي كنـت مترقبًـا لأرى مـن سيشـده، فمنـذ البدايـة كنـت أخـاف مـن الثـورة بقـدر مـا كنـت أخـاف مـن أعدائهـا.

بعيـدًا عـن هديـر، حـين تعرفـت إلى فريـدة وأصحابهـا قبـل الثـورة بشـهور، كنـت أحـب أن أسرح مـع قصصهـم الشـائقة في مواجهـة السـلطة. أسـتمع إليهـم فتسـليني الحكايـات. إنصـات بـلا ضغـوط. شيء يشـبه الفرجـة عـلى مباريـات الـدوري الأوروبي. مهـما بلغـت متعتهـا وإثارتهـا، لم يشُـبني تـورط فيهـا ولا إلحـاح عـلى

تشجيع فريق ضد الآخر. وحتى حين نزلت معهم الميدان، صار الأمر تعويضًا عن مباريات الأهلي التي لم أعد أحضرها في الإستاد. مباريات طويلة ومملة تحضرها بدافع الانتماء. ولكن، كان هذا كله في إطار المشاهدة، عين تفتح وتقفل كلما أرادت.

تغير الأمر تمامًا بعد تنحي مبارك، والرحيل المفاجئ للجميع عن الميدان. صرت لا أقدر على جولاتي القديمة بوسط البلد بحثًا عن لقاءات الصدفة مع شلة هدير، وكانت الأجواء الآمنة المرحة حول ميدان التحرير تصيبني بالنفور، أصبح هذا يشبه إحباط الغطس في حمام سباحة يطل على البحر. لم أعرف كيف أعود لي وكيف كنت أقضي وقتي بين مباراة وأخرى. تحولت فجأة إلى مشاهد نهم لا يعنيه احتياج اللاعبين إلى أي راحة ولا أن فريقه قد فاز. يود لو ينزل إلى غرفة الملابس ويجرهم إلى الملعب من جديد. العبوا لسنين متواصلة، لا تنتهوا إلا حين أنتهي. أكثر ما كان يفزعني تلك الجملة التي كانوا يكررون إذاعتها في التلفزيون: "الثائر الحق هو الذي لا يظل ثائراً وإنما يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد"، ولم يكن يطمئنني غير مشاهدة البرامج الحوارية التي كان من المعتاد ظهور ضيف فيها يتهم من يظن أن الثورة قد انتصرت بالسذاجة، ويحذر من ترك الميادين خالية. كنت أصفق لهؤلاء مستغربًا من أني فطنت لهذا وحدي، وأن شلة هدير بكل ما لهم من خبرات ما زالوا غالبًا في احتفالاتهم.

أيام مبهجة ومملة، انتهت في اليوم الذي خرجت فيه أخيراً من المكتب، وفي نيتي التجول في المصنع كي أسلي نفسي بالكلام

t.me/qurssan

مـع العـمال بـدلاً مـن متابعتهـم مـن خلـف الزجـاج، ورأيتـه أمامـي منكبًّـا عـلى ماكينـة تعبئـة الكـوكا كـولا يراقبهـا وهـي تمـلأ الزجاجـات الجاريـة في خـط الإنتـاج، ففـرح قلبـي وكنـت عـلى وشـك أن أنـادي عليـه، لـولا سـماعي لصـوت اهتـزاز الماكينـة كأنـه يخـترق أذني، فتذكـرت أن هنـا شيء والميـدان شيء آخـر وهربـت منـه إلى سـيارتي.

لم أكـن متأكـدًا إن كان لمحنـي أم لا، وإن كنـت قـادرًا عـلى العـودة إلى المصنـع اليـوم. باسـم. كيـف فاتـت عـليَّ وأنـا مـن احـترف التقـاط الخيـوط وجمعهـا؟ منـذ أفلـتَّ نفـسي مـن صقيـع صينيـة الميـدان وصـار قائـدي. كنـت في مجموعتـه باللجـان الشـعبية، وكنـت أحـد صبيانـه في مـشروع المبولـة. هـذا كان غريبًـا. حتـى وإن لم يخطـر عـلى بـالي أنـه المهنـدس باسـم الـذي كلمنـي عنـه عـم صدقـي، فليـس مـن المنطقـي عـدم معرفتـه بي، لا أحـد لا يعـرف مديـره. كيـف كان يعاملنـي بهـذه الطريقـة؟ يعطينـي أوامر ويكلفنـي بمهـام؟ أحـا! هـل حـكى لزملائـه كل هـذا؟ كيـف تعـود الأشـياء إلى أماكنهـا؟ إن عُـدت إلى المصنـع كيـف أعطيـه أمـرًا، وإن فصلتـه، كيـف أواجهـه في الميـدان؟

منحـت نفـسي إجـازة هـذا اليـوم، وحـين وصلـت البيـت أدركـت أن هـذه ليسـت المشـكلة الوحيـدة، المشـكلة شـعوري أن باسـم كان يجـبرني عـلى النـزول مـن مقاعـد البـدلاء إلى الملعـب، متيقنًـا مـن مهـارة لم أعرفهـا فيَّ. تذكـرت ندواتـه الليليـة في الميـدان، كلامـه المُنمـق الـذي كان يجـرؤ عـلى قولـه في وجـودي، عـن التوزيـع العـادل للـثروة، والمفارقـة اللغويـة التـي كان يحـب اسـتخدامها بـين

ساكني القصور وساكني القبور، ووجوب هزيمة الطبقة التي تستمتع بمعظم ثروات البلد الفقير. كل ما كنت أسمعه وأوافق عليه متجاهلاً كيف يعنيني. كنت أحب مشاهدة باسم وهو يتكلم، وكنت متيقنًا من أني أشجع فريقه، ولكن متى أصبح انتصار فريق يعني هزيمة مشجعه؟

صحيح أن هذا الكلام لم أسمعه في الميدان غير من باسم، ولكن هذا كابوس لا يمكن تجاهله، أن أجدني أزاحم الناس في الطوابير الحكومية، والقبول بعمل لا أختار فيه مديري وانتظار راتب آخر الشهر. وماذا إن دافعت عن حياتي كما أعرفها؟ وأساهم ببعض ما أملك، هل ما زال اختيارًا ممكنًا أن ألعب مع أي من الفريقين؟

سريعًا صار باسم من أنبش عنه، وأدركت جدية قلقي من أن يسلبني بيتي حين صرت أبدأ به في جولات المخبر الإلكتروني، التي كنت أخوض فيها يوميًا على الفيس بوك بعد أن أنتهي من قهوة عم صدقي، بدلاً من بدايتي المعتادة بصفحة هدير وصورتها الجديدة مع خالد. ولكن كان النبش في حساب باسم كعناء البحث عن قطعة لحم بين عظام حمامة، كان يمكن أصلاً الاستغناء عن حسابه بفتح اليوتيوب والبحث عن كلمات مثل "ثورة.. هتافات.. ميدان التحرير". غريبًا كان، شخص يقرر أن يشاركنا في الساعة الرابعة صباحًا أنه "سامع صوت المكن الداير، بيقول بس كفاية مذلة"، أو دعواته الغريبة للنظام التي كان يطلقها مع كل صباح "اقتلني، قتلي مش هيعيد دولتك تاني".

t.me/qurssan

في يوم أصابني بالفزع. اختفى عن الكتابة لليلة كاملة، ثم ظهر في اليوم التالي نحو الساعة الواحدة ظهرًا ليكتب: "أحلى موتة يا ثوار، ع المشانق يا أحرار"، فتخيلت أن باسم يضيع منا لثوانٍ حتى وجدته بعدها يرد على صديق له، اتخذ من علم فلسطين صورة لحسابه: "يا عم مستنيك بقى لي ساعتين ع الحرية". كنت أعرف الحرية، اسم مقهى في وسط البلد، لا يُعرف عن أحد شُنق فيها من قبل.

أخجلني يومها أن أسيء فهم باسم فأفزع، فلم يكن من اللائق لأحد في سني ألا يفهم لغة التواصل الاجتماعي، وإلا، فماذا تركنا لطنط دعاء؟ الكل، وخصوصًا باسم، كانوا يحاولون تجاهل تعليقاتها. يكتب: "المسيرة طالعة طالعة"، فترد عليه بكل جدية: "هو فيه مسيرة دلوقتي في الشارع يا باسم؟ إيه المطالب وخط السير؟"، أو مثلاً حين كتب بعدها بيوم: "الجدع جدع والجبان جبان، واحنا يا جدع راجعين الميدان"، فتستكمل طنط دعاء مسيرتها في سوء الفهم، وترد: "يا باسم بطّل تلخبطنا، فيه حد دلوقتي بيتحرك ع الميدان؟". تلك الردود التي لم يجد أمامها المسكين سوى محاولة كسب ودها عن طريق بعض اللايكات التي كانت دائمًا تشكو من ندرتها على الفقرة الموسيقية الدائمة في صفحتها، ولكنه بالطبع كان يلتزم بأخلاقه الثورية، فلم أرَ له لايك على أغاني أم كلثوم ومحمد فوزي وعبد الوهاب، ولكنه كان يجد غايته في صفحة طنط دعاء حين تنشر أغنية جديدة لمطربي الجديد المفضل، الشيخ إمام. يقول الشيخ: "مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر؟"،

فيعلـق باسـم عـلى الفـور: "ولا حـد"، فتبـدي طنـط دعـاء إعجابهـا بتعليقـه.

لم تكـن طنـط دعـاء الإلكترونية بقـدر ذكائها في الحيـاة الطبيعية، كانـت الوحيـدة التـي رأيتهـا توقـع بعـد كتابـة أي شيء باسـمها وتاريـخ الكتابـة، ثـم إن سـوء فهمهـا كان يمتـد أحيانًـا لصفحـة فريـدة الإخباريـة، تنـشر فريـدة مقـالاً مـن صحيفـة الجارديـان فتفـترض طنـط دعـاء أن فريـدة هـي كاتبـة المقـال، وتظـل ليـوم تثنـي عـلى كتابتهـا ورأيهـا دون محاولـة مـن أحـد لتصحيـح الوضـع لهـا، حتـى الشـخصيات العامـة لم تسـلم منهـا، أذكـر أني قـرأت لهـا في مـرة تعليقًـا عـن ضرورة مقاطعـة اسـتفتاء أُعلـن عـن التعديـلات الدسـتورية عــلى الصفحــة الرســمية للدكتــور محمــد البرادعــي، التـي كانـت تضـم في هـذا الوقـت أكـثر مـن مليـون مشـترك، ثـم خـرج البرادعـي في ليلتهـا عـلى التليفزيـون يعلـن دعوتـه للنـاس إلى النـزول والتصويـت بــ"لا"، مـا أثـار غيـظ طنـط دعـاء التـي عـبرت عنـه بموضـوع طويـل عـن اسـتنكارها لعـدم سـماع البرادعـي كلامهـا، رغـم قبولـه إضافتهـا إلى قائمـة أصدقائـه.

أكـثر وقـت كنـت أقضيـه، بالطبـع بـين وجبـة وأخرى مـن صفحة هديـر، كان عنـد فريـدة. كأنــه حســاب محـترف تتقـاضى فريـدة منـه أمـوالاً لتنـشر لنـا ملخصًـا عـن كل مـا يُكتـب عـن مـصر. مـن الممكــن الشــك أصــلاً في أن فريــدة فــرد واحــد، يُتوقــع خمســة أشـخاص يديـرون الحسـاب ويزفـون إلينـا كل خمـس دقائـق مقـالاً مـن الجارديـان أو نيويـورك تايمـز، ثـم تدوينـة طويلـة عـن تاريـخ النضـال في فرنسـا وأمريـكا الجنوبيـة، فنعـرف أن مـا نمـر بـه الآن

t.me/qurssan

ليس فريدًا من نوعه. حتى في تعليقاتها على الحسابات الأخرى، نادرًا ما تجد معلومة شخصية عنها، ستعرف أن زوجها جاسر طبيب بالصدفة حين تذكره في مناقشة حادة عن الختان، ولن تعرف شيئًا من الدكتور جاسر لأنه لا يستخدم الفيس بوك، ولكن، من السهل من خلال حسابها تتبع تحركاتها، إذا اعتبرتها مسجلاً صوتيًا يتنقل بين الفعاليات التي تبدي إعجابها بها، ندوة ثقافية هنا وحفل توقيع كتاب هناك واجتماع للعصف الذهني بمقر ما. قد تكون هذه الوسيلة الوحيدة لأن تعرف شكلها، إلا إذا كنت ساذجًا بما يكفي لتخيل أن فريدة هي البنت الإفريقية الصغيرة التي تشير بعلامة النصر في صورة الحساب.

لكن كنت أتابعها لمثل هذه الأيام، اليوم الذي نشرت فيه دعوة إلى اجتماع لمناقشة موقف الثورة من الاستفتاء الذي دعت إليه الدولة، لإجراء تعديلات دستورية، باقتراح من الإسلاميين، بدلاً من الدستور الجديد الذي فهمت أننا طالبنا به، ووجدت ندى من ضمن من سجلوا أسماءهم في الحاضرين، فقررت أخيرًا أنه لا مفر من اللعب.

في الاجتماع كنا نحو ثلاثين شخصًا، فريدة تخطب فينا:

- دلوقتي مش زي الميدان. كل فرد في البلد ليه صوت زيه زيك، ومحتاج تقنعه، واحنا ما عندناش فلوس زي الإخوان. بس عندنا طاقة. صح؟

أغلبنا كان يتثاءب والكل كان على وجهه ضجر، مثلما كنا أطفالاً في أول يوم للسنة الدراسية. لم أنصت لها باهتمام، كان بي

غيظ مجهول السبب. ربما بسبب المشهد السخيف الذي بدأ به الاجتماع والناس يساعدون باسم في حمل بوسترات الحملة من مدخل العمارة إلى المقر، ويمكن لأنّ ندى لم تأتِ، أو لأن خالد كان يقلقني بدورانه خلف كراسينا يصوّرنا بكاميرته، أو لأن هدير كانت شاردة في هاتفها منذ بدأنا، المهم أنني كنت غاضبًا، ودخلت يومها في أول خناقة مع أهل الميدان، غير عابئ بأني أدمر بهذا صورتي الأساسية التي كنت أعتقد أنها السبب في السهولة التي يقبلني الناس بها صديقًا لهم، صديقًا ينصت ولا يتكلم، مُحبًّا ومهتمًّا بما يقولون، ولا يشعر أبدًا أن قصته أجدر من قصصهم كي تُسمع.

وجدتني أقاطع باسم، وهو يعطينا نصائح لكيفية التعامل مع الجمهور. أولها، كان أن ننفي تمامًا أي علاقة بين دعوتنا للتصويت بـ"لا" في الاستفتاء، ورغبتنا في تغيير المادة الثانية من الدستور، التي تنص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، قاطعته، وإن كنت لا أتذكر إن كانت خرجت مني الكلمات بالغضب الذي تخيلته:

- بس ما هو احنا فعلاً عايزين نلغي المادة التانية من الدستور؟

- بس ده مش السبب الوحيد.

- بس سبب، ليه ننكره يعني؟

- عشان ببساطة كارت عارفين انه خسران.

- بس احنا ما بنلعبش كوتشينة.

t.me/qurssan

ـ دي سياسة، يعني أولويات.

ـ ما اظنش من ضمنها الكدب.

ضحكة ساخرة خرجت منه، وامتنع بعدها عن الرد، وكان الصمت الذي حل بعدها قد أكد لي كم أربكنا الحضور، إلا هدير التي ظلت تعبث بهاتفها دون اكتراث لأي شيء. صمت قطعته فريدة بمهارة، قائلة كلامها بصيغة الجمع، ولكن بعين موجهة إليّ: هذا لن يأتي بين يوم وليلة، لأن الشعب ما زال يربط بين تدينه الشخصي وتدين الدولة الرسمي، ولهذا فنحن نفضل ألا تكون هذه المادة أولى معاركنا، بل أن نشتبك مع القضايا التي تهم الشعب أولاً في حياته اليومية.

انتقل بعدها الحوار إلى الأسباب الأخرى لرفض التعديلات، ولكنني لم أنتقل معه، شاعرًا بسخف لم أكن أطيقه، من اختفاء جذوة الغضب الصافية التي أحببتها وقلت إنها ستطيح بكل شيء في هبّة صادقة واحدة، ومن أن باسم على حق، لا حلَّ سوى أن نراوغ، قلت لنفسي وأنا أتخيل أن يعرف من ناداني بـ "رامي بيه" في الصباح بحياتي في المساء، أو أن يعرف عم صدقي أن هدير تعيش مع خالد دون نية للزواج، بل وإن من بين حاضري هذا الاجتماع "خولات"، لا نرى في وجودهم معنا أي غرابة. ربما لم يحن الوقت بعد، وللأسف هذا ما ينتظره الجميع، بدت لي الصورة أوضح فانزعجت، وتذكرت ليلة من ليالي الأنس في التحرير، حين فتح لي صديق هذه الليلة قلبه بعد أن دعوته إلى كوب شاي، واعترف أنه يكره المبيت في الميدان نفسه مع كل هؤلاء النصارى والمتبرجات

والفنانـين والفنانـات والشـباب الطـري المتشـبه بالنسـاء، والنسـاء والكفـرة العلمانيـين ومهاويـس كـرة القـدم والمدخنـين ومتحـدثي اللغـات الأجنبيـة وشباب الجامعـة الصيّـع، وقـارئي الكتـب وتـاركي الصـلاة ومحبـي قانـون الخلـع ورواد المقاهـي وحامـلي الهواتـف الذكيـة. أتخيلـه الآن يدخـل علينـا الاجتـماع شـاهرًا سـيفه بعـد أن تجمـع كل مـن يكرههـم في غرفـة واحـدة، ولكـن أتذكـر كـم طمأننـي يومهـا ارتياحـه لأن يصـبر، فـكان الشـعب أيضًـا بالنسـبة إليـه عليـه أن يرضـع مـن الديمقراطيـة قليـلاً حتـى يُفطـم إلى شرب شريعـة الإسـلام وحـده، وكنـت غـير جاهـز أيضًـا لأن يطـردني مـن خيمتـه، ففضلـت الصمـت.

عـاد تركيـزي للاجتـماع بعـد أن اهتـز هاتفـي في جيبـي، رسـالة مـن هديـر "إحنـا محتاجـين نتكلـم". أنظـر إليهـا فـلا ترفـع عينيهـا عـن هاتفهـا، ثـم أنظـر إلى خالـد فأعيـد هاتفـي إلى جيبـي قبـل أن يمـر مـن ورائي، ثـم إلى الاجتـماع. بقـي لنـا شيء، أن يقـترح كل منـا شـعارًا لحملـة رفـض تعديـلات الدسـتور، شـعارًا دعائيًـا قـد يُلصـق عـلى بوسـتر أو نعيـد كتابتـه كلنـا عـلى الفيـس بـوك. لم أقـدر عـلى أن أعـود لتركيـزي، كل مـا كنـت أفكـر فيـه هـو هديـر ومـا تنـوي قولـه، ولكـن طنـط دعـاء رفضـت فكـرة أن يرفـع كل مـن يحمـل فكـرة يـده، وأصرت بـكل اسـتفزاز أن يشـارك الـكل، بالـدور. حـين أتى الـدور عـليّ، لم أكـن قـد سـمعت مـن سـبقوني، وكنـت مجـردًا مـن أي فكـرة، ولم أعـرف مـن أيـن أتـاني مـا قلـت:

- فيـه لحظـة لازم يعـرف فيهـا النـاس إن شرا عربيـة جديـدة هيبقـى أرخـص مـن المعافـرة في التصليـح!

t.me/qurssan

ضحكت هدير، ولكن قبل استحواذ القلق عليّ من أن أكون المادة الفكاهية للاجتماع، نظرت إلى الآخرين فوجدت عليهم علامات الإعجاب، وبقدر ما أعادني هذا إلى ثباتي، أقلقني أكثر حين تذكرت أني اقتبست جملتي من رفيق الميدان الكاره لنا، وهو يبشرني بلحظة سيفطن فيها الكل إلى حتمية دولة الإسلام، ثم نسيت هذا ويد تنزل على كتفي، يد خالد:

- قوم معايا!

مشى فتبعته، وخرجنا من الصالة إلى ممر قبل أن ننتهي منه كنت قد أدركت وحدي خطأ ما قلت، ورغبت أن أصحح لخالد وأقول له إني بالتأكيد لم أقصد تشبيهه بسيارة قديمة، حتى لو اضطرني الأمر إلى الاعتراف له بسرقتي للجملة كلها، متمنيًا ألا يكون مثل صاحب الجملة الأصلي يرى أن العنف اختيار من ضمن الاختيارات، ولكن لم يكن هناك مجال لشرح أي شيء، فقد كان قد فتح بالفعل باب غرفة لتهب سحابة من دخان السجائر خارجة منها. بعد أن دخلنا صرت أستطيع الرؤية، فإذا بي في غرفة المشاهير، فنانون ومذيع وبعض السياسيين، كلهم يدخنون بشراهة. في آخر الغرفة ستارة بيضاء من أمامها كاميرا، وقف خلفها خالد بعد أن ثبّت وضعي واقفًا أمام الستارة، ثم شرح لي أنه يصنع إعلانًا للحملة سيُذاع في التليفزيون، ورغبته في ضم جملتي إلى الفيديو. أعدناها أكثر من مرة، مرة بسبب الخجل الذي كان يرفض خالد أن يظهر على الشاشة، ومرات بسبب طلب خالد أن نعيد صياغتها حتى اتفقنا على صيغة أسخف اقترحها:

- لازم نعـرف، إن بعـد ثـورة زي دي، هدفنـا مـش نصلـح في حاجـة خربانـة، هدفنـا نبنـي بلـد جديـد!

حـين جئـت أقولهـا، قاطعنـي ممثـل شـهير خارجًـا مـن سـحابة الدخـان، كان وزنـه أثقـل بقليـل مـما تخيلـت، وكان لأثـر رؤيتـه وهـو يسـعل مـن التدخـين وقـع غريـب عـليّ، جعلنـي أتلعثـم مـن جديـد. قـال إن الجملـة تعجبـه كـما كانـت في البدايـة دون تعديـلات، ثـم سـألني إن كنـت لا أمانـع أن يقولهـا هـو أمـام الكامـيرا بـدلاً منـي. وافقـت دون تفكـير وتركتهـما يصـوران الجملـة، ثـم شـعرت بمسـحة نـدم خفيفـة عـلى موافقتـي وأنـا أغلـق بـاب الغرفـة عائـدًا للاجتـماع، نـدم لم ألحـظ كيـف سـيطر عـليّ إلا حـين عـدت لكـرسيّ ووجـدت هديـر مـا زالـت حائـرة عـلى هاتفهـا، كأن كل مـا حـدث في غيـابي لم يكـن يعنيهـا.

t.me/qurssan

33

أدرك هـذا الآن. في كل مـرة لعبـت، لعبـت للفـوز، إلا أني كنـت أجـد رومانسـية الهزيمـة أكـثر بريقًـا.

ربمـا لهـذا منعـت نفـسي مـن الـرد عـلى رسـالة هديـر، ولهـذا أيضًـا أعجبنـي الإحبـاط الـذي شـعرت بـه ونتائـج الاسـتفتاء تظهـر ونكتشـف أن الصناديـق لم تحبنـا، رغـم أننـي في اليـوم السـابق ليوم الصناديـق نزلـت مـن مكتبـي عندمـا لمحـت مـن خلـف الزجـاج باسـم يقـف وحـده أمـام ماكينـة طباعـة الإسـتيكرات، وفي نيتـي سـيناريو كامـل، أن أقفشـه متلبسًـا باسـتخدام مـوارد المصنـع دون إذني، ثـم أخضعـه لتحقيـق أعفـو عنـه فيـه في النهايـة، وأسـمح لـه بـأن يسـتمر فيـما يفعلـه. هـذا الخيـال البديـع الـذي كان يـراودني بـين الحـين والآخـر أن أتـوج ملـكًا عـلى عـرش القاهـرة كي أتنـازل عــن كــرسي الحكــم وكل شيء في أثنــاء مراســم التنصيــب، هــذه

اللحظة الساحرة في التحول من الشر إلى الخير التي كنت أتمنى أن أعيشها. إن كان هذا ليمر، فليمر من خلالي. ولكنه باغتني ما إن وصلت أمامه فأفسد عليَّ اللحظة:

- هو ده كان اتفاق مع والدك، وانا ما اتبلغتش ان حضرتك غيرته.

انعقد لساني: "حضرتك"؟ لم أهضم الكلمة.

- باسم، أنا كنت جاي أقول لك اني فاضي بعد الشغل لو عايز ننقلهم سوا!

ثم حاولت ألا أبدو كأني نزلت خصوصًا لهذا الغرض، فصرت أتجول بين العمال حوله وأقول أي كلام.

- إزايّ عيالك؟ وانت مش هنفرح بيك بقى؟ محتاجين أي حاجة؟

لم أكن أعرف أيًّا منهما، ولكنني لم أكن أعتقد أن حياة العمال بها من التنوع ما يكفي لأن يكون الرجل الكبير أعزب، وأن يكون ابن الثمانية عشر عامًا غير راغب في الزواج، وفي كل الأحوال لم أكن أتوقع إجابات غير التي نلتها:

- الحمد لله. كله من خيرك.

بقي باسم في مكانه، صامتًا ومبتسمًا. سخيف كم كان يتكرر هذا معي أمام بشر مختلفين تمامًا، أن أظل أتكلم دون قدرة على التوقف، مع أني لم أرغب في إبهاره، بل فقط ألا أبدو له كمهرج فاشل. سكتّ وأنا ألمح عاملاً يدقق في البوسترات

t.me/qurssan

وهـو يسـاعده في وضعهـا داخـل الكراتـين، فوجـدت في هـذا لحظـة مناسـبة أن يصعـد باسـم بـدلاً منـي إلى المـسرح:

- جمّع الناس كده. باشمهندس باسم هيتكلم معاكو شوية.

طلبـت منـه أن يكلمهـم عـن الاسـتفتاء، وبينـما يخطـب فيهـم عـن ترقيـع الدسـتور الـذي سـيبخس حقـوق الشـعب وخصوصًـا فقـراءه، وعـلى رأسـهم العـمال، كنـت أشـاهد عـم صدقـي وهـو يراقـب المشـهد مـن خلـف زجـاج مكتبـه، محترمًـا ذكاءه في أن يبقـى بمكانـه دون تدخـل. ذلـك الـذكاء لم يسـتمر أكـثر مـن ربـع سـاعة، بعدهـا نـزل يهـرول إليَّ ويسـحبني مـن النـدوة. قـال إن هنـاك مشـكلة، بـل كارثـة. بلغـه حـالاً أن خطـأ في إنتـاج صفائـح الكـوكا كـولا جعـل بعضًـا منهـا قابـلاً للانفجـار مـع أي حـرارة قبـل أن يُفتـح. جهـاز حمايـة المسـتهلك يهددنـا بإغـلاق المصنـع، وكـوكا كـولا تبلغنـا بـأن نوقـف التوريـد حتـى إشـعار آخـر، وعـم صدقـي يقـول لي ويـده ترتعـش إن هـذا سـيخرب بيتنـا وينبهنـي إلى أننـا لسـنا فقـط نخـسر عميـلاً نجنـي منـه أكـثر مـن نصـف أرباحنـا، بـل قـد ندخـل في دوامـة مـن القضايـا والتعويضـات لا نقـدر عـلى سـدادها.

لا أعـرف كيـف كنـت أتـصرف بهـذا الهـدوء، وكيـف أعجبنـي هـذا الخاطـر، الـذي أصبـح كابـوسي الحـالي، وهـو يهمـس في أذني ويقـول إني سـأكون أسـعد إن صـح مـا قالـه عـم صدقـي، إن خـسرت المصنـع وكل مـا حولـه. المهـم أننـي عـدت لمكتبـي، وطلبـت مـن كبـير المهندسـين أن يـأتي بباسـم معـه، غـير عابـئ بالصدمـة التـي كانـت عـلى وجـه عـم صدقـي. في الاجتـماع، كنـت

أسـمع، عـم صدقـي وهـو يؤكـد أن الحـل الوحيـد هـو اسـتخدام علاقاتـه الشـخصية مـع موظفـين بجهـاز حمايـة المسـتهلك، وقدرتنـا عـلى تخفيـض السـعر ثلاثـين بالمئـة لشركـة كـوكا كـولا في إنتاجنـا الجديـد كي نخمـد نارهـم. كبـير المهندسـين أيضًـا كان يسـمع، باسـم وهـو يؤكـد أن هـذا ادعـاء مفـبرك وغـير موثـق بحـالات شـكاوى محـددة، وأننـا واثقـون مـن جـودة إنتاجنـا وليـس علينـا التراجـع، بـل المواجهـة وطلـب تحقيـق حقيقـي.

انتهـى الاجتـماع دون أن أقـرر أي شيء، لأن عـم صدقـي طـرد باسـم مـن مكتبـي حـين اختلـف بحـدة معـه، وبمـا أني لم أكـن مسـتعدًا بعـد للتـمادي مـع خواطـري الانتحاريـة، بـدلاً مـن طـرد عـم صدقـي مـن مكتبـي طـردت نفـسي. لحقـت بباسـم أمـام سـيارتي واعتـذرت إليـه. وبينـما يمـلأ اثنـان مـن العـمال شـنطة السـيارة بكراتـين البوسـترات، فاجـأني أحدهـما:

- رامي بيه. يعني حضرتك عايزنا نروح نقول للدستور لأ؟

صمـتّ لأفكـر، لم أكـن مسـتعدًا لأن أصعـد للمـسرح مـن جديـد، فأجـاب باسـم بالنيابـة عني:

- قول لأ عشان بلدك. مش عشان رامي بيه.

هـذا التهكـم أغاظنـي. كيـف بعـد كل مـا فعلتـه اليـوم مـا زلـت رامـي بيـه. ركبنـا سـيارتي ولكننـا لم نتكلـم حتـى اقتربنـا مـن وسـط البلـد. لم أحتمـل الصمـت فرغبـت في أن أقـول أي شيء. كيـف كنـت أقـول أشـياء مثـل هـذه؟

t.me/qurssan

- ينفع تقول لي على كتب اقراها؟ حاسس اني محتاج أفهم أكتر.

- عايز تفهم إيه؟

- يعني.. حاجة زي اللي حصلت في المصنع من شوية!

- مش فاهم يا رامي.. إيه اللي حصل؟ موضوع كوكا كولا ده؟

- لأ. إنت كنت بتقول عليّ رامي بيه!

- إيه المشكلة؟ ما كلهم بيقولوا لك كده.

- بس انت بتقول لي دلوقتي رامي عادي.

- عشان في عربيتك.

أفزعتني وقاحته، وكنت بالفعل أفكر في طرده، أيًّا كانت العواقب، ولكنه كان سبقني وأشار إلى أن أبحث عن ركنة لأننا وصلنا إلى مقر الاجتماع. قبل نزولنا من السيارة اعتذر، موضحًا أنه كان يقصد المزاح معي، وحين تأكد من وجهي عدم قبولي لاعتذاره ولا سخريته، قرر أن يدخل في الموضوع:

- يعني انت عايزنا نبقى أصحاب؟

وافقت، ولكن كانت له شروط. أن أتوقف عما أسماه أدائي الخيري تجاهه، موضحًا أنه كان من الطبيعي أن أحقق معه، لأنه كان بالفعل يخالف قواعد العمل بالمصنع، وتفضيله لأن تكون علاقتنا مثل اجتماع الاستفتاء الأخير، ندية لا يشوهها أني

أعطيه راتبه، لأني لا أهبه شيئًا ولأنه يعمل مقابل هذا الراتب، وهو شيء قال إن مصطفى حافظ عليه طوال علاقتهما.

- ماحدش مهتم يا رامي بإحساسك بالذنب ده، دي حاجة تخصك انت.

قال وهو يسخر مني لأني أتعامل مع الثورة من هذا المنطلق. الكل مهدد يا رامي، تظن أنك في أمان؟ حتى لو حُلت مشكلة اليوم، غدًا تجد شركة كوكا كولا مصنعًا أرخص للزجاج، وبعده يبلعك حوت يحتكر كل ما نصنع بقواعده الخاصة. ولكن ربما هذه هي المشكلة، أنت أصغر من أن تكون هذا الحوت وأكبر من أن تشعر بخطر كالذي تشعر به الأسماك الصغيرة، ولكنك حتمًا ستؤكل، إن لم ننجح فيما تشارك فيه ظنًّا أنه عمل خيري، وهو في حقيقته وحده ينجينا كلنا من العيش بقوانين البحر.

لم أفهم شيئًا مما قال، ولكنه أعجبني مثل كل كلام باسم الكبير. في الأسانسير، كنت أراه بالكاد بين الكراتين حين رغبت في أن أطمئنه:

- ما تقلقش.. أنا مش هاقول لأي حد هنا علينا، على وضعنا ده يعني.

ثم كان ضحكه الذي أوقع الكراتين منه، ونظرته التي كانت تعرف كل شيء:

- إنت اللي ما تقلقش.

t.me/qurssan

لم نصبح صديقين بالفعل إلا حين تبخرت هذه النظرة من على وجه باسم بعدها بأيام، في المصنع حين ظهرت نتيجة الاستفتاء. أمام التليفزيون في مكتبي، بينما كل الآخرين منهمكون في العمل، ظل يتلعثم ويقول إنه كان متأكدًا من الهزيمة، ثم يقول كيف نعرف كل شيء جميل ولا نعرف كيف نشرحه، ثم قال إن الدنيا سُتسحب من تحت أقدامنا بالبطيء وعينه تدمع، ولم أقل شيئًا، ولكني جذبته إليّ وحضنته حضنًا كلانا كان يعرف بوجوب مروره سريعًا.

t.me/qurssan

34

كنـت منحنيًـا أمـام حـوض الحـمام، تـاركًا رأسي لطنـط دعـاء تحلـق لي شـعري، حـين تـسرب إلى مخـي خاطـر مـع زنّ ماكينـة الحلاقـة، أن مسـألة استشـهادي قـد حُلـت بشـكل مـا دون علمـي، وأن عـليّ فقـط اتبـاع إجـراءات الخـروج من الشـقة دون الاستفسـار عـن شيء. ذلـك بعدمـا أجبـت بدقـة عـن أسـئلة التحقيـق الـذي أجرينـاه عـلى السريـر، عـن مـاذا كنـت أرتـدى بالتفصيـل يـوم القبـض عـليّ، ومـن رآني وأنـا أدخـل شـارع محمـد محمـود، وهـل تكلمـت مـع أحـد. تحمسـت وأنـا أحـكي، تحديـدًا وأنـا أصـف الضعـف الـذي كانـت عليـه هديـر وهـي مستسـلمة عـلى الرصيـف، ولمّـا حاولـت إخفـاء الحـماس مـن صـوتي، وجـدت شـيئي ينتصـب قليـلاً، فأخفيتـه تحـت البطانيـة، ولكـن لم أكمـل كلامـي بعدهـا. نزعـت طنـط دعـاء عنـي الغطـاء، وابتسـمت وهـي تنظـر

إلى انتصابي بطرف عين، قبل أن ترميني بسؤال بالتأكيد لم أكن أعرف إجابته:

ـ إنت عارف إن انت السبب ان انا وابوك ما اتجوزناش؟

لم أرد، ولم أحدد إن كانت تقصد المدح في سلالة مصطفى، أم توبيخي على ما رأت، ولم أكن سأعرف كيف أشرح لها أن لو كان ما بين قدميّ الآن ما زال شيئي، فهو بالتأكيد ينتصب لهدير وليس لها. الأهم أني كنت أفضل الإبقاء على علاقتها بمصطفى لغزًا لي على أن تتضح حقيقتها، تثاؤب لم يتم. عشيقة سرية وابن عالق به، قلت هذه حواديت موظف في بنك، ولا أحب أن تكون قصته. ولكني اطمأننت عندما قالت إن القصة أقدم من ولادتي، من أيام الجامعة حين كان شاعرها المفضل، أراد أن يتزوجا وينجبا، رفضت لأنها لم تكن تريد أن تكون مسؤولة عن أطفال. لا تعرف حتى الآن إن كانت قد أحبت مصطفى وقتها أو حتى بعدها، ولكنها تقول إن اقتراب سنوية رحيله تفقدها توازنها. ذلك قبل أن تصفق بيدها كأنها توقظني وتخبرني أن وراءنا عملاً كثيرًا يبدأ من الحمام.

إجراءات الخروج من الشقة كانت غريبة، بل وتشبه ما سمعته عن إجراءات الدخول في السجون العادية، غريب أيضًا أني لم أمر بأي إجراءات في السجن، ولكنه لا يشككني في صدق أني حُبست، فهذا هو الجزء الوحيد من قصتي الذي أعرفه كما يعرفه كل من في الخارج، وفي كل الأحوال ليس هناك أغرب من أن تكون زنزانتي شقة في جاردن سيتي، وسجّانتي تسليني وهي تحلق شعري بحواديت عن مشاهير السينما الذين

t.me/qurssan

عملــت معهــم وفضائحهــم، عــن أي شيء. أي كلام، مثــل الــذي ستظل تحشـو بـه طنـط دعـاء اليـوم. لم تصمـت للحظـة رغـم أني شـاهدتها تحـاول، تمامًـا مثلـما كنـت في حـضرة مصطفـى. عندمـا مـلأ شـعري الحـوض أعطتنـي الماكينـة كي أحلـق ذقنـي، كان أمـرًا صارمًـا حتـى وإن لم يُقَـل بصيغتـه:

- نحلق دقننا بقى عشان نرجع مزز.

بعـد خروجنـا مـن الحـمام توقفـت طنـط دعـاء عـن الثرثـرة، ولم يحـدث الأمـر كأنهـا أُجهـدت تدريجيًـا مـن الـكلام أو أن حواديتهـا انتهـت، بـل كانـت لحظـة فاصلـة، في وسـط قصـة مـا توقفـت، كنـا في الصالـة، لم أتحـرك كي لا أخـدش تركيزهـا الـذي اتسـعت لـه عيناهـا، وهـي تنقلهـما بينـي وبـين شـبيهي في اللوحـة، وهـي تُنزلـه مـن عـلى الحائـط، ثـم تُنـزل معـه كل زملائـه، ثـم تنقـل التليفزيـون مـن مكانـه، وتنـشر عـلى الحبـل قميـصي الـذي حكيـت لهـا أني دخلـت بـه محمـد محمـود. ولكـن حـين اسـترخت حركتهـا تبعتهـا، وجلسـنا في البلكونـة ندخـن ونتظاهـر بأننـا ننظـر إلى شيء مـا في الشـارع، وحـين تكلمـت أخـيرًا بجديـة عرفـت، مـن تجاعيـد عنقهـا وهـي تشـتد بعـد أن لمسـت بطـرف أصابعهـا قميـصي المنشـور:

- رامــي. تفتكــر أبــوك لــو عايــش كان هيقــول لــك تتــصرف ازاي؟

قالـت وهـي تسـحب قميـصي مـن عـلى الحبـل وتطلـب منـي أن أرتديـه. رميتـه بجانبـي كي أنتبـه، لم أكـن بالفعـل أعـرف، وكنـت سـأذكّرها كـم كان مصطفـى قليـل الـكلام. في اللحظـة نفسـه قلنـا نحـن الاثنـين مقلديـن صوتـه:

- اجري يا عرص..

وضحكنا أخيرًا وكان عليَّ بعدها أن أجيب برد جاد، فقلت:

- كان هيتتريق عليّا. مات وهو بيضحك، ما اظنش كان مهتم يسيب لي وصية.

وكما توقعت، لم يعجبها كلامي، ولكن على الرغم من تأهبها وفردها لظهرها، خرج الكلام منها حكيمًا وهادئًا:

- يبقى ما تعرفش أبوك كويس، ما تعرفش يعني إيه أب أساسًا!

لا أعرف كيف خرجت مني الضحكة مستهزئة كما خرجت، أو أعرف ولا أحب أن أقول إني أحب الأقوياء، وأحب أن أحضرهم في لحظات ضعفهم، وإني في هذه اللحظة تحديدًا كنت أرغب في قول أي شيء يُبكيها، لا لكي أتلذذ بدموعها، ولكن كي أواسيها وأعتذر، فقلت مُهاجمًا سجّانتي:

- ولا انتي تعرفي.

ولكنها لم تغضب، كأنها كانت متوقعة سخافتي ثم سألتني:

- هو ابوك كان قايل لك إيه عني؟

أجبت بنفي أنه ذكر أي شيء عنها من قبل، فقالت إن كلاً منهما كان الصندوق الأسود للآخر، وشددت:

- إياك تسألني حاجة عنه. مستحيل أقول.

ولكن حكت لي أنه كان الوحيد الذي يعرف بقصتها مع هاني أبو العز، قبل انتشار الفضيحة بسبب الفيديو المُسرب، ثم حكت لي دون سبب القصة. هاني كان متزوجًا وله أولاد،

t.me/qurssan

وطنـط دعـاء كانـت لا تريـد الـزواج لأنهـا كانـت تحـب عملهـا في السـينما وتريـد التفـرغ لـه. تصـف علاقتهـما بالمثاليـة:

- كنـت باحبـه وقـت مـا احـس اني باحبـه. وهـو كـمان. بنقـدر نبعـد عـن بعـض مـن غـير مـبرر، ونقـدر

نبقـى في حضـن بعـض بـس عشـان احنـا الاتنـين عايزيـن ده في نفـس اللحظـة.

لا تذكـر متـى راودتهـا فكـرة الإنجـاب، تعتقـد أنهـا أتـت بعـد رؤيتهـا مـرة لأولاده صدفـة. قالـت لهـاني فوافـق، وبـدأ إجـراءات طـلاق زوجتـه الأولى لأن طنـط دعـاء رفضـت أن تكـون الثانيـة، واشـتريا معًـا البيـت الـذي تحبسـني فيـه الآن. اتضـح أيضًـا أن فكـرة تصويـر فيديـو الفضيحـة كانـت فكرتهـا. كانـت تخـشى مـن اللحظـات التـي ستشـعر فيهـا بعـبء الطفـل الـذي سـيولد، ولهـذا قـررت توثيـق كل محاولـة مـع هـاني للإنجـاب؛ كي تتذكـر في لحظـات العـبء هـذه أن عـلى الأقـل صناعـة الطفـل كانـت ممتعـة. وبالفعـل حملـت، وألقـت بـكل الفيديوهـات مُحتفظـة فقـط بالشريـط الـذي كانـت تظـن طبقًـا لميعـاد الحمـل أن الصناعـة الجميلـة تمـت فيـه. بالطبـع قبـل وصـول الشرطـة إلى هـذا الشريـط وهـي تقتحـم البيـت عـلى هـاني، بسـبب مـا تقولـه طنـط دعـاء عـن رفضـه لمشـاركة الدولـة بالإجبـار في مصانعـه. سـافرت طنـط دعـاء، وأجهضـت الطفـل الـذي بـات مصنوعًـا عـلى المشـاع، وعـادت بعدهـا بسـنة مقـررة أن تحتفـظ بالبيـت، ولم تسـع بعدهـا بسـنوات للقـاء هـاني بعـد خروجـه مـن السـجن ولم يسـع هـو أيضًـا، وصـارت الآن عـلى حـد قولهـا:

- دلوقتي أنا ولا اكل ولا اشرب، بس اعرف اخلّف.

ضحكت هي، ولم أضحك معها على جملتها الشهيرة. بدلاً من ذلك اعتذرت، وأعتقد أني كنت صادقًا في اعتذاري، واعترفت لها أني كنت أشاهد مثل كل الناس الفيديو دون دراية لأني أؤذيها. ولكنها لم تبدُ مهتمة، كانت طاقة ابنة العشرينات المخيفة التي بدأنا بها الصباح قد دبت فيها من جديد، وتركتني إلى الصالة منشغلة بتركيب عدسة على كاميرا ثم تثبيتها على حامل، وتحريك كرسي أمامه. لم أكن منشغلاً بها بقدر السعي لفهم مغزى أن تكشف لي هذا السر، ولم أسأل لأنها نادت عليّ، وقبل أن أقوم من كرسيَّ باغتتني:

- أنا باحكي لك علشان انت بقيت أب دلوقتي، المفروض تفهمني.

لم يكن صداعًا الذي شعرت به، بل انقسام رأسي إلى نصفين بينهما فراغ، جلست على الكرسي أو وقعت عليه، المهم أني استغثت بطنط دعاء أسألها ولم أكن أعرف أي إجابة كنت أفضّل:

- أحا.. هدير حامل؟

تراجعت فورًا مشككًا في احتمالية أن أكون صاحب الطفل. لا أعرف كيف خرجت منها الضحكة مستهزئة كما خرجت، أو لم أكن أتوقعها، من شخص طيب مثل طنط دعاء إلى شخص مثلي لم يتخيل نفسه أبدًا قويًّا حتى يرغب أحد في كسره، كرهتها حتى تكلمت:

t.me/qurssan

- أم الفيلم الهندي اللي انت عايش فيه ده على أم هدير.

ثم جلست بجواري على طرف الكرسي، وجلست أنصت لها بلا إرادة، عن أبنائي الذين أنجبهم موتي، والذين لا أعرف منهم غير أصدقائي القليلين، المطلَقين بالشوارع متشبهين بكلمة قلتها هنا أو هناك، يتغذون على تتبع مسار أبيهم الذي شاءت الظروف أن يكون قد منحهم القليل جدًّا ليرشدهم إلى طريق يرضونه به، أطفالي الذين يرون مستقبلهم في إسعاد أبيهم في مرقده، أب لم يعرفوه إلا حين مات، فأصبحوا جوعى للقصص التي يرويها كل سعداء الحظ الذين رأوه في حياته. اتضح أن رحلة البحث عني لم تقتصر على الأقسام والمستشفيات والمشارح، بل شملت أيضًا النبش في أرشيف كل من كان يحمل كاميرا معه إلى الميدان، وكل من قال إنه يعرفني، وكل حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي. فشلوا في العثور على أي وصية لي، أي أثر لحلم يصبح من واجبهم تحقيقه لي. قاطعتها وأنا أقف من مكاني:

- طب ما فيه بتاع ألفين شهيد؟

- بس انت الوحيد فيهم اللي عايش!

ثم قفزت فورًا إلى فكرتها المجنونة التي كانت تسوّيها على مهل منذ الصباح:

- فيديو.. نصوره دلوقتي!

- طب ما انا قلت كده م الأول.

- لا مش العبط بتاع سوري يا شباب أنا كنت ع البحر ده.

- أنا مش عايز اكدب.

- وانا ما طلبتش منك تكدب!

قالت إنها ستتولى مهمة الكذب. لا يهم أين كنت، فقط استرجع نيتك الطيبة. هذا ينجيك وينجينا. بالتأكيد بها شيء أعلى قيمة لنتتبعه من جثتك التي لن نجدها أبدًا. النيات لا تنتهي صلاحيتها، وكل ما نحتاجه تعديل بسيط في الزمن. صحيح أنه ليس للموتى نيات، ولكن لا تشغل بالك بالتفاصيل. سأهتم أنا بها، إظهار الفيديو على اعتباره قديمًا واختراع قصة الحصول عليه وتسريبه للإنترنت. ليس عليك الآن سوى تخيل نفسك قبل شهرين، ما زلت في بيتك تستعد للنزول إلى محمد محمود غير عالم بمصيرك، ماذا تريد أن تقول لنا عما تريد؟

ضحكت، وكنت أريد أن أتهمها بالجنون، ولكنني لم أقل شيئًا؛ لأني لم أدرك جديتها إلا وهي تضعني على الكرسي، ومن خلفي الحائط الذي صار بلا ملامح. تثبت كاميرا أمامي وتقف خلفها. حين شغّلتها، انعقد لساني، كنت خاليًا من أي شيء. بعد دقائق من الصمت، أراحني أنها أوقفت التصوير. تحركت من خلف الكاميرا. أمسكت بلوحة شبيهي ثم غابت لثوانٍ، وعادت بقلم كُحل في يدها ورسمت لي به هالات سوداء تحت عيني، قبل أن تعود خلف الكاميرا من جديد، وهي تُذكرني أن لا أحد كان ينام بما يكفي في القاهرة. هنا لمحت قميصي متدليًا من كرسي البلكونة، ولسبب ما شعرت أن عليَّ تنبيه طنط دعاء إلى أني نسيت ارتداءه، وأني أخشى ألا يكون على مقاسي.

t.me/qurssan

35

- ما تركزوش مع الأبطال، المهم القصة نفسها...

- يا رامي بلاش دراما. إنت شهيد، مش واحد عارف انه رايح ينتحر.

خلف الكاميرا كنت أرى طنط دعاء، نصف وجهها. حين قامت من كرسيها، رأيت وجهها كاملاً ومحبطًا. استغللت وضعي الجديد كشريكها في هذه الخدعة النبيلة، وعبّرت عن رغبتي في شرب فنجان من القهوة، ولما استجابت وتحركت إلى المطبخ، جلست وحدي أمام الكاميرا، أعصر دماغي، محاولاً تقمص دور شهيد لا يعرف أنه يقول كلماته الأخيرة، وأفشل. ربما ليس فقط لأني رغمًا عن الهلع الذي كنت أحس به طوال السنة، مع سماع صوت أي رصاصة مهما بعدت، لم أتخيلني أبدًا أموت في الثلاثين من عمري، ولكن أيضًا لأنه كان من

المفـترض أن أقـول كلامًـا مهـمًا، والأسـخف كلامًـا ليـس موجهًـا لأحـد بعينـه، وبالتـالي لا أسـتطيع أن أسـتخدم فيـه مهـارتي أن أقـول لـكل واحــد مــا يحــب ســماعه منــي.

كيــف يُقــال الــكلام في الهــواء؟ شيء أعــرف أني فاشــل فيــه، وليــس أمــام الكامــيرا وحدهــا، في المظاهــرات مثــلاً كنــت أخجــل إذا لاحظنــي أحــد يعرفنــي وأنــا أهتــف، ولســبب أجهلــه كنــت عــادةً أضحــك في وجهــه في لحظتهــا ســاخرًا مــن الهتــاف. حتــى أمــام الفيــس بــوك، كنــت أقــضي ســاعات في محاولــة البحــث عــن كلام هــامّ أكتبــه، ســاعات كانــت تنتهــي بــأن أعيــد نــشر كلام صديــق، أو نــشر أغنيــة أتخيلهــا تقــول الــكلام الهــامّ بــدلاً منــي.

مــرة واحــدة تجــرأت، في واحــدة مــن تلــك الليــالي حــين كانــت تباغتنــي هبّــات الرغبــة في رؤيــة هديــر، وكنــت أعــرف عــن ماراثــون مشــاهدة الأفــلام، الــذي كانــت تنظمــه طنــط دعــاء كلــما فرضــوا علينــا حظــر التجــول. ليلتهــا أعادتنــي الدبابــات إلى بــاب الكمبونــد، وعــلى الرغــم مــن قــدرتي النــادرة عــلى البقــاء في البيــت وحيــدًا لأيــام، أزعجنــي أن يكــون هــذا دون قــرار منــي، لدرجــة أني أرســلت إلى هديــر عــلى تليفونهــا أعتــذر عــن عــدم الحضــور، ومــع عــدم ردهــا بــدأت أخجــل مــما أرســلت، وأتخيــل وجههــا وهــي تضحــك عــلى رســالتي مــع المدعويــن إلى بيــت طنــط دعــاء، عــلى محاولتــي البائســة لجرّهــا إلى الــكلام دون ســياق. وفي محاولــة بائســة أخــرى لإلهــاء نفــسي عــن إرســال أي كلام جديــد لهــا، انفجــرت كتابــةً عــلى الفيــس بــوك، كتبــت كلامًــا عميقًــا، أذكــر أني وصفــت القاهــرة بمدينــة الملــل، وانطلقــت في الحــكي عــن عيشــتنا وســط الديناصورات

t.me/qurssan

المنقرضة، نقضي حياتنا في التمرد على أشياء صارت طبيعية، رغمًا عن معرفتنا بكيف يعيش البشر، في بلاد لم يعد أحد مضطرًّا فيها إلى الإجابة عن أسئلة، حول طول شعره أو وشم على كتفه، ولا يوجد فيها ضباط بإمكانهم استجوابنا عن طبيعة علاقاتنا مع صديقاتنا في الكمائن، ولا متحرشون يحولون سيرهن في الشارع إلى معركة حربية، ولا ننتظر فيها قرار موظف فيما إذا كنا نصلح لمشاهدة فيلم معين أم لا، ولا نحتاج فيها إلى سبعة تصاريح كي ننظم سباقًا للموتوسيكلات، ولا يُتهم فيها محبو موسيقى الميتال بعبادة الشيطان.

أذكر أيضًا أني ليوم كامل، جلست عالقًا أمام اللاب توب في انتظار أن يضغط أي أحد زرًّا، يبدي إعجابه بما كتبت، ولم يضغط أحد حتى يئست ومسحته. التعليق الوحيد الذي حصلت عليه كان من باسم، هذه مشكلات المُرفهين ويمكنها أن تؤجل، ولم أعترض؛ لأني لم أكن أريد أن أبقى وحدي، بعدما تجاهلت إلقاء التحية على الأصدقاء ونحن نمر من أمامهم، بل وافقته، فقد كنا بالفعل في لحظة أهم، في بيت الرعب الذي كنا نخشى المرور بجواره قبل الثورة، اقتحمناه ولهونا فيه كأطفال في رحلة، وباسم كان يحمل بيد بشكيرًا وردي اللون، جلبه من حمّام أحد اللواءات، وبالأخرى كان يحمل ملفه، ثم رن جرس الهاتف، وبين كل من كانوا يتجولون في المكتب كسياح في متحف، كنت الأقرب إلى الهاتف، فأمسكت به وقلت بعد أن سألني المتصل عمن أكون:

- إحنا الشعب يا روح امك، ما تتصلش هنا تاني.

أفكـر الآن في التصفيـق الـذي حظيـت بـه مـن كل مـن كانـوا في المكتـب، وأقـول إن هـذه الجملـة بالفعـل كانـت أهـم وأجمـل، ولكنهـا لم تكـن كافيـة، ذلـك الشـعور بالنقصـان الـذي مـلأني، والنـاس تجـد ملفاتهـا بـين ركام الأوراق التـي كانـت متناثـرة في كل مـكان بالمبنـى، أوسـمة المحاربـين القدامـى، التـي عاهـدت نفسي ألا أفـوت فرصـة الحصـول عليهـا قبـل أن ننتـصر، أو ننهـزم، بالكامـل. وبالفعـل لم أكـن أفـوت فرصـة منـذ هـذا اليـوم، سـاخرًا مـن بـاب هديـر الضيـق، الـذي كنـت أعتـبره البـاب الوحيـد لهـذا العـالم، وتخيلـت أني لـن أكـون إلا إذا كنـت فيـه، وتشـبثت ببـاب أوسـع، كان يطـل عـلى منظـر جديـد كل يـوم، فتحـه لي باسـم. مـن اجتـماع إلى مظاهـرة، ومـن حملـة في حـي إلى اعتصـام في شركـة، أيـام كنـت أقضيهـا معـه بعينـين مفتوحتـين أنهـل مـن كل جديـد، فـكأني أروي الجفـاف الـذي كانـت عليـه حيـاتي.

أيـن ذهـب هـذا كلـه ولمـاذا لا يخـرج منـي؟ غضبـت وقمـت مـن مـكاني، أعيـد تشـغيل الكامـيرا دون انتظـار طنـط دعـاء وقهوتهـا. وقلـت، ننـزل الشـارع لأنهـم يقتلوننـا بمئـة طريقـة أسـهلها الرصـاص، ولأني كلـما أمـر عـلى كوبـري قـصر النيـل، لا أتذكـر مـن قُتلـوا عليـه في جمعـة الغضـب، بـل عبـد الحميـد شـتا الـذي قفـز مـن فوقـه ومـات؛ لأن الدولـة لم تحتمـل أن يكـون الأول في اختبـارات وزارة الخارجيـة، فرفضـوه وحـده مـن بـين المتقدمـين؛ لأن بلدنـا لا يصـح أن يمثلـه ابـن فـلاح. ثـم توقفـت، أمامـي القهـوة وطنـط دعـاء التـي بـدأ صبرهـا ينفـد:

t.me/qurssan

- لـو سـمحت، هــي مــش ناقصــة. شــهيد نــازل عشــان شــهيد، وميتــين أم رومانســية ســاذجة.

وأخرجـت مـن شـنطتها مُرطبًـا للشـفاه، مـرت عليـه مرتـين وهي مُقفلـة فمهـا، وأعادتـه مـن جديـد. ربمـا تفعـل هـذا كلـما تيأس، لأن هـذا بالضبـط مـا فعلتـه حـين قابلتهـا أنـا وباسـم في مشرحـة زينهـم، قالـت لنـا، خالـد سـعيد وقـد خلعنـا مبـارك لـه، لمـاذا إذًا نثـور الآن؟ ثـم اسـتخدمت مُرطـب الشـفاه قبـل أن تتمالـك نفسـها، وتتركنـا لتـواسي أم الشـهيد الجديـد، الـذي كان لموتـه رهبـة الأشـياء الأولى، بالطبـع قبــل أن يصبــح مشــوار المشرحــة روتينًــا شــهريًّا طـوال السـنة. قيـل أيضًـا إنـه مثـل خالـد سـعيد، بلـع لفافـة بانجـو ولكــن داخـل السـجن، وكنــت أنــا وباســم نجلـس بجـوار أخيــه في صمــت، نواسـيه، وحــين انصرفنــا، ثــار باســم عــليَّ عندمــا قلــت لــه إن ثــورة جديــدة ســتقوم غــدًا؛ مــن أجــل هــذا الشــاب. أذكــر كلامـه بالحـرف، عـالم عبيطـة، ننذهـش؛ لأن البلـد لم يـثُر مـن جديـد بسـبب واحــد أو اثنــين ماتــا في التحريــر. كأنهــا ثــورة في ســويسرا، ليســت في مــصر، التــي صــار فيهــا مشــهد القتــل جــزءًا مــن اليــوم، في أبسـط خناقـة عـلى أتفـه سـبب. أو اندهاشـنا مـن وقـوف النـاس في طوابيرهــم لأخــذ الزيــت والســكر، بــدلاً مــن طوابيرنــا التــي تبيــع الأحــلام. نــاس مــين؟ النــاس يشــجعون مــن يشــعرون أنــه عــلى وشــك الفــوز، ونحــن نلعــب للخســارة متخيلــين أنــه سيشــفع لنــا حُبنــا للعبــة الحلــوة.

استراحة. ذقت القهوة. كانت باردة، ولكن شربتها ساعيًا لأن تنزلق معها أي فكرة إلى مخي، قبل أن تسحبها من أمامي طنط دعاء وهي تنهرني:

- حاجة لقدام يا رامي.. حاجة مافيهاش دم، فيها أي أمل، حتى لو مش حقيقي.. إنتو عندكو كام سنة انتو؟

للحظة تُهت، ولم يعد أهم شيء هو الوصول إلى كلام أقوله أمام الكاميرا، بقدر أن أفهم كيف تقول طنط دعاء كلامًا قاله لي باسم، وقد كانت دائمًا تحذرني من الالتصاق به، ساخرة من أنه ما زال يعيش في الستينات. والأهم، كيف يشبه هذا الكلام ما كان يقوله لي كريم، وهو يدعوني في مكالمات أسبوعية كي أنضم إلى حزب سياسي ناشئ، كان باسم يسخر منه ويصفه بـ"حزب الشباب الطاهر البريء". كريم كان يقول إننا لن ننجز شيئًا، إلا بأن ننظم أنفسنا ونخوض الانتخابات، أن يمثلنا ناس يحترمون عقولنا، حتى وإن كانوا يتآمرون علينا، ولكن كريم نفسه أيضًا حكى لي عن رحلة بني سويف، التي ذهب فيها مع الحزب مُحملين بكراتين الطعام والملابس، وعن مباراة كرة القدم التي لعبوها مع شباب القرى، وغلطته الشنيعة حين طلب كوب مياه من أحدهم، ولم يقدر أن يشربه لأنه لم يعرف كيف يمكن أن تُشرب المياه ولونها أصفر، وأذكر جيدًا ما قاله قبل أن يخبرني عن تفكيره في العودة إلى الجامعة بإنجلترا، وأن الثورة لا بد لها ألا تكون إعلانًا للتبرع يُذاع بين مسلسلات التليفزيون:

t.me/qurssan

ـ ده لازم يتهد.. مجنون اللي يتخيل انه هيصب إزازة معدنية في بحر، فيعرف يشرب منه.

الغريب، لم يكن رفض طنط دعاء لجملته حين اقتبستها أمام الكاميرا، وقولها إنها تقدّر انجذابي لشخصية ابن الأغنياء المتعاطف مع الفقراء، إنما تحذرني من التمادي فيها، وهي تدعوني للتفكير في جمهوري، وألا أضعه أمام محك الاختيار بيني وبين حياته كما يعرفها، وتقول إنه يُحتمل أن نفشل؛ لأننا لم ننجح في طمأنة أحد بأننا لسنا خطرًا عليه، ولكن الغريب كان إصرارها أني اقتبست هذه الجملة من فريدة، بل وإنها تتذكر أن فريدة قالت أمامها هذه الجملة بالصيغة نفسها، قبل أن تقوم من مكانها مُحبطة بشكل شككت أن يفلح معه مُرطب الشفاه:

ـ أنا هاعمل كيكة.

لم أهدأ، شيء ما ثار بداخلي، لم أكن أعرف من أين ينطلق كي أوقفه، ظللت أنظر إليها في المطبخ، وإلى الكاميرا، متأكدًا من أنها تعرف كل شيء، وأنها تراني مثلما أخشى أن أرى نفسي الآن، إسفنجة حائرة تتقاذفها الأيادي، يختلط في أحشائها الصابون مع ما ينظفه، تنضح الآن بكليهما في عصرة واحدة. ووجدت دموعًا تنزل على خدي، حين توقفت فقدت السيطرة. شغلت الكاميرا وانطلقت غير عابئ بأن أسمع شيئًا منها، أنسخ من هنا وهناك، من كل عابر مر بي وظننت فيه حكمة تُفهمني أي شيء عما يحل بي، عن كل ما سمعته عن ظلم يسحق الجميع ولم أشهده، وعن رعب يكتم الأنفاس كنت متأكدًا من أنه لن

يقترب، وفقر لا أعرف كيف يكون العيش به. أنسخ من أي أحد، حتى من سيادة اللواء، وأقول إننا لسنا بلدًا ابن صدفة ولا ابن امبارح. نحن أول دولة في العالم، لنا تاريخ وقيمة. من سنوات ليست بعيدة، كانت للباسبور المصري هيبته في أي مطار، وإن كان أجدادنا يشعرون بأي شيء الآن، فبالتأكيد هو العار على ما وصلنا إليه.

ثم أرد عليه سريعًا:

- ولا مصر أمي، ولا عايز ابقى ابن حد.

هذا الكيان فارغ المعنى. كلما لم يجدوا شيئًا يقولونه، يطلبون منا التضحية لأجله. "نموت عشان مصر؟" لا، "عشان نفسنا". أنتم تشعروننا بالإهانة؛ لأنكم تحكموننا وأنتم حتى أتفه من أن تتآمروا علينا، فقررتم إقناعنا بالذراع. على الأقل اكذبوا بشيء يقنعنا.

لا أتوقف إلا وطنط دعاء تضع الشوكة، ومن فوقها الكيكة، في فمي. لم أعرف إن كان مذاقها جميلاً، أم هي الراحة التي سكنتني بعد يقيني أنني انتهيت من تقمص كل من أعرف، حتى وإن كانت النتيجة أني فشلت تمامًا أن أكون أبًا لأي أحد. أعادت الكاميرا إلى حقيبتها وجلست بجواري، تهدئني بيدها على ظهري، وكنت بالفعل قد أوشكت على أن أعود لطبيعتي حين وقفت تلك اللقمة في حلقي، وأنا أتذكر أنني لم أقتبس شيئًا من هدير، وأنني لا أنسى ذلك اليوم الذي كنت سعيدًا فيه، وأنا أقف بجوار باسم وهو يهزمها بالضربة القاضية، حين عاودنا في الصيف الاعتصام بالميدان. كنت في مجموعته التي

t.me/qurssan

كانـت تتـولى مهمـة التأمـين. قالـت لـه ونحـن في الخيمـة، أمـام الشـاب الـذي ظـل يدعـي أنـه أخـو أحـد الشـهداء لأسـبوع كامـل:

- هو عشان شكله غلبان يعني يبقى مخبر؟

وقال باسم:

- ماعلش.. ابقي اشتكينا لما تطلعي ع التليفزيون.

ولم أقـل شـيئًا، أي شيء دفاعًـا عنهـا، ولم أقـل أيضًـا أي شيء لباسـم حـين قـال عنهـا، إنهـا كانـت مشروعًـا عظيـمًا وفشـل.

قبـل أن أنتهـي مـن الكيكـة، سـحبتها طنـط دعـاء مـن أمامـي، وأدخلتنـي في الـدور الـذي لم أود أن أؤديـه، دور ابنهـا، أجلسـتني في حضنهـا، تدلـك ظهـري وتدعـك مفاصـلي حتـى أغلقـت عينـي. لم أنَـم، شـعرت بـشيء قريـب مـن الإغـماء. أغلقـت عينـي وفتحتهـما عـلى هديـر، في بهـو سـفينة تيتانيـك، والمـاء مـا زال تحـت ركبتينـا، أنتظرهـا حتـى تقـف أمـام كامـيرا وراءهـا خالـد، ثـم أنـسى اتفاقنـا أن نغنـي، وأنـا أكتشـف أننـي في بيتـي، وأهـرب إلى الكواليـس بحثًـا عـن كيـس فـول سـوداني كنـت متأكـدًا مـن أن هديـر خبأتـه في دولاب مصطفـى، أجـري صاعـدًا السـلالم، خائفًـا أن سرقتـي ستُكشـف رغـم علمـي بـأن موقـع التصويـر في بيتـي. وبينـما أفـرغ دولاب مصطفـى مـن كل شيء، أسـمع صـوت غنـاء هديـر آتيًـا مـن الـدور الأرضي، كأنـه سـافر لمسـافات طويلـة: "قـوم نحـرق هالمدينـة ونعمـر واحـدة أشرف". أخـرج مـن الغرفـة مفزوعًـا لأجـد البيـت بـلا سـلم لأنـزل عليـه، وعـشرات الأطفـال مـن تحتـي يلهـون بـكل شيء في الصالـة، يخبطـون عـلى جـدار بكـرات البليـاردو، فينهـار إلى قطـع مـن الفـول السـوداني تُغرقهـم كلهـم. لا أفكـر في إنقاذهـم،

أسـمع صـوت هديـر مـن داخـل غرفـة مصطفـى: "مـا زالـك بـلا شي مـا فيـك تخـسر شي"، أدخـل لأجدهـا جالسـة عـلى دكـة خشـبية، مقبوضًـا عليهـا بتهمـة لا أعرفهـا، أشـم رائحـة الملـح يبتـل ثـم أجـد المحيـط يهيـج مـن الـدولاب، يغرقنـي حتـى ركبتـي، تختفـي تحتـه هديـر، أغطـس وأمـد يـدي لهـا ولكنهـا تفلـت منـي، نازلـة أعمـق وأعمـق، حتـى تسـتقر في الـدور الأرضي. قبـل أن ينتهـي نفـسي، تمسـك يـد غليظـة بـرأسي وترفعنـي مـن المـاء، أفهـم مـن بـودي أني متهـم بسرقـة بيتـي، يقـول معتـذرًا إنـه لا يملـك شـيئًا سـوى تطبيـق القانـون، وإن العقوبـة تنـص عـلى أن أسـتكمل الفيلـم، أيًّـا كانـت طلبـات المخـرج.

أسـتيقظ منتفضًـا، فتقـع طنـط دعـاء مـن جـواري عـلى الكنبـة إلى الأرض. أصرخ فيهـا، أنطلـق في البيـت كرصاصـة طائشـة، أسـب الجميـع، هـي عجـوز تريـد اسـتخدامي بعـد أن فقـدت صوتهـا، وفريـدة تحـب الجميـع لأنهـا تكـره نفسـها، وباسـم يكـره الجميـع لأنـه ليـس ذكيًّـا بمـا يكفـي كي يكـون مثلهـم، وعـم صدقـي الرجـل الأمـين الـذي لا يعـرف أني تجاهلـت سرقاتـه التـي كان يكشـفها لي المحاسـب شـهريًّا، تخـرج منـي الكلـمات فأسـمعها كأني أتعـرف إليهـا، أجـري إلى المطبـخ وأبحـث عـن سـكين، ثـم ألقـي بـه عـلى الأرض وأجـري إلى طنـط دعـاء، أرتمـي في حضنهـا وأبـكي، ثـم أنـام مرتاحًـا كـما لم أكـن مـن قبـل.

في الصبـاح، أصحـو في مـزاج رائـق، أنفلـت مـن حضنهـا. أفتـح الكامـيرا مـن جديـد وأقـول أمامهـا أقـصر جمـلي، دون أن أفكـر في مصدرهـا:

t.me/qurssan

- الخوف من الموت، خوف من الحياة.

أغسل الأطباق في الحوض. أتفنن في طهو إفطار. أرتب السفرة وأضع عليها الأطباق. أوقظ طنط دعاء. وبينما هي في الحمام، أجهز الكاميرا كي ترى جملتي الأخيرة. تخرج من الحمام وبيدها هاتفها، وقبل أن أريها ما قلت وهي نائمة، تُريني ما بيدها، فيديو على اليوتيوب، اسمه "جندي الثورة الأول- 24 يناير"، مدته خمسون ثانية، ومُلتقط من بلكونة، فيه أنا أتجول وحدي في شارع بوسط البلد، خالٍ تمامًا من أي شيء، قبل أن يدوي ما لا يمكن تخيله، إلا أن يكون صوتي في الشارع، لتبدأ الشقق إشعال الأنوار كلما مررت عليها.

- السكة مش بعيدة فاضل على حسني زقة، هنشيله في يوم وليلة لو كلنا قلنا لأ!

وقبل أن أقفز من مكاني، وأقول لها إن هذا صوت مسحراتي الثورة، وإني يومها لم أهتف، إنما هربت إلى غرفتي في سميراميس، تكون قد وصلت إلى باب غرفتها، وقبل أن تغلقه عليها تقول لي إن أحد الثوار العاملين بشركة محمول، قد سرّب معلومة أن هاتفي قد فُتح، ونجح في تحديد الموقع. مبنى حكومي في شارع صلاح سالم، وأن دعوات انطلقت منذ ليلة أمس، ونحن منشغلون بالتصوير لاعتصام مفتوح أمام المبنى حتى إطلاق سراحي، حيًا أو ميتًا.

- اعمل اللي انت عايزه يا رامي. أنا تعبت وعايزة أنام!

t.me/qurssan

36

أحبطنـي أني لم أحـس بـأي شيء جديـد، وأنـا أفتـح بـاب عـمارة طنـط دعـاء وأخـرج منـه إلى الشـارع. الرهبـة نفسـها مـن الاتسـاع والحريـة التـي تملكتنـي بعـد أن أفـرج سـيادة اللـواء عنـي، والتـي كانـت تخيفنـي طـوال السـنة كلـما سـمعت الأصدقـاء يتناقشـون في أمـور مـا بعـد الانتصـار، كيـف سيشـعر كل مواطـن أنـه لا يمكـن اتخـاذ قـرار دون العـودة إليـه. مجـرد التفكـير في هـذا كان يُجهـدني، أن أضيّـع سـنواتنا المقبلـة في اسـتفتاءات لتقريـر مصـير شـبكة الـصرف الصحـي، أو ميزانيـة وزارة الصحـة، أو أن أكـون مُطالبًـا بإبـداء رأيـي عـن كبفيـة تطويـر مناهـج التعليـم، كل مـا كنـا نعـرف أن آخريـن يديرونـه بشـكل مـا دون العـودة إلينـا. لا يمكـن أن أكـون قـد شـاركت أصدقـائي طريقهـم هـذا، وأنـا أحـب الطريقـة التـي كان يُـدار بهـا كل شيء، فهـذا انفصـام يقتـضي أن أتخيـل نفـسي أعيـش بشـخصيتين متناقضتـين، عـلى الرغـم مـن

أني أتخيل مشكلتي، هي أنني الشخص نفسه مهما مر عليّ، ولكن أفكر الآن أني كنت سأنسحب أسرع من الميدان، لو كانت لي خطة محددة عما كنت أفضّل قضاء سنواتي المقبلة أفعله، أو ربما هي تلك الغريزة المزعجة التي تطغى على أي شيء له عقل، غريزة السعي للحرية التي كان باسم يحكي عنها، ربما حركتني تلقائيًّا مثلما حدث بعد أن أقفلت طنط دعاء عليها باب غرفتها، دون تفكير جمعت ما في شنطتها من أموال، وفي دقائق قليلة وجدتني في الشارع.

الشيء الوحيد الذي اختلف -على الرغم من أني بعد خطوات قليلة، خطرت لي الفكرة نفسها التي باغتتني فور خروجي من سجني الرسمي، أن أسافر إلى الجونة ولا أعود أبدًا إلى القاهرة- أني لم أعد قادرًا على التعامل مع هذه الأفكار بجدية. أصبحت عندي مثل ما يحكونه عن عروض الزواج التي تأتي مباشرةً بعد جنس جيد، وبالتالي، طوال مشيتي لوسط البلد، كنت أستمع بملل إلى خطتي الجديدة، عالمًا بأني لن أنفذ أي جزء منها، لن أحجز في أقرب أتوبيس إلى الجونة، ولن أبيع هناك مركبي لأسرع مشترٍ ثم أهاجر إلى الجنوب، ولن أسعى قبل أن تنتهي أموالي إلى أن أقابل أحد مهربي السلاح، فيمررني مع بضاعته إلى السودان ومنه إلى أي بلد آخر، ولن تجبرني هذه العوالم السرية على أن أعمل في مهنة خطرة، وأن أعيش حياة المطاردين التي سأنهل فيها من جبال الأدرينالين دون حساب، ولن أدع الماضي يدفن حواديته كما يرى، وأقنع نفسي بأنه ما زالت هناك قصة يمكن أن أحكيها كما سأعيشها.

t.me/qurssan

بقـدر مـا كانـت هـذه الأفـكار مغريـة، كنت مُجهـدًا، ومسـتمتعًا بجلـوسي عـلى مقهـاي المفضـل بوسـط البلـد، دون التوتـر المعتـاد مـن أن أقابـل أي صديـق. التمشـية في وسـط البلـد نفسـها كانـت ممتعـة. بالطبـع كان هنـاك الموظفـون والسـيارات والمحـلات، ولكـن هـذا كلـه كان وسـيظل ديكـورًا للحـي، وسـط البلـد تحيـا فقـط حـين نكـون فيهـا، وكنـت واثقًـا بـأن أبنـائي تركوهـا اليـوم لي، أعبـث بهـا كـما أريـد، وهـم يبحثـون عنـي بعيـدًا في صـلاح سـالم.

المشـكلة التـي أدركتهـا بعدمـا جلسـت، كانـت في السـور الـذي يطـل عليـه المقهـى. لم أحـدد إن كانـت مشـكلتي وجـود صـورتي عليـه، أم اسـتيائي مـن تزاحـم صـور الآخريـن حولـه، تغطـي كتفـه وصـدره، فتبقـي منـه وجهًـا بـلا رقبـة. شربـت القهـوة وطلبـت فنجانًـا آخـر وأنـا أغـيّر مقعـدي إلى كـرسي في مركـز المقهـى لا يطـل عـلى شيء، ولم يفلـح هـذا في إزالـة التوتـر، وبالتـالي التفكـير في الورطـة التـي وجـدت بداخـلي رغبـة جديـة في الانفـلات منهـا، دون أن أعيـش بقيـة حيـاتي مُحرجًـا ونكتـة في أفـواه الجميـع، ودون أن أضطـر إلى فقـدان كل مـا أملـك، ولم أصـل إلا إلى أن الورطـة لـن تنفـك إلا بـأن أمـوت، وليـس أي مـوت، بـل بطريقـة دراميـة أكـثر مـن طريقـة مـوتي الحاليـة، أن أزايـد عـلى الأسـطورة نفسـها بأسـطورة أكـبر تمحوهـا، فجلسـت أفكـر في سـيناريو أفضـل لمـوتي، بـه تعديـل بسـيط للزمـن، هـذه المـرة للأمـام، بـدلاً مـن إعـادة الزمـن كـما في لعبـة فيديـو طنـط دعـاء، ودون أن أضطـر فيـه إلى أن أمـوت فعليًـا بجسـدي، فأنـا لـن أنتحـر، لا أفكـر في هـذا الآن ولـن أفكـر أبـدًا. مهـما سـاءت الأمـور، لـو بقيـت معـي حـواسي أود أن أعيـش إلى الأبـد. أكـثر مـا يرعبنـي في المـوت هـو أن أراه

وهـو يسـحبني. أجـزع مـن مجـرد تخيـل أن أمـرض وأتـلاشى ببـطء، أو الدقائـق التاليـة لبدايـة الأزمـات القلبيـة، الحيـاة جميلـة وربمـا المـوت أيضًـا، الأكيـد أن مـا بينهـما مفـزع. مـا بالـك بالانتحـار ومـا يقتضيـه مـن تخطيـط ووعـي، والأهـم لـوم قـاسٍ عـلى الحيـاة كأنها يومًـا مـا وعدتنـي بـشيء.

الآن أفهـم كلام باسـم عـما كان يحب أن يطلق عليه "مشـكلتي"، التـي وفقًـا لـه تكـون في رغبتـي في العيـش بجانـب الحيـاة، وليـس بداخلهـا. لم أكـن أرد عليـه وقتهـا، ولكـن إن وجدتـه الآن بالتأكيـد سـأقول لـه إنـه غبـي؛ لأن مشـكلتي، إن كانـت عنـدي مشـكلة بالفعـل غـير أوهـام النـاس عـن مقتـلي، هـي أني ربمـا قدمـت نفـسي للحيـاة كضيـف خفيـف، بـل جـار هـادئ، يرغـب فقـط في ألا يزعجهـا وألا تزعجـه. ومـن بـاب الجـيرة كنـت أقبـل عطاياهـا وأنضـم إلى عزوماتهـا السـخية التـي كانـت رغـم انتظامهـا تحافـظ عـلى أن تبقـى مرتجلـة. ومـا أعرفـه أني لم أكـن جـارًا بخيـلاً، كل ما في الأمـر أنهـا كانـت أقـدم وأغنـى، وممتلئـة دائمًـا بالضيـوف، لم أشـعر أنهـا مـن الممكـن أن تحتـاج إليّ، فلـم أعـرض خدمـاتي. المشـكلة ربمـا ظهـرت حـين تغـير هـذا وأدى بعلاقتنـا إلى طريـق مسـدود. أغلـب الظـن أن الفشـل بـدأ منـذ سـنة، حـين قفشـت نفـسي فجـأة مُصابًـا بعـد تسـعة وعشريـن عامًـا، بـداء العشـم، فـصرت أكـسر قواعدنـا واحـدة تلـو الأخـرى، أعـزم نفـسي عـلى حفلاتهـا وأعـبر عـن غضبـي إن لم أُدعَ إلى أي مناسـبة، حتـى لـو لم أكـن أعـرف ضيوفهـا، غـير عـارف بـأن الحيـاة تدعـو النـاس فقـط إلى بيتهـا، ولا تتحكـم فيـما يفعلـون ببعضهـم، هـذا الفـخ الـذي لا يعـرف باسـم عنـه شـيئًا، كنـت متأكـدًا مـن أن صديقـي المُعلـق عـلى الحائـط لا يعرفـه أيضًـا.

t.me/qurssan

وقفـت أمامـه في انتظـار القهوجـي كي يعطينـي باقـي الفلـوس التـي دفعتهـا. لم تكـن فقـط رهبـة النظـر إلى شـبيهي قـد اختفـت، بـل وكنـت قـادرًا عـلى السـخرية منـه ومـن ابتسـامته، التي شـعرت أن بهـا سـذاجة دفعتنـي إلى أن أحـذره ولـو في سري وأقـول لـه: يـا صديقـي، سـتظل هكـذا إلى الأبـد يفعلـون بـك. شريـر مـن علقـك أمـام هـذا المقهـى، سـتراهم كل يـوم يجلسـون أمامـك، وستسـمع أصواتهـم مـع كركـرة الشيشـة. بعـد قليـل سينسـون حتـمًا أن يحيّـوك، وربمـا يتكاسـل أحدهـم ولا يمحـوك قبـل أن يضـع فوقـك صـورة جديـدة. لا تلمهـم، فأنـت لـون عـلى حائـط، وهـم بـشر، ولا أحـد سـيعلق نفسـه معـك إلى الأبـد، ولا شـهيد يُعـاد طـلاؤه. لا تقلـق، لـن يصيبـك شيء مـن المعـارك، فهـي لا تصـل أبـدًا إلى هنـا، قـد تضطـر فقـط إلى أن تتلقـى قبلـة مـن أحدهـم وهـو عائـد للراحـة، بعـد أن اسـتقرت في ملابسـه روائـح الخـل والغـاز.

لم أتذكـر القهوجـي ولم يتذكـرني، أخـذت منـه النقـود سـعيدًا بأن بهـا عمـلات معدنيـة، وقلـت إن أقـل مـا أقدمـه لشـبيهي، أن أحـرر كتفيـه وصـدره، فوقفـت أنبـش بالعملـة عـلى الصـور المجـاورة حتى أراه بشـكل كامـل، ولم أعـر انتباهًـا لفكـرة الذاكـرة، وأني أصبحـت غـير مـرئي مثلـما كنـت سـأفعل منـذ أيـام، كي أزيـد عـلى نفـسي ورطتـي، وقلـت ربمـا السـبب فقـط أنـه قهوجـي جديـد، مُذكـرًا نفـسي بأنـه قـد فـات مـا يقـرب مـن سـتة أشـهر، منـذ آخـر مـرة فكـرت أن أجلـس فيهـا عـلى هـذا المقهـى، منـذ اليـوم الـذي كان فيـه باسـم ينتظـرني عليـه، كي أُنهـي دوريتـي في تأمـين الاعتصـام، وأرسـل إليّ: أنـا مسـتنيك بقـى لي سـاعة.. هنتأخـر كده ع السـويس!

لم أرد عليه في هذا اليوم. أندم على هذا الآن، متخيلاً أني لو كنت لم أخلف ميعادي، لما احتجت بعدها بشهور إلى أن أقفز في سيارة ترحيلات. قُبض عليه يومها في السويس، وعرفت بعد ثلاثة أيام من محاولة الاتصال به. أزعجني أن يتجاهلني لمجرد أني فوّت ميعادًا، لم أكن أعرف أنه يمكن أن يتجاهلني، يومها قلت لعم صدقي إنه كان على حق، واقترحت أن يتولى بنفسه أزمتنا مع كوكا كولا على طريقته. وقلت له أيضًا أن يخصم من باسم أيام الغياب بأثر رجعي، وأن يطلبه للتحقيق. ولكنه لم يرد أيضًا على عم صدقي، لأنه كان محبوسًا. عرفت فنهرت نفسي، ولكن هذا ليس جديدًا، وهذه ليست قصتنا.

قصتنا أني الآن، بعد أن نبشت كل الصور المجاورة لشبيهي، لم يظهر لي كتف ولا صدر، بل جملة مكتوبة من تحته: "قوم نحرق هالمدينة"، أغنية هدير المفضلة. هذه لا يمكن أن تكون مصادفة، أن تُكتب جملة من أغنية لبنانية، في وسط البلد، تحت صورتي، فجأة عادت إلى الصورة هيبتها، فهربت من أمامها.

أو قد تكون هذه هي القصة وأنا لا أعرفها. لا أنظر بجدية إلى أي شيء أحسه؛ لأني أعرف أنه سيتبدل فجأة، دون أن يمر بلحظة تطوره من حالة إلى أخرى، غير عابئ بذاكرتي الحديدية للأماكن والروائح وبني آدم. أعتقد أن هذه كانت حالي دائمًا، كأني كنت أقف كل فترة أمام نسخ مني مصطفة في طابور بالعرض، لم يرَ أحدهم الآخر من قبل، وأنتقي منهم بعشوائية نسخة أرتديها ليوم أو شهور. الآن أتفهم كيف قد يشبه هذا

t.me/qurssan

كل النصابين واللصوص الطيبين، ولكن إن كان شيء ليشفع لي، فهو أنني لم أخلط نسخي هذه ببعضها، لم يبدأ أحدهم إلا حين ينتهي الآخر ماحيًا آثاره بنفسه. وأنا أبلغ الثامنة عشرة كنت قد صرت مدخنًا شرهًا، حتى لم أعد قادرًا على تخيل حياتي دون ستين سيجارة في اليوم. بعدها بسنة، صحوت مُقلعًا عن التدخين، غير قادر على تخيل كيف تكون الحياة بكل هذه السجائر.

أمام نسخة جديدة مني مُعلقة بجوار كنتاكي محمد محمود، نبشت من جديد بالعملة ورأيت النتيجة نفسها، صورتي وأغنية هدير. هذه النسخة لم أهرب منها، بل وقفت أشرح لها أني لم أتجاهل مكالمات باسم في هذا اليوم، بل نسيته، كما نسيت معه نسختي الملتصقة به، تحديدًا حين رأيت قبلها بساعة هدير في هذا الشارع ولوحت لها بيدي من بعيد، بينما كنت أفتش الداخلين إلى الميدان من بوابتنا، وكان بي فخر لأن دقات قلبي لم تزِد نبضة واحدة وأنا أراها، وأني حضرت هزيمتها أمام باسم، وكان هذا حين لوحت لي بيدها دون النظر في اتجاهي، وكان أكيدًا أنها لم تكن تعني السلام بل أن أتبعها، وحين وصلت إليها كانت في انتظاري أمام باب كنتاكي، الآن أمام صورتي، بوجه يملأه الغضب، ولم نتكلم بالداخل لأنها دون سابق إنذار، التهمت شفتَي حتى تورمتا، ثم تركتني وعادت إلى الميدان، وجلست أنا. لم أعد أنا، ونسيت باسم.

الآن أمشي، متأكدًا من أن هذه الصور وُضعت في وسط البلد بترتيب ما، وأن وراءها قصة لا أعرف إن كنت أحكيها

أم أتبعها. في شارع هدى شعراوي أيضًا، حيث توجد نسخي المتراصة على بعد متر واحد من بعضها، حكيت لهم دون الاضطرار إلى النبش في الصور المجاورة، أن في مكانهم اعترفت لي هدير بأن أقوى أورجازم حصلت عليه، كان وهي تسمع خطاب تنحي مبارك، وأن صوت عمر سليمان ما زال يثيرها حتى الآن، وأنها تكره مطالبة الاعتصام بانتخابات، لأن الصناديق لن تحبنا أبدًا، وأن أهلها سينتخبون الإخوان المسلمين، وأنها لا تعرف إن كانوا سيسمحون لها بالعودة إلى بيتهم إن أرادت. كان كل من نعرفهم نائمين خلف البوابات التي حاصروا بها أنفسهم، بينما كنت أتمشى أنا وهدير هنا، نتشارك إحساسنا بالعبث أن يقرر لنا آخرون كيف تكون حياتنا، لمجرد أنهم أكثر عددًا. أذكر أننا وقفنا يومها أمام الفكهاني سعداء ببداية موسم البطيخ، وهدير اقترحت أن نأكله الآن قبل أن يُطرح هو الآخر للاستفتاء، وقضينا الليلة نتخيل السيناريو الكابوسي الذي قد تؤدي إليه الديمقراطية، تقرر الأغلبية أنها لا تحب البطيخ، فيصبح كل مصري آكل للبطيخ خائنًا للوطن، ويضطر كل محبي البطيخ من الرجال، إلى أن يتزوجوا بالنساء؛ لأنهن وحدهن سيستطعن تهريبه في بطونهن، بطيخة جديدة كل تسعة أشهر. قلت يومها إن الزواج بالفعل يشبه البطيخ، وقالت إن هذا فقط في الشعوب المتخلفة، وهي تشدني إلى الجراج الذي ما زال مهجورًا حتى الآن، وتخلع عني ملابسي وأنا أرتعد من دخول أي شخص في أي لحظة.

ولكن ماذا حدث بعدها؟ كأني فقدت الذاكرة فجأة في نهاية شارع هدى شعراوي، أعرف أن الكثير قد حدث، قضيت شهورًا

t.me/qurssan

طويلة هنا، ولكن كيف بدأ وكيف كانت تتعاقب الأيام، وما ترتيب الأحداث؟ هذه قصتي، كيف لا أقدر أن أحكيها؟ هناك في شارع التحرير كانت المدرعة تجري من جديد، وأطلق العسكري فوقها الخرطوش، فأصيب أحد المعتصمين، ولكن هناك أيضًا أخرجت هدير نهديها لي، مختبئة خلف الكشك، حين قلت لها إنها لم تسمح لي حتى الآن بأن ألمسها بيدي، ثم بدأت الجري مني، الشاب أصيب قبلها أم بعدها؟ لا يمكن أن يحدث كل شيء في الوقت والمكان نفسهما. على الحائط وجدت نسخة أخرى من الشهيد، فأدركت الفخ، هذه قصتي ولكنني لست من يحكيها، بل هدير. فليقُل أي أحد ما يشاء، هذا حب. هدير قالت إنها تمل من قراءة الروايات، لهذا تخرج لي الآن وسط البلد بكل أيامها في موجة واحدة، لا أقدر على ابتلاعها، فأغوص بها.

أحكي لنفسي مع كل خطوة. كنا ملوك هذا الحي، نحفظ كل شبر فيه، هنا ارتجلنا لعبتنا الجديدة وطورناها يومًا بعد يوم، لاهثين وراء أرواحنا، مدركين أنها قد تنتهي في أي لحظة، نقتنص كل دقيقة متاحة للعب، نأكل بعضنا في نهم وسرعة، كسحور طفلين استعدادًا لصيام طويل. لم نتوقف في أي لحظة لنناقش قواعد اللعبة. كنا نعرف أنها إن توقفت، انتهت. صحيح أن من هنا مرت المظاهرات وتعالى الهتاف، وصحيح أن هنا سُمع الرصاص، وأريقت الدماء، وكُسرت الأرصفة لقطع صغيرة من الطوب، ولكن حين كان ينتهي هذا الضجيج، كان الشارع يتجمد في مكانه، فيصير شماعتي أنا وهدير، نعلق

عليـه أدوارنـا في الصخـب، يأخـذ كل منـا نفسًـا عميقًـا مـن رائحـة الآخـر، ثـم نحبسـه في صدورنـا ونحـن نرتـدي أدوارنـا مـن جديـد.

ثـم صرنـا لا نطيـق أن ننتظـره يتجمـد حتـى نأخـذ فيـه وجبتنـا كاملـة، فأدمنّـا فواتـح الشـهية في الشـوارع التـي تجـاوره، وباتـت سرقـة هــذه اللحظـات السريعـة هوايتنـا اليوميـة، دون اتفـاق نتفنــن في اختــلاق الأعــذار التــي تُخفينـا عـن الصخـب لدقائـق، نـروي فيهـا ظـمأ شـفاهنا، إلى سـيارتي، إلى أقـرب مدخـل لعـمارة، هـذه اللحظـات التـي سرعـان مـا أصبحـت اللعبـة نفسـها، هـذا الـشيء لا ينتمـي إلى الأسِرّة وراحتهـا، هـذا المنقـوص كان لا يمكـن مقارنـة جمالـه بـكلٍّ كامـلٍ ومريـح.

كنـا حاضريـن في كل شيء، لا داعـي للمزايـدة، بـل كلـما اشـتدت الأمـور اشـتهينا بعضنـا أكـثر، وكلـما اشـتهينا بعضنـا، رغبنـا في أن تشـتد الأمـور مـن جديـد. حـين عـاود الأصدقـاء الاعتصـام بالميـدان كنـا هنـاك، أقـف أنـا ضمـن فريـق تأمـين البوابـات، وترتـب هـي أدوار المتكلمـين عـلى المنصـة، مـاذا كان يفعـل أحـد أكـثر منـا؟ هـذا كان يكتـب البيانـات، وهــذا كان يحقــق مـع المندسـين، وهــذه كانـت تمـر عـلى الخيـام، وهـذه كانـت تنظـم الإعاشـة، مـا الجـرم في أننـا كنـا نتسـلل كل قليـل لنتـذوق مـن ملـح اليـوم الطويـل العالـق بملابسـنا؟ ثـم مـاذا كنـا سـنفعل للمـوتى بعـد موتهـم؟ صحيـح أننـا تسـللنا منكـم بعـد أن طـال الوقـت في المشرحـة، ولكـن مـاذا كان سـيفيد البـكاء إن كنـا نعـرف كيـف سـنهزأ بقاتليهـم في سـيارتي المركونـة خلـف قسـم شرطـة قـصر النيـل؟

t.me/qurssan

ثـم مـاذا كنـا سـنفعل بـكل هـذا الأدرينالـين؟ عـلى الأقـل لم يورطنـا مثلكـم في تخيـل قـدرة عـلى انتصـار مـا، وعددنـا في الاعتصـام يقـل كل يـوم حتـى صرنـا ضيوفًـا عـلى المخبريـن. صحيـح أن الأدرينالـين كان يأخذنـا أحيانًـا إلى الجنـون، كالمـرة التـي صعـدت فيهـا إلى شـقتها وخالـد نائـم هنـاك، وأوقعتهـا مـن يـدي بعـد أن سـمعت صـوت بـاب غرفتهـما يُفتـح. ولكننـي عـلى الأقـل عـدت يومهـا إلى الميـدان عاقـلاً، ولم أقـترح مثـل فريـدة أن نبـدأ كلنـا إضرابًـا عـن الطعـام حتـى رحيـل الحكـم العسـكري، أو بـودي الـذي اقـترح أن نسـلك طريـق الكفـاح المسـلح، في وقـت كان شـباب الثـورة يصيبـون فيـه بعضهـم بالطـوب في أثنـاء الاشـتباكات مـن رعونـة التصويـب، كانـت مظاهـر العجـز طافحـة منكـم بينـما كنـا نجـدد شـبابنا كل يـوم.

هـدّني التعـب في محمـد محمـود، كأني كنـت لا أسـير وأتذكـر، بـل كأني كنـت أعيـش كل هـذه الشـهور في يـوم واحـد. جلسـت عـلى الرصيـف ببـطء كعجـوز يوشـك عـلى قـول حكمـة، ولكنهـا لم تخـرج منـي؛ لأن مخـي كان مـا زال يجـري بي، ويسـأل كيـف صرت أشـبههم، وهـل ظهـر لهديـر في غيـابي شـعر أبيـض قبـل أن تتـم الثلاثـين؟ وأي محمـد محمـود فيهـم أتذكـر، هـذا الـذي كلـما حططـت قدمـي فيـه، كنـت أحـس أنهـا المـرة الأولى والأخـيرة؟ هـذا الـذي كان في أيـام الهدنـة يتجمـل كأي شـارع عـادي، وتصطـف فيـه المطاعـم بجـوار الكافيهـات تحـت إضاءتـه الصفـراء الباهتـة؟ أم هـذا الـذي كان بالنهـار ملـكًا لموظفـي المجمـع الحكومـي، وبالليـل تخـشى سـيارة شرطـة أن تدخلـه دون موكـب؟ أم هـذا الـذي كنـا ننـزوي فيـه أيـام الجمعـة ومظاهراتهـا المليونيـة عائمـين في بحور من

الكشري، ونحن نسخر من زوار الثورة الذين ينزلون من بيتهم أيام الإجازات؟ أم هذا الذي كان يشتد نزاع الملكية عليه، وأنا أشاهده من التليفزيون وأنواره أُطفئت، فكأنه اتسع في البث المباشر لسيارات خضراء بعيدة، وأمواج من البشر، وأصوات رصاص وقنابل كانت دائمًا تتوارى خلف صوت حكيم يدعو كل الأطراف للتهدئة؟ أم هذا الذي صار ملكي وحدي أجلس فيه الآن بعد أن هجره الجميع؟ ولماذا رغم كل هذا ما زال مخيفًا؟ ومتى لم أعد أحب الأدرينالين؟ وأيهما كان مغموسًا به أكثر، يوم قفزت في سيارة الترحيلات، أم يوم انتظرت هدير هنا واكتشفت أن خالد سيقود بنا سيارته، بعد أن ركلتنا أرجل أصحاب الذقون كالحصى، وهم يحتلون خيامنا ليطالبوا بتطبيق الشريعة، فاستجبنا لنداء طنط دعاء من البحر الذي أرسلته إلينا في رسالة مُجمّعة؟

- النداء الأخير للصيف.. سفرية الشريعة والبحر.. بعد الكلكعة هتيجي الشخلعة بمشيئة الله، فا يللا نقضي أجازة سعيدة!

أما اليوم، وأنا أعود لمحبسي في بيت طنط دعاء بإرادتي، كنت لا أريد شيئًا سوى أن تأذن لي في الدخول والنوم، تاركًا لها أمري تفعل فيه ما تشاء، ولكني حين دققت الجرس، فتحت الباب بعدها بثانية، كأنها كانت في انتظاري وراءه، ولم تغلقه إلا بعد أن خرجت من الشقة وهي تقول لي:

- الضرب في صلاح سالم ابتدى. أنا مش هاسمح لنفسي أبقى سبب في موت حد.

t.me/qurssan

تبعتهـا عـلى السـلام، بعـد تأكـدي مـن أن نظارتهـا السـوداء مـا زالـت في جيبـي، وقبـل أن نركـب سـيارتها قلـت كي يبـدو كأني أخـذت هـذا القـرار:

ـ ولا انا. نروح الاعتصام وتيجي زي ما تيجي.

t.me/qurssan

37

ـ عايزين أربعة بيتزا سي فود واربعة هامبورجر.

ـ مافيش هامبورجر.

ـ طب أربعة بيتزا سي فود وتلاتة هامبورجر.

ـ باقول لك مافيش هامبورجر.

ـ طب اربعة بيتزا سي فود واتنين هامبورجر.

انـصرف عـم سـلطان صاحـب الكامـب غاضبًـا، وتذكـرت لمـاذا لم أحـب المخـدرات. الدكتـور جـاسر، الطبيـب الوقـور، يصبـح أضحوكتنـا الجديـدة في لحظـة.

لم أكـن مرتاحًـا، حتـى في صغـري، كنـت أفضـل رحـلاتي مـع مصطفـى في الفنـادق الفخمـة. لم يكـن وقتهـا في هـذه الحيـاة البدائيـة شيء يبهـرني، فوقفـت أشـاهد بملـل خالـد وهـو يتأمـل

الجبـل القريـب، والبحـر والأكـواخ الخشـبية، ويداعـب حبـات الرمـل بقدمـه ثـم بيـده، بينـما وقفـت مـع هديـر في انتظـار أن يفتـح لنـا شـنطة السـيارة كي نأخـذ منهـا حقائبنـا.

كنـا آخـر مـن وصـل، مـع الليـل. الضـوء الوحيـد في المـكان رأيناه في الاسـتراحة، خارجًـا مـن الشـمع المثبـت عـلى الرمـل في زجاجـات بلاسـتيكية. حـين اقتربنـا، وجدنـا أصحابنـا مسـتلقين عـلى الشـلت كأنهـم واقعـون مـن طائـرة. بعـد دقائـق أدركنـا السـبب، جوينتـات الدكتـور جـاسر الـذي أطلـق عليهـا اسـم مولوتـوف. قـادني عـم سـلطان إلى كوخـي، بعـد أن أوصـل خالـد وهديـر إلى كوخهـما، وأصر أن يعرفنـي محتوياتـه الثمينـة، لمبـة ومرتبـة ومـلاءة صمـم أنهـا نظيفـة، وناموسـية صمـم أنهـا ليسـت بهـا ثقـوب. شـكرته وألقيـت بشـنطتي عـلى الأرض، فخـرج الـتراب كثيفًـا مـن الأرض إلى أنفـي ليقـضي عـلى جيـوبي الأنفيـة لأيـام.

كان كوخـي في منتصـف الطريـق بـين كـوخ هديـر والاسـتراحة. لسـبب مـا، كنـت متأكـدًا مـن أنهـا سـترغب في اللعـب حـالاً، فانتظرتهـا في الداخـل متأهبًـا لالتقاطهـا مـا إن يُفتـح البـاب. لا أعـرف كيـف لم أسـمع أي أصـوات أقـدام، ولكـن بعـد قليـل سـمعت صـوت خالـد وبعـده هديـر، مـع الأصدقـاء الذيـن أفاقـوا مـن غيبوبتهـم فخرجـت مـن الكـوخ محبطًـا.

في الحـمام البعيـد أدركـت أننـي لـن أرتـاح أبـدًا في هـذه الرحلة، ليـس فقـط لنظافتـه المحـدودة. للكامـب حـمام واحـد للجنسـين، حوضـان متلاصقـان وسـتة أبـواب لا يصـل أي منهـا إلى الأرض، ولا يمتـد أحدهـا حتـى السـقف. أكـره هـذه المواقـف، تذكـرت كريـم

t.me/qurssan

وأنا أجلس على مقعد الحمام، كنا نصلي في المدرسة قبل أن نتجاوز الابتدائية، ورغم أنه كان يلازمني في كل لحظة من الظهر للعصر، كنت أخبره أن عليَّ التوضؤ قبل صلاة العصر لأني نزفت قليلاً من أنفي. لا أظن أنه كان يصدق هذه الكذبة، ولا أعرف ماذا كان مخجلاً أن أقول له إنني نقضت وضوئي لأني مثل أي إنسان عادي، يأخذ جسده ما يريد من أكله وشربه ويلقي بالباقي للطبيعة. لماذا لم يقترح أحد أن نصلي بعد الابتدائية؟ وأين ذهب كريم؟ انقطعت أخباره منذ عودته إلى إنجلترا، هل يعرف أن خبر حبسه وطني في كل هذا؟ لن أصارحه أبدًا.

انصرف كريم من ذهني مع سماعي خطوات أقدام تخيلتها لرجل، فُتح الباب المجاور لحمامي فحبست أنفاسي، محاولاً ألا يصدر مني أي صوت. هل هذا الرجل هو السبب في اختفاء الهامبورجر من الكامب؟ فكرت وأنا أسمع أصوات أمعائه مختلطة بغنائه، "اخرج م البيبان الحر الضيقة، الكون صابح جميل والدنيا مروّقة". انتظرته حتى انتهى وانصرف، أفزعني أنني لم أسمعه يستخدم مياه الحوض، وقلت إنني سأضطر إلى أن أسلم باليد على الجميع في كل الأحوال. ظللت بعدها أحاول، ولكن معدتي كانت تيبست كحجر فعدت إلى كوخي ببطن منتفخ، وفي دماغي خطة عن الحد الأدنى من الأكل الذي يمكنه الإبقاء عليَّ حيًّا لثلاثة أيام.

في الكوخ أشعلت سيجارة، أدركت منها أن الحمام لن يكون مشكلتي الوحيدة؛ فمع إضاءة الولاعة تبين أن الخشب الذي

بُنيـت بـه الأكـواخ غـير محكـم، تسـتطيع أن تمـر أي عـين بـين فراغاتـه، فكـرت أن أرسـل إلى هديـر رسـالة بالعائـق الجديـد أمـام ألعابنـا، ولكننـي انتظـرت حتـى أدرس الأمـر كلـه، فقـد ظهـرت لي سريعًـا أيضًـا مشـكلة الصـوت. لم أكـن أسـمع فقـط بالتفصيـل كل مـا يقـال مـن الأصدقـاء في الاسـتراحة، بـل كنـت أسـمع أيضًـا الحـوار الدائـر داخـل أبعـد الأكـواخ، فأخـذت أتنصـت عـلى الخناقة الكاملـة، كانـت البنـت تشـتم الولـد لأنـه قـال نكتـة عـن السـتات رأتهـا البنـت مهينـة، ولم تشـفع للولـد محاولاتـه المسـتميتة لإقناعهـا بأنهـا مجـرد نكتـة لا تعنـي شـيئًا.

في الطريـق إلى الاسـتراحة فكـرت في أن البنـت عـلى حـق، ليـس هنـاك مـا يسـمى بالتهريـج الـذي لا يعنـي شـيئًا، وعنـد وصـولي قلـت، ولكـن الولـد أيضًـا عـلى حـق، فمـن المسـتحيل أن تفهـم مـا تعنيـه هـذه الشـلة في ضحكهـا. إن فهمـت ضحكـت واللـه. ولكـن مـا المضحـك مثـلاً في تسـمية الجوينـت بمولوتـوف؟ ومتـي ينتهـي التجويـد مـع مـرور المولوتـوف هـذا عـلى كل شـخص، "خـد ولّـع في النظـام"، "مـال السـيجارة دي قالبـة عـلى جـو ليبراليـن كـده؟"، "لفـة أحـلى مـن ائتـلاف الثـورة نفسـه"، "لا لفصـل الحشـيش عـن الدولـة". بجـد؟ حتـى طنـط دعـاء العاقلـة التـي بالتأكيـد شـاهدت مـا يكفـي مـن مسرحيـات عـادل إمـام حتـى أسـتطيع فهمهـا، تضحـك مـع البنـت المسـكينة التـي تجفـف بشرتهـا الملتهبـة، "ماركـس كـده يزعـل واللـه"، فـترد البنـت: "أناركيتـي سر نعومـة بـشرتي"، فأفقـد تعاطفـي مـع البنـت ويضحـك الجميـع. يختفـي أحدهـم ويعـود، فيكـون "الابـن الضـال الـلي عـاد للنضـال". متـى

t.me/qurssan

خـرج مـن وادينـا المـرح كل هـؤلاء الظرفـاء؟ وكيـف لم يبـدوا لي بهـذه السـخافة مـن قبـل في القاهـرة؟

لم يكـن يفهمنـي غـير عـم سـلطان، جلسـت بجـواره نـشرب البـيرة ولا نفهـم عـلى مـاذا يضحكـون. رغـم كل شيء، كان منظـر هديـر وهـي مندمجـة في لعـب الكوتشـينة داعيًـا للبهجـة. هديـر استثناء، تضحـك معهـم وتعـرف نكاتهـم، ولكنهـا أيضًـا تعـرف كيف تضحكنـي، في مـرة اندمجـت في ألعابنـا في السـيارة وكانـت الإشـارة مزدحمـة، فأوقفتنـي وهـي تقـول: "البنطلـون لأ"، كأنهـا تُقسـم وبعدهـا فكـت أزراره، ليـس لأن مـا قالتـه مضحـك ولكنـه عـلى الأقـل باعـث عـلى الاطمئنـان، لأنهـا تعـرف إفيـه في فيلـم تطلـق عليـه الشـلة استنكارًا: فيلـمًا تجاريًـا. والمـرات التـي كانـت تسـخر فيهـا مـن عضـلاتي البسـيطة "الصيـف داخـل ولازم نعمـل فورمـة السـاحل". صحيـح أنهـا لا تقـول هـذه الإفيهـات في حضورهـم، ولكـن مـاذا كانـوا يعرفـون عنـا أصلاً؟ ومـن كان يعـرف عـن موعـد اللحظـة التـي نتناغـم فيهـا فجـأة، فيصبـح اختفاؤنـا حتميًّـا إن كنـا نحـن لا نعـرف موعدهـا إلا حـين تباغتنـا.

في هـذه الليلـة أتـت اللحظـة متأخـرة، فهديـر لم تقـم مـن دور الكوتشـينة إلا بعـد أن فـازت. تحركـت إلى الحـمام، وفهمـت المقصـود مـن نظـرة خاطفـة إليّ. بعـد قليـل، تركـت الأصدقـاء وقـد غلبهـم النعـاس وقـضى الحشـيش عـلى مـا فيهـم مـن همـة، وتبعتهـا. كانـت في انتظـاري خلـف الحـمام، عـلى تبـة مـن الرمـل، وكان وجههـا رائقًـا كـما لم أرَه مـن قبـل، وابتسـامتها صافيـة وبهـا ضحكـة عرفـت منهـا أنهـا وقعـت في أسر مولوتـوف الدكتـور جاسر،

وحين قفزت بجوارها إلى الرمل واندفعت إلى عنقها أبعدتني، ثم رجعت بوجهها لتنظر في عيني، وقالت وهي تقبل يدي بحنوّ أرجفت كل شبر فيَّ:

- أنا باحبك يا رامي.. ما تسيبنيش!

وجدتني لا أصدق ما أسمع، شيء ما حل بي أبقاني صامتًا حتى أفهمه، هل انطفأت الآن أم بدأت؟ لم أعرف الفرق بينهما، وقبل أن أتجرأ وأقول أي شيء، كنا نسمع أصوات أقدام داخلة إلى الحمام، فاختبأت هدير في حضني. كانت طنط دعاء، عرفنا من صوتها وهي تغني، "ست سنية سايبة الميّة ترخ ترخ". أضاعت الأغنية وأصوات أمعاء طنط دعاء أي رومانسية للحظة. حين انصرفت، رفعت يدي من فوق هدير كي ينطلق ضحكها، ولكنها بعدها قالت إنها تريد النوم، وانصرفت إلى كوخها.

لم يكن أبدًا ليأتيني نوم بعد ما قالته هدير، فهمت أخيرًا معنى كلمة أن يذوب أحد في يدك، هكذا كانت وهي تكلمني. كنت أدرك صعوبة أن أحبها بعد هذا، ولكنه كان أمرًا جديرًا بالاحتفال، فعدت إلى الاستراحة مستعدًا لفعل أي شيء، حتى ولو كان المشاركة في مهزلة إطلاق النكات على مولوتوف الدكتور جاسر. ولكن لم تكن الأجواء احتفالية مع القليلين الذين وجدتهم صامدين حين عدت. شيء آخر سيظل مبهمًا لي، هل كانت هذه الشلة هكذا دائمًا، أم أنهم تشبهوا بالثورة فصاروا يشتعلون في ثوانٍ دون إنذار، ثم يبردون كأن شيئًا لم يكن. ما المشكلة فيما قاله الدكتور جاسر؟ رجل محشش يشرب من

t.me/qurssan

مولوتوفه وتراوده الأسئلة وهو يتأمل في نجوم لا يراها أبدًا في القاهرة، ما العيب في أن يشاركنا أحدها؟

- بما إننا في أجازة أخيرًا من الأجواء النضالية يا جماعة.. هو انتو بتعملوا ثورة ليه؟ مش عشان تعيشوا زي ما عايزين تعيشوا؟ طب ما بما إن بسهولة قوي يعني الإخوان جم خدوا مننا الميدان كده، ما نيجي نقعد هنا في نويبع، مافيش بوليس، فيه حشيش، ماحدش بيسأل حد انت بتعمل ايه ولا بطاقتك فين، كلنا لابسين براحتنا وبنعمل اللي احنا عايزينه.. كل حاجة سهلة، حتى العالم الإسرائيليين قريبين، بذمتكو ما نعرفش نحلها يعني لو حد من المعديين دول، جه قعد معانا وضرب له اتنين تلاتة مولوتوف؟

مر الأمر عاديًّا في البداية، حتى إن أحد الجالسين رد قائلاً: الأرض مقابل المولوتوف. وأعجب خالد بالفكرة مع تحفظ على إجراء مفاوضات مع الحشيش؛ لأننا بالتأكيد سننساها في اليوم التالي، ونستمر في هذه الدائرة إلى الأبد، نتفق بالليل ونحارب بالنهار، فردت الأناركية ناعمة البشرة: خلاص يبقى أول بند في الاتفاقية ان الشعبين يحششوا على الفطار، وهكذا. كان الأمر طبيعيًّا وثقيل الظل، إلا أني رأيت وجه فريدة يتغير، بشرتها تحمر من فرط الغيظ، كأنها تخبئ ماردًا بداخلها، فانسحبنا واحدًا تلو الآخر، مفضلين أن يسمع كل منا الخناقة بين الزوجين من داخل الأكواخ.

لم يمنعني انتظار سماع الخناقة من الاستلقاء مرتاحًا على المرتبة، ولم يمنعني الرمل الذي اخترق الشورت فصرت أحس به مع كل حركة من أن أتقلب في سعادة، كطفل منحته هدير هدية عيد لم يكن ينتظرها، لم يكن أي شيء ليفسد عليَّ احتفالي، إلا أن الخناقة لم أسمعها، وبدلاً منها صرت لا أسمع سوى صوت الموج الخفيف للبحر، وبعض الحركات لحشرات صغيرة تخيلتها تحت المرتبة، وصوت هدير آتٍ من الكوخ، فجًّا وصافيًا ومغموسًا بنشوة كأنه جزء أصيل من هذه الطبيعة القاسية، آتٍ من الجبل العالي ليذوب هنا، مع صوت خالد الآتي من أعمق نقطة في البحر. كان الكوخ يضيق عليَّ ولكنني لم أكن قادرًا على مواجهة الهواء خارجه، وظل يضرب رأسي السؤال بمطرقة لعلّها تسللت مع حقائبنا من القاهرة: الآن، من يخون من؟

t.me/qurssan

38

في هـذه الليلـة، قالـت فريـدة بعـد تأكيـدي ثـلاث مـرات لهـا أن بي طاقـة لأسـمعها:

- ماعلـش أنـا محتاجـة أحـكي.. وانـت الوحيـد هنـا الـلي هتفهمنـي !

في كل الأحـوال لم يكـن هنـاك أحـد غـيري، فقـد كنـا قـد تمشـينا حتـى أصبحنـا نـرى الكامـب نقطـة صغـيرة عـلى السـاحل. حـين ظهـرت فريـدة لي هـذه المـرة مـن الرمـال، لم أفـزع كلقائنـا الأول، بـل قلـت ربمـا سـتظل علاقتنـا هكـذا إلى الأبـد، هـي عابـر الصدفـة الـذي أنتظـر دائمًـا لقـاءه الـذي سـيغير حيـاتي، وتخيلـت أن هـذا مـا خرجـت مـن الكامـب بحثًـا عنـه بعـد سـماعي لجولـة ثانيـة كاملـة بـين خالـد وهديـر. كان طلـب فريـدة أبسـط، بعـض الهـدوء، أكـدت لي أننـي لـن أهـدده إذا تمشـينا معًـا عـلى السـاحل.

فتحـت لي قلبهـا بعـد قليـل مـن الثرثـرة، وكان لهـذا جلالـه، فقـد كانـت أول مـرة أراهـا تعبِّر عـن شيء يخصهـا. فريـدة بـاب مغلـق، الـكل يعـرف هـذا، لا قصـص طفولـة ولا أحـد يعـرف شـيئًا حتـى عـن موقـف عابـر لهـا مـع سـائق تاكـسي، ولم تُضبـط مـن قبـل وهـي تشـارك أيًّـا مـن مشـاعرها وسـط البكائيـات المعتـادة التـي تمارسـها الشـلة مـرة في الأسـبوع.

أتخيـل أن هـذا كان لا يمكـن كبتـه، إنهـا تفكـر في الانفصـال عـن الدكتـور جـاسر، وليـس بسـبب نكاتـه المسـطولة، إنمـا لأنهـا عرفـت قبـل الرحلـة عـن تقديمـه دون علمهـا أوراقـه لاسـتكمال الدكتـوراه في باريـس. حاولـت الدفـاع عـن الذكـر النائـم في كوخـه، فقلـت لهـا لعلّـه ينتظـر لحظـة مناسـبة لم تـأتِ بسـبب لعبـة الملاهـي التـي نعيـش فيهـا منـذ ينايـر، مفاجـأة جديـدة كل يـوم.

- آه.. بس الملاهي مش حاجة جديدة عليه، هو اللي اتغير!

وهـي تحـكي، تخيلـت أن ذقنًـا شـعثاء هـي كل مـا كان ينقـص الدكتـور جـاسر ليكـون جيفـارا المـصري. في 2006، تقابـلا في قافلـة متجهـة إلى غـزة، نظمهـا طـلاب الجامعـة الأمريكيـة وانضـم إليهـا الدكتـور جـاسر مـع فريـق مـن مجموعـة أطبـاء بـلا حـدود. كان عائـدًا وقتهـا مـن كنـدا بعـد انتهـاء دراسـته، وفي نيتـه أن يتطـوع لعـلاج الفقـراء في قـرى مـصر مـن فـيروس سي والأنيميـا. تقـول فريـدة إنهـا وقعـت في حبـه قبـل أن يصـلا إلى غـزة، مـن حكاياتـه عـن جولاتـه في إفريقيـا، واختيـاره التخصص في الجراحـات التجميلية كي يسـاعد مصـابي الحـروب الأهليـة المنتشريـن في القـارة. لكنهـا لم تتأكـد مـن حبهـا لـه إلا في منشـية نـاصر، حـين رأت أطفـال الحـي

t.me/qurssan

كيف يتجمعون حول الدكتور الأشقر الوسيم، وهم يعرفون أنه لا يأتي إلا وجيب البالطو الأبيض معبأ بأكياس من الشوكولاتة.

تزوجته بعد شهر من تخرجها، تنفي دون أن أسأل إحساسها بالندم على زواجها المبكر. كان بالنسبة إليهما مجرد ورقة عليهما أن يمنحاها لمصر كي تقبل بأن يعيشا معًا في البيت نفسه، وفي غرفة الفندق نفسها في رحلاتهما داخل مصر. شريك مثالي، قالت فريدة وهي حريصة على ألا تصفه بالزوج. أين كنت سأجد مصريًا يدعمني في اختياراتي أيًا كانت دون تدخل؟ حضرت هذا بنفسك يا رامي، تذكر كيف ضمني إلى حضنه ونحن عائدان من المظاهرة، دون أن يبدي أي قلق كنت أعرف أنه يسكن بداخله؟ ما لم تحضره هو كيف كان يتحمل غضبي وتقلب مزاجي بعد فشل أي مظاهرة. أنا أيضًا كنت أحترم اختياراته، قال إنه سيكون أكثر فائدة بكثير إن اقتصر نشاطه الاجتماعي على الطب، ووافقت على أن يُنشئ عيادته الفارهة في الزمالك، بعد تأكيده لي أن نصف أرباحها سيذهب إلى عمليات مجانية لغير القادرين.

- بس انت عندك حق.. كل حاجة اتغيرت مع الثورة!

لم أكن أعرف ماذا قلت كي يكون عندي حق. على العكس، كنت واقعًا في غرام نبل الدكتور جاسر، ولكن أدركت أنه لا شيء سيوقف فريدة وهي تطلب مني سيجارة، حين بدأت تدخينها فهمت أنها سيجارتها الأولى، فاخترت أن ينحسر دوري إلى أذن مصغية.

لا تعـرف كيـف تحـول إلى هـذا الشـخص الغريـب عنهـا، صدمهـا ذعـره ومكالماتـه الهسـتيرية لهـا لتخـرج مـن الميـدان حـين يستشـعر الخطـر. صـار حمـلاً ثقيـلاً، يوتّرهـا إصراره عـلى الوجـود، وهـي تعـرف أن دافعـه الوحيـد هـو حمايتهـا، واهتمامـه المفاجـئ بأصحابهـا لدرجـة أن يسـافر معنـا في رحلـة، كان مـن العـادي أن يتجاهلهـا دون أي تأثـير عـلى فريـدة، ثـم كلامـه الجديـد عـن دخـول الموضـوع في الجـد، وتلميحاتـه لهـا عـن رغبتـه في الإنجـاب.

- يعنـي بذمتـك يـا رامـي نجيـب ولاد عشـان يتعذبـوا معانـا هنـا؟

أمـا أكـثر مـا أزعـج فريـدة فهـو أسـئلته المفاجئـة عن مسـتقبلها، والإيميـلات الغريبـة التـي ظـل يرسـلها لهـا إلى وظائـف شـاغرة في مهـن يعـرف أن فريـدة لا تطيقهـا. وحـين يئـس، بـدأ في اقـتراح أن تنشـئ أي مـشروع. محـل ورود؟ أنتيـكات؟ كـب كيـك؟ اقتراحـات لم تكـن فقـط تُشـعرها بالإهانـة، بـل جعلتهـا تتهمـه بالأنانيـة.

- مـش فاهمـة، إزاي واحـد يقعـد يفكـر في نفسـه ومسـتقبله، والنـاس بتمـوت في الشـارع عشـان حلـم بتاعنـا كلنـا؟

أفزعنـي السـؤال، خصوصًـا وأنـا أتذكـر قولهـا في البدايـة إننـي الوحيـد الـذي سـأفهم، وسـخرت مـن فكـرة راودتنـي وهـي تحـكي أن أفتـح لهـا في المقابـل خزائـن أسراري مـع هديـر، فلـم أنطـق، إلا بعـد دقائـق مـن الصمـت والمـشي حـين قالـت جملـة أعتقـد أنهـا حرصـت عـلى قولهـا دون النظـر إليّ، كأنهـا جملـة عابـرة:

- صاحبته القديمة في فرنسا. شكله رايح لها!

t.me/qurssan

فقلت لها:

- ماعلش.

وفكـرت للحظـة أن أقبّلهـا انتقامًـا مـن هديـر، ولكنـي صرفـت الفكـرة مـن ذهنـي فـورًا وفريـدة تخـبرني أننـا أخـيرًا وصلنـا إلى وجهتنـا التـي نسـيت إخبـاري بهـا، حيـث تجلـس نـدى عـلى البحـر.

نـدى قصـة قديمـة، لا أكـذب هـذه المـرة، فبالفعـل أسـعدتني رؤيتهـا كأننـي أقابـل صديقـة طفولتـي. تسـكن في الكامـب وحدها، مـع زجاجـة فـودكا وموسـيقى وعـدة للغطـس. الأجمـل أن أحـدًا مـن ثلاثتنـا لم يشـعر بالحاجـة إلى مقدمـات، كأننـا نكمـل حـوارًا غـير عابئـين بأنـه قُطـع منـذ شـهور، فـكان مـن العـادي أن نمنـح ظهرنـا للرمـل، ورأسـنا للسـماء، كي تـشرح لنـا نـدى معـاني النجـوم وخريطتهـا، وكان مـن العـادي أن أنـام عـلى صوتهـا المريـح غير عابئ بشـخيري، وبأنهـا جلبـت معهـا بطانيـة واحـدة، ستسـعنا كلنـا.

t.me/qurssan

39

صحـوت عـلى صوتهـما يسـبحان في البحـر، فجلسـت أشـاهد المنظـر دون حركـة بسـعادة، وأنـا أتمنـى ألا ينتهـي سريعًـا، شـاعرًا بثقـل يهبـط عـليَّ كلـما فكـرت أن علينـا العـودة في وقـت مـا إلى كامـب الأصدقـاء، ثقـل بلـغ قمتـه وفريـدة تلـح عـلى نـدى في أن تقـضي اليـوم معنـا هنـاك، فوجدتنـي أقـول لنـدى بـكل صـدق آمـلاً أن ترفـض:

- لو قلتي لأ، فريدة هترجع لهم لوحدها!

ولكنهـا قبلـت، فعدنـا بهـا إلى الكامـب لنجـده كـما توقعتـه، موحشًـا وصامتًـا، لا يُسـمع فيـه سـوى صـوت لتقليـب أوراق الكتـب، والمحـاولات الفاشـلة لتثبيـت زجاجـات البـيرة عـلى الرمـل، الـكل مسـتلقٍ، طقـوس لديانـة لا أعرفهـا. ليـس هكـذا يكـون البحـر، وهـذا الخمـول سـتقضي عليـه بسـهولة نـدى.

- يا رامي.. ده راكيت مش تنس!

إن كنا نتقن أنا وندى أي شيء، فهو اللعب. ليست المشكلة في الكامب، فعم سلطان أخرج لنا بسهولة مضربين من المخزن حين سألنا، المشكلة كانت كيف نبهرهم بألا تقع منا الكرة أطول فترة ممكنة. في البدء سيتجاهلون خبط الكرة بالمضارب، ثم يسخرون من أننا نفسد طقوسهم الصامتة، ثم يحاربوننا بغرز أعينهم أكثر في الكتب، ثم ننتصر. يتسحبون واحدًا تلو الآخر لمباراتنا، يتشجع أحدهم ويطلب اللعب، فأعطيه مضربي، ثم تدب العدوى في الجميع في ثوانٍ وبلا رجعة، هذا يُخرج من حقيبته طبقًا طائرًا ونبدأ اللعب، وهؤلاء يصنعون قلعة من الرمال، ثم مباراة كرة قدم مشتركة بين الجنسين، وسباقات أطول نفس تحت المياه. حتى طنط دعاء تشارك، بالطبع وهي ممسكة بالشيشة في يدها، أحيانًا في دور المُعلق، وأحيانًا في دور الحكم.

- العب يا حبيبي ما تتكسفش.. اللي هيعمل فاول هيتعاقب بتلات كتب يقراهم قبل المغرب.

في كل الألعاب كنت أقدر على الفوز، ولكنني لم أشأ أن يفسد هذا المرح على أي أحد وينهي اللعب، فكنت أخسر بسعادة، ولا أعرف إن كنت أتجاهل هدير أم لم تكن هناك فرصة من الأساس في خضم النشاط الذي دب على الشط، ولكن كنت أعرف أنني لا أريد ترك هذا لنسرق أي لحظة من لحظاتنا، كانت روحي أخف من أن أُثقلها برائحة هدير، وكانت رائحة اليود بها ما يكفيني من الملح ومن الطاقة، ما

t.me/qurssan

انتهى عند المغرب بالكل جالسين في الاستراحة منهكين ببطون جائعة.

لم يكن خالد مهتمًّا بأن يأكل بقدر اهتمامه بندى، فقام بطبقه ليجلس أمامها.

- أنا فاكر اني شفتك في عرض للفيلم بتاعي. صح؟ إيه رأيك؟

- لطيف.. ما اعرفش، أنا أصلي ماليش في الأفلام قوي.

- خسارة.. ده انا كنت لسه هاسألك لو تحبي تمثلي في فيلمي الجديد.

لم تكن ندى تعرف أنها وضعت الآن أول قدم في عش الدبابير. نظرت حولي فوجدت الوجوه تحركت كلها تلقائيًّا باتجاه هدير، إلا فريدة لأنها كانت مستلقية على ظهرها والدكتور جاسر يصالحها بجلسة مساج، ربما لم ينتبه أحد إلى أن ندى ردت فورًا بأنها لن تحب التمثيل، ولكنهم كانوا على حق، فلم يكن هذا ليغير من أي شيء، فقد كانت هدير قد قامت بالفعل تاركةً أكلها لتجلس بجوار خالد وتسأله باستنكار:

- ما كنتش أعرف انك ابتديت كاستينج.

- مش هاعمل المرة دي.. مش عايز حد مثّل قبل كده في الفيلم ده!

رد خالد بهدوئه المعتاد، ولم نحضر بقية المشهد، كل ما رأيناه هو هدير تقوم من مكانها غاضبة، ثم خالد متظاهرًا

بـأن هـذا لا يعنـي أي شيء، وهـو يـشرح لنـا طبيعـة فيلمـه الجديـد الـذي يمـزج الوثائقـي بالدرامـا، شرح لم يكملـه لأنـه انـصرف إلى الكـوخ بعـد أن قـرأ شـيئًا مـا عـلى هاتفـه.

كانـت هنـاك محـاولات عـلى اسـتحياء لتجاهـل الأمـر، سـمعت اقتراحـات أن نُعيـد مـا كنـا نلعبـه في الصبـاح، ولكـن لم يكـن أحـد يقـدر عـلى الحركـة بهـذه السرعـة بعـد الأكل. في كل الأحـوال، لم يتركنـا خالـد كثـيراً نترقـب، فبعـد دقائـق وجدنـاه خارجًـا مـن الكوخ وقـد تبـدد هـدوؤه، بيـده شـنطة سـفره، ركـب في السـيارة وانطلـق بهـا إلى طريـق السـفر.

حـين اختفـت سـيارة خالـد عـن النظـر، وشـت لي نـدى بأنهـا سـتنصرف في هـدوء، ودعتنـي إلى أن آتي في أي وقـت لتُكمـل لي خريطـة النجـوم.

- أنـا مـا برجعـش القاهـرة عشـان العـك ده.. مـش عايـزاه يجـي لي هنـا!

لم أتحـرك معهـا. أقـصى مـا كنـت أسـتطيع فعلـه هـو الإبقـاء عـلى عينَـي ثابتتـين تراقبـان كـوخ هديـر، انتظـارًا لخروجهـا في أي لحظـة، حتـى ولـو بعـد سـنين. في آخـر الليـل، لمحتهـا تخـرج بينـما كنـت أشـغل نفـسي بمبـاراة دومينـو مـع طنـط دعـاء. قالـت إنهـا كانـت لعبـة مصطفـى المفضلـة، قلـت إننـي أعـرف حتـى لا تبـدأ قـول أشـياء أخـرى لا أعرفهـا عنـه. حاولـت التركيـز في اللعـب كي يبقـى واحـد في الاسـتراحة لا يترقـب ظهـور هديـر الأول بعـد الخناقـة، ظهـور أتقنتـه فمشـت عـلى الرمـل كأنـه السـجادة الحمـراء، مُبقيـة عـلى ابتسـامة واسـعة لم تفارقهـا، حتـى تركـت

t.me/qurssan

الجمهـور واختـارت أن تجلـس بجـواري، أقـرب مـما عوّدتنـي أمـام النـاس، فلـم أعـرف هـل أشـم ملـح البحـر أم ملحهـا.

- إنتـي عارفـة يـا دعـاء؟ رامـي لعيـب بليـاردو فشـيخ، بـس مافيـش هنـا.

كانـت جملـة خـارج السـياق تمامًـا، حاولـت أن أجـد أي علاقـة بـين البليـاردو والدومينـو لـكي أصنـع منهـا جملـة وفشـلت، فانكببـت عـلى الطاولـة متظاهـرًا بأننـي أحسـب احتـمالاتي قبـل أن ألعـب، كان هـذا حـلي الوحيـد لأبعـد عينـي عـن النظـر إلى طنـط دعـاء، بعـد أن رسـمت عـلى وجههـا تلـك الابتسـامة الثاقبـة التـي لم أكـن أحتملهـا.

- لا ماعرفش والله يا هدير.

بعـد قليـل انصرفـت هديـر، وأكملنـا اللعـب، بعينَـين معلقتـين عـلى الطاولـة، هـذه المـرة لم تسـتطع طنـط دعـاء مقاومـة ضحكتهـا السـاخرة، ونحـن نسـمع هديـر تحـكي بجوارنـا لأصدقائنـا مدمنـي الذكريـات، عـن مغامـراتي معهـا في جمعـة الغضـب، وعـن رامـي الـذي كان الوحيـد مـن بـين الثـوار بـلا كمامـة، ثـم أنهـت طنـط دعـاء الـدور في نصفـه وهـي تقـول كلمـة تخيلـت أني أسـمعها بصـوت مصطفـى:

- لو اللعبة مش مسلياك، ما تلعبهاش. معروفة!

لم أعلـق. تحركـت هديـر وجلسـت عـلى جـذع شـجرة مـتروك عـلى الرمـل أمـام البحـر، فتبعتهـا، وسـمعت صـوت طنـط دعـاء مـن جديـد وتجاهلتـه:

- غلبانة البنت دي برضو.

وأنا أجلس بجوار هدير على جذع الشجرة محتفظًا بمسافة تتسق مع علاقتنا الرسمية، لم تكن تبكي كما توقعت، ولم تلتفت إليّ حتى تتأكد من جلس بجانبها، قبل أن تتكلم كأنها تكلم البحر.

- إنت يا واد يا تقيل انت.. هتسيبني كده أفكاري تجيبني وتوديني؟

لوهلة شككت أنها بالفعل تكلم البحر، أشعلت سيجارة فمالت عليَّ تأخذها من يدي.

- هو انت ناسي اني قلت لك اني باحبك امبارح ولا إيه؟ ولا انت بتسمع الكلمتين دول كل يوم؟

- ودي حاجة تتنسي برضو؟

لم أعرف ماذا كان يمنعني، يمكن لأنه بدا بديهيًّا لي وبالتأكيد هدير تعرفه، أو لأني كنت مستمتعًا بأن أبقى مسيطرًا لأطول مدة ممكنة. في الغالب، كنت أدرك أنني واقع في غرامها أكثر من أن أصرح لها بحبي، خشيت مما سيلي الكلمة من انهيار تام، أعترف لها فيه بقدرتها على قذفي لأي مكان وإعادتي، وهوسي بها الذي حرّكني أكثر من أي شيء في حياتي. صرت أعرف هدير، هذا كان سيفسد كل شيء، حتى ولو خفف وطأة الثقل الذي كنت أشعر به، وهي تمسك بذراعي وتسير بأصابعها تضغط عروقي الظاهرة، كأنها تكتشفها للمرة الأولى، بهدوء وبطء لم أعهدهما في يدها، فقلت:

t.me/qurssan

- أبويـا كان دايمًـا بيتتريـق عليـا، يقـول لي يـا بنـي دي مواسـير مـش عـروق الـلي في إيـدك دي!

رفعت يدها من على ذراعي، وقالت وهي تستلقي على ظهرها:

- إنت عارف يا رامي انت ميزتك إيه؟ إنك مُز بس مش عارف.

ثـم اختبـأت خلـف الجـذع مسـتريحة عـلى الرمـل. حـين قلدتهـا اختفـت إضـاءة الاسـتراحة مـن عينـي ولم يبـق سـوى النجـوم تنـير لي وجههـا. كنـت أعـرف المقبـل، أن تـأتي هديـر فوقـي فتحجـب عنـي هـذه النجـوم، ولكنهـا لم تـأتِ وبـدلاً مـن ذلـك وجدتهـا تريـح رأسـها فـوق صـدري، وتضـم قدميهـا إليَّ كأنهـا تختبـئ بداخـلي، ثـم قالـت بصـوت قلـق:

- هو انت بطلت تبقى عايزني؟

لم أرد أن أشـتهي هديـر، ولكـن مـا الجديـد؟ وجدتنـي أنظـر حـولي، عـلى يميننـا كان كامـب لم يأتِـه زوار، لمحتنـي هديـر أنظـر إليـه، فأومـأت برأسـها بعـدم الموافقـة ثـم ارتفعـت بجسـدها قليـلاً لـترى الاسـتراحة مـن فـوق الجـذع.

- تفتكر شايفينّا؟

- غالبًا.

- تفرق معاك؟

- لأ!

كنـت أكـذب، ولكـن قـد يشـفع لي أننـي لم أكـن أعـرف إن كنـت أكـره أن يرونـا أم أحـب. في ثانيـة، أنقذتنـي هديـر مـن الحـيرة، وهـي

تضـع يديهـا خلـف رأسـها عـلى الرمـل، تحركنـي بقدميهـا إليهـا، تمنحنـي بعينيهـا الحريـة كي أرتجـل، ثـم ترفـع سـاقيها وتسـندها إلى كتفـي، فأرتحـل فيهـا كطفـل تُركـت لـه مدينـة كاملـة يجـري فيها بلا حسـاب. هـذه الليلـة أنـا أغنـي، صرت متأكـدًا وهـي تحـرك سـاقيها كي تحـاوط رأسي وتمنعـه عـن الحركـة، كأن كل مـا سـتتدخل فيـه هـو إبقـائي داخـل هـذا اللحـن، وهـذا اللحـن أرقصنـي كالمجـذوب، ففقـدت معـه الإحسـاس بالرمـل والهـواء، متشـبثًا بلحظـة أدركـت فيهـا أننـي أكتمـل، وسـاقاها تنـزلان وتطوقـان ظهـري، كأني قذفـت نصـف وزني بداخلهـا، فجـأة أصبحـت خفيفًـا، وفجـأة لم ألمـح لهـا عظامًـا، فارتحـت لأن ألقـي بجسـدي كلـه عليهـا، لم تنطـق بكلمـة ولكنهـا كانـت طريـة كأسرّة الفنادق الفخمـة، تعد بإمكانيـة كل شيء.

غفـوة ثـم قمنـا ننفـض الرمـل عـن أنفسـنا. أمسـك كل منـا بيـد حبيبـه ونحـن نقفـز فـوق جـذع الشـجرة كأنـه أطـول منـا، متأهبين للسـتارة التـي سُـترفع عنـا فـور وصولنـا إلى الاسـتراحة، ولكـن لم يكـن أحـد مـن الأصدقـاء ينتبـه، لأن صديقًـا مـا مـن القاهـرة اتصـل في غيابنـا وأبلغهـم أن مـا تبقـى مـن المعتصمـين بعـد غـزو الإسـلاميين لنـا، قـد قـرروا الخـروج مـن الميـدان في مسيرة إلى وزارة الدفـاع للمطالبـة بتنحـي الحكـم العسـكري، فبالطبـع لم يكـن علينـا سـوى أن نهـرول في الكامـب بحثًـا عـن حقائبنـا وهواتفنـا ونشـحن أنفسـنا في السـيارات. أذكـر جيـدًا هـذا الضيـق الـذي كنـت أحسـه، ودخـولي مـن بـاب سـيارة الدكتـور جـاسر كأني أدخـل في نصـل حقنـة، عالمًـا أني لـن أحـس بشـكة دبـوس، وأن في كل يـوم جديـدًا ولكنـه اليـوم نفسـه.

t.me/qurssan

40

ـ مين اللي جاب الجون اللي صعدنا بيه كاس العالم؟

ـ ما اعرفش.

ـ طب أجرة الميكروباص من التحرير للهرم بكام؟

ـ ما اعرفش حضرتك.

ـ طب أكمل الغنوة الآتية: شبرا وبنات شبرا، سبتية...

حاولت أن أنقذنا بإكمال الغنوة المطلوبة بدلاً من جاسر، إلا أن رد الكابتن مجدي كان حاسمًا:

ـ أنا ما أذنتلكش تتكلم. بعدين ما انا عارف انك مصري، بس مصري خول بعت بلدك للجاسوس ده.

الجاسوس كان الدكتور جاسر، وربما جريمته كانت أنه قاد بسرعة جنونية كي يثبت شيئًا ما لفريدة، فوصلنا قبل الأصدقاء. في الطريق، كنت أشجعه على جريمته هذه؛ لأني لم أكن أطيق الوجود في السيارة بعدما تكهربت الأجواء، بسبب تنبيه هدير لنا بأننا قد نحتاج إلى المرور على بيوتنا لتغيير ملابسنا، أو بسبب رد فريدة عليها:

- هدير احنا رايحين مسيرة مش رايحين نتصور.

أتخيل أن هدير كانت تنظر إليَّ كي أقول شيئًا، ولكنني كنت قد أغلقت عيني هاربًا من نظرات فريدة إليَّ من مرآة باب السيارة، وفضلت أن أستمع:

- فريدة احنا لابسين شورتات.. كده بجد هنتصور!

- ماحدش هيركز في الحاجات دي يا هدير.

- ويلكوم تو إيجيبت!

- بجد؟ هتكلميني كده!

لا أعرف كيف انتصرت فريدة لأني كنت قد نمت. أتخيل أن فكرة النوم لحل المشكلات التي استخدمتها فيما بعد، قد أتتني من هذا اليوم. المهم أننا مع وصولنا أدركنا عدم جدوى الخناق، فقد وصلنا في كل الأحوال والمسيرة عائدة بعد أن قذفها أهالي العباسية بالطوب، فوقفنا على طرف الطريق نشاهد ونحضر اللحظة.

t.me/qurssan

كنا في بؤرة حدث ما، أظن أنني أول من أدركته، جذبنا أنظار المشاهدين معنا على الرصيف بشورتاتنا. الأطفال كانوا أكثرهم فضولاً، يتحركون حولنا ويبتسمون دون سبب واضح، ودون اتفاق تراجعت أنا والدكتور جاسر لنقف خلف فريدة وهدير تحسبًا لأي تحرش عابر. وبعد قليل قالت فريدة إنه على الأقل يجب تصوير ما يحدث ورفعه على الإنترنت، فتركنا الدكتور جاسر ليجلب الكاميرا من السيارة، ثم عاد بها في يده وفي ذهنه سؤال قرر بذكاء أن يقوله لنا بالإنجليزية: هل نعرف إن كنا بين الثوار أم أهالي الحي؟

ولم يستطع أحد منا أن يرد على سؤاله بأي لغة، فقد تزايدت الأعداد فجأة في دائرة حولنا، ووجدناه يُرفع من الأرض.

- قفشنا جاسوس يا جدعاااان!

بتلقائية تقدمت لأدافع عنه فوجدتني أُرفع مثله، مع صراخ فريدة قائلة إن الدكتور جاسر زوجها، كأن هذا سيغير أي شيء، ومع محاولة هدير حماية نفسها من الأيادي التي حاوطتنا من كل صوب تاركين أدوارهم كمشاهدين في أجسادنا، شراميط، عملا، كلاب أوباما.

هذا كله انتهى مع ظهور الكابتن مجدي، فارس أزيح له الطريق في ثوانٍ كي يتقدم إلى وسط الدائرة بطوله الفارع وكرشه السمين، ثم يزعق في الناس بصوت مخيف أن يتركونا، فتنزل من علينا الأيادي، يتفحصنا قليلاً ثم يقول وهو يتحرك لثلاثة من مفتولي العضلات خلفه:

- هاتوهم لي ع الصالة!

طوال سيرنا كان الكابتن مجدي يتقدم الموكب بهيبته وخطواته البطيئة متأملاً، نحن من ورائه مستسلمون ومن خلفنا مساعدوه، ولم يكن أحد في الشارع مهتمًا بالحدث كأنه يقبض على جاسوس أمامهم كل يوم. هدير هي الوحيدة التي تقدمت لتلحق به، فتذكرت أنها من إمبابة وربما تنقذنا إن كان أخوها مثلاً ذا باع في البلطجة هناك، ولكنها لم تذكره بهذه المعلومة، بدلاً منها نبهته:

- طب ما يا ريّس احنا معانا بطايقنا لو عايز تتأكد اننا مصريين!

وهو يمشي، رمانا الكابتن مجدي بنظرة سريعة بطرف عينه، قبل أن يثبت ناظرًا إلى الدكتور جاسر، كلنا نظرنا إلى الدكتور في هذه اللحظة، لم يكن يبكي، ولكن دموعه كانت تخرج منه دون سيطرة. حُسم الأمر، قال الكابتن مجدي وهو يكمل السير مخاطبًا هدير وحدها:

- حتى لو انتو مصريين، الحليوة صاحبكو اعترف اهه من غير ما نلمسه.

كنت هادئًا، من دون عرق في يدي، أو مستسلمًا، وكنا ندخل في شوارع أضيق وفي كل شارع ينضم إلى الموكب عدد جديد من الأطفال يزفوننا، لم أكن أنظر إلى أحد من الأصدقاء كي لا أفزع. كنت أعرف استحالة معرفة طريق الهرب فلم أكن أفكر فيه، وبدلاً من ذلك كنت أفكر كيف سأدافع عن صديقتيّ، هذا

t.me/qurssan

كان غير الميدان، كنت أرى غابة العضلات التي تحاوطني وأقول إني على استعداد لدفع حياتي في معركة مثل هذه، إلا أني حين أدخلونا "الصالة" واكتشفت أنها جيم شعبي، ورأيت الرجال يرفعون الأثقال، فكرت أن أرسل رسالة إلى عم صدقي فيجمع عمال المصنع ويغزوا العباسية، فكرت أيضًا أنني لن أنزوي وسأقود عمالي، قبل أن يسحبوا منا الهواتف.

للأمانة، كانت المعاملة ألطف مما تخيلت، لكل واحد منا كرسي وعلبة عصير. جلس الكابتن مجدي أمامنا على مكتبه، من خلفه حائط صور كان لا يمكن ألا يثير الفضول، صورة له قديمة في أثناء مسابقة لكمال الأجسام، وواحدة له مقطوعة من جورنال وهو يرتدي بذلة سوداء ويقف حارسًا لشخصية مخابراتية مهمة من النظام القديم، وصورة له مع طفلين ووراءهم ديكور برج إيفل.

- معايا جاسوس وتلاتة مصريين. هتيجي تستلمهم ولا دليفري؟

كان يكلم شخصًا في التليفون أسماه "الباشا". كتمت ضحكي ولم تقدر هدير، وكانت عينا الدكتور جاسر لا تزالان مبتلتين. أما فريدة، فكانت تنظر إلى السقف، متجاهلة الجميع كأنها ستحرر نفسها من قبضة الكابتن مجدي بمجرد إنكار الموقف داخليًّا. حزن الكابتن من سخرية هدير، ولكنه لم يكن عنيفًا ورأى أن من الواجب أن يشرح لنا كيف يصطاد الجواسيس متطوعًا دون أجر، معتمدًا فقط على تدريبه الذي تلقاه وهو حارس في جهة سيادية، وأن هذه المرة الأولى التي يصطاد فيها

مـن إمبابـة؛ لأنـه منشـغل منـذ بـدأت نكسـة 25 ينايـر بمراقبـة الجواسـيس في مقاهـي وسـط البلـد.

مستسـلمين لـدور الفريسـة جلسـنا ننصـت باهتـمام. شـخصيًّا، كنـت أود أن نسـايره حتـى يوصلنـا إلى الباشـا معتقـدًا أن التفاهـم معـه سـيكون أسـهل بكثـير، ولكـن فريـدة حطمـت آمـالي حـين تذكـرت فجـأة أنهـا مخطوفـة، فـأرادت أن تُذكـر الكابـتن:

- بـس احنـا مصريـين زينـا زيـك، وبنخـاف عـلى بلدنـا زينـا زيـك!

لم يعرهـا كابـتن مجـدي أي اهتـمام، ووضعـت هديـر يدهـا عـلى رأسـها متقبلـة أننـا انتهينـا. ولكـن أتوقـع أنـه رأى أننـا لا نسـتحق اسـتكمال الاسـتماع لقصتـه، فبـدأ عـلى الفـور اسـتجواب جـاسر الـذي كان بالتأكيـد لا يملـك أي رد عـلى أسـئلة فقـرة المنوعـات مـع الكابـتن مجـدي، كانـت الأسـئلة في البدايـة تاريخيـة، هـل تعـرف كـم مـرة تزوجـت سـعاد حسـني؟ كان وجـه كابـتن مجـدي يبتسـم مـع كل فشـل لجـاسر في الـرد، يتأكـد مـن حقيقـة فطرتـه في اصطيـاد الجواسـيس مـع كل سـؤال، فينتقـل إلى الجغرافيـا، هـل تعـرف كيـف تصـل إلى كبابجـي أبـو أشرف في السـيدة؟ ثـم تنوعـت الأسـئلة العشـوائية عـن الفـن والرياضـة والمشـاهير، إلى أن وصـل إلى سـؤاله النهـائي مـع دخـول الكابـتن بـودي فارسـنا المغـوار إلى صالـة الجيـم.

- آخر سؤال. تعرف الراجل ده؟

t.me/qurssan

أفزعتنـي رؤيـة بـودي. لم أكـن لأنـسى مشـاهده الشـهيرة وهـو يطيـح بـكل منافسـيه بسـهولة في الأولمبيـاد، والأهـم أسـاطير ميـدان التحريـر عنـه، وهنـا توقـف التحقيـق، والتزمنـا الصمـت ونحـن نشـاهد الكابـتن بـودي يدمـر أسـطورة الكابـتن مجـدي.

- إنت ياض يا ابو شخة انت مش هتبطل هطل؟

انكمـش الكابـتن مجـدي في مكانـه بسرعـة غـير مُتوقعـة وهـو يخـرج هواتفنـا مـن درج مكتبـه:

- يا كابتن بودي بقى ما تبوظش شغلنا بقى!

بهـذه البسـاطة؟ أصبحنـا بـين أيـدي بـودي، يعتـذر إلينـا بـكل الطـرق الممكنـة.

- ده مجدي، عبيط وكل المنطقة بتاخده على قد عقله!

صمـم ألا يتركنـا إلا عنـد السـيارة، وفي الطريـق كنـا لسـبب مـا نحتفـظ بـأن نمـشي نحـن الأربعـة وراءه، بالطبـع حتـى تقدمـت هديـر بحماسـها المسـتفز:

- أنا عارفاك على فكرة.

- طب كويس.

- مش قوي يعني، ما تتغرش!

- عادي.. ما انا عارفك برضو.

لاحـظ بـودي وجودنـا معهـما عنـد وصولنـا إلى السـيارة، فأوضـح أنـه يعرفنـا جميعًـا، يألـف وجوهنـا مـن القعـدة في الميـدان، مؤكـدًا أنـه سـعيد بلقاؤنـا بعيـداً عـن السـبب، ولكـن هديـر لم تكـن

تلاحظ وجود أي أحد، لم تترك عيناها بودي حتى اختفى مع تحرك الدكتور جاسر بالسيارة. حاولت ندى تجاهل الموقف من جديد وشغّلت الكاسيت، إلا أن الدكتور جاسر أغلقه بضربة عنيفة أسكتت الجميع لفترة، وأكدت لي أن هذا الرجل سيسافر ويترك فريدة قريبًا جدًّا، ولم يعد يُسمع داخل السيارة إلا صوت أزرار هاتف هدير، وهي تقتل جوجل بحثًا عن اسم بودي الحقيقي. بودي الذي قيل إنه في محمد محمود كان يصد الرصاص بكف، وبالأخرى يعيد إطلاقه، وإن جنود الشرطة كانوا يتباطأون في الجري على أصدقائنا هناك، خشية أن يصطدموا بصدره في الطريق فيتساقط منهم الجرحى، وإن السحب الرمادية التي كانت تهبط على هذا الشارع في ذروته، بعضها يكون غازًا مسيلاً للدموع وبعضها يكون غبارًا يرتفع من الأرض حين يجري بودي عليها. مجندنا الباسل الذي لا يعرف حواديته إلا أهل الميدان، ورئيس أركاننا.

حين لمحت هدير تعثر على اسمه، كنت أتحجج بأني سأزور صديقًا لي كي أنزل من السيارة، نزلت ومشيت متأملاً كما يليق بمهزوم أدرك هزيمته منذ دقائق فقط.

t.me/qurssan

41

أمـا الآن، بعدمـا رأيـت اليـوم خريطـة لقاءاتنـا التـي أتخيـل أن هديـر تركتهـا لي عـلى جـدران وسـط البلـد، فلـم أعـد أخـشى الهزائـم، بـل أخـشى أن أظـل عالقًـا بـلا هزيمـة ولا نـصر، ولهـذا كنت أتمنـى لـو لم تكـن الطـرق لاعتصـام صـلاح سـالم بطيئـة بالشـكل الـذي كانـت عليـه. أعتقـد أن طنـط دعـاء كانـت تحـس الـشيء نفسـه لأنهـا تشـبثت بالمقـود ومالـت للأمـام، كأننـا في سـباق، رغـم أن السـيارة كانـت تسـير بسرعـة الأقـدام، وكانـت مهمتـي أن أقـرأ لهـا مـن هاتفهـا مـا يُكتـب عـلى تويـتر؛ لعلـه يرشـدنا إلى طريـق مفتـوح:

- ماحـدش ييجـي مـن شـارع الطـيران، بلطجيـة لابسـين مـدني بيقبضـوا عـلى النـاس هنـاك.
- اللي عايز يوصل ييجي من شارع الطيران.. السكة سالكة.

وعلى الرغم من أني كنت أقرأ ما يُكتب كأني أسمعه بأصواته الحقيقية، وما بها من ذعر وحماس، فإن صوتًا أعلى كان يخترق أذني كلما قرأت ويصرخ فيّ: اهرب يا رامي، اهرب ولا تعُد أبدًا، هذه بطولة متأخرة، اعتذار في الفراغ، هذا لن ينتهي أبدًا وأنت لست الفارس الذي سينهي معركة بين طوب ورصاص.

شعرت بملل خانق، أني بعد كل هذه المدة عُدت لأفكر فيما يُفترض أن أكون قد حسمته إلى الأبد، يوم نزلت من السيارة بعد أن حرّرنا بودي من الأسر. أذكر كلامي الذي أعرف الآن أني بلعته: ستزداد الهزيمة وطأة بقدر مقاومتي لها، وليس من الضروري أن أكون بطل هذه القصة لمجرد أني أعيشها. قلت هذا كأنه حقيقة حملتها معي في كل خطوة مشيتها لأيام، راسخة في ذهني لا يزحزحها شيء، لا مكالمات هدير المتتالية التي لم أرد على واحدة منها، ولا كتابتها "قوم نحرق هالمدينة" على صفحتها كل صباح، لا دعوات طنط دعاء المتكررة لعشاء على انفراد، ولا نداءات فريدة لاحتياجها إلى أحد يطبع بوسترات المليونية المقبلة، ولا حتى رسالة كريم التي قال لي فيها إنه لن يحتفل إن لم آتِ إلى فرحه، الذي عاد لأجله مع عروسه خصوصًا من لندن.

حتى حين غيَّرت هدير وضعها الاجتماعي على الفيس بوك إلى سنجل، لم يزدني هذا إلا اقتناعًا بقراري الاعتزال، مدركًا أنني أفقد أملي الوحيد، أن تنصلح أمورها مع خالد. كنت أتمنى هذا، كان على الأقل سيمنح طعمًا جميلاً للذكرى، انتهينا ونحن نوشك أن نصل إلى القمة. وفي أكثر احتمالاته راحةً، كان

t.me/qurssan

سيبقي على لذاتنا السرية في أماكنها، نزورها كلما صارت حياتها مع خالد مستحيلة دونها. وهذه الغيرة، قتلتني مرة واحدة، استثناء فرضته طبيعة البحر وتسرب أصواتهما من خشب كوخهما، هذه أشياء عملية كان يمكن حلها، حتى لو اضطرني الأمر في سفرية مقبلة إلى أن أشد لهما خشب الكوخ بنفسي.

إنما أن يُترك الخشب على حاله وأحل أنا مكان خالد؟ كابوس كنت لا أنام خشية منه، أنظر إلى كمِّ الشبق الذي كان في عينيها وهي تنظر إلى بودي من السيارة، تحصي منه كم سرًّا سيغطيهما حين أبدو لها عاديًّا بما يكفي، كي ننكشف أمام الناس كحبيبين. الأسوأ، كان ألا يحل أحد مكان خالد فتنطلق هدير وحدها، بإدمانها للبشر والصيد، وقتها ستنفتح الساحة للاعبين من كل ناحية في مباراة لا تنتهي. هذا بودي، ابن البلد الجدع، كفه بحجم صدري، كيف أنافسه؟ والأهم كيف أنافس مطرب الثورة، والمذيع الخطابي، وكابو الألتراس، والفنان التشكيلي، والباحث الثوري الإسباني، والممثل الجديد الوسيم، والثائر ابن وزير خارجية مبارك، والشاعر العدمي، والعامل المثقف الحزين؟ كيف كانت تفكر هدير وهي تنتقيني فردًا في هذه اللعبة؟ ولماذا أحببت أصلاً هذه الكليشيه التي تسير على قدمين، حاملةً معها رجالها وذكرياتنا ومشاريع كوابيسي وأصواتًا مفزعة للرصاص؟ قلت وقتها، جميل أن شاشات التليفزيون تكبر يومًا بعد يوم، كي نكتفي بمشاهدة نجوم الأفلام كأننا نعيش قصصهم، وجميل أن الأفلام تنتهي قبل أن نشاهد نجومها وهي، مثل كل شيء آخر، تنزوي ثم تنطفئ.

لم يكـن هــذا مجـرد كلام في الهـواء، بـل بالفعـل تمـردت عـلى دوري حـين أتـت أخـيراً الحبكـة المعتـادة بعدهـا بأيـام، رغـم التـزام هديـر بمـا يقتضيـه دورهـا مـن تأنـق وابتسـامة مشـتاقة. ذهبـت إلى سـوبر ماركـت الكمبونـد كي أرى الشـارع، بحجـة ابتيـاع سـجائر. غبـت أتمـشى، وعـدت لأجدهـا تنتظـرني أمـام بيتـي، تتكلـم كأنهـا اسـتعدت كثـيراً لمـا سـتقول:

- خـلاص خـدت غرضـك منـي وجريـت؟ دي أخـلاق شـباب التجمـع الخامـس؟

- إيه؟!

- بـس انـت نسـيت بقـى اني مـن امبابـة ومـا باسـيبش حقـي.. مـش هاسـيبك غـير لمـا تعلمنـي البليـاردو زي مـا وعدتنـي!

- اتفضلي.

كنــت صامتًــا في البيــت. بالتأكيــد كان هنــاك شيء يمكــن أن تقولـه هديـر كي أرتمـي في حضنهـا، ولكنهـا لم تقلـه، ولم أكـن في مـزاج للعـب، ولكـن وافقـت أن أعلمهـا كيـف تمسـك بالعصـا وكيـف تصـوب الكـرات، محـاولاً الابتعـاد عنهـا كلـما أتـت فرصـة لأن نتلامـس. هـذه الحيـل فجـأة لم تعـد تغرينـي.. بعـد قليـل، تركـت العصـا عـلى الطاولـة، فأعتقـد أنهـا أدركـت عـدم وجـود مجـال للحيـل، ولكنهـا بـدلاً مـن أن تقـول أي شيء اسـتخدمت لغتنا القديمـة وقرّبـت شـفتَي مـن رقبتهـا، فـإذا بي كأني أذوق جـدارًا مـن الإسـمنت. وجدتنـي نافـرًا منهـا، مـن عطـر جـوز الهنـد الخـارج مـن رقبتهـا، ومـن طغيـان رائحـة معجـون الأسـنان عـلى نَفَسـها،

t.me/qurssan

وعلقـت في فكـرة واحـدة: ثمـة رائحـة جديـدة تختبـئ خلـف كل هـذا، فعـدت بـرأسي إلى الـوراء.

ـ أنا آسف.. أنا مزاجي مش كويس!

جلسـتُ واسـتفزني أن تجلـس بجـواري وتمسـك بيـدي، تسـألني عـمّا يضايقنـي بـكل بـراءة، وتقـول إن حياتهـا صـارت سـخيفة مـن دوني، فلـم أجـد شـيئًا أفعلـه غـير أن أطلـق رصاصـة، عالمًـا أنهـا إمـا سـتصيبها وإمـا سـتصيبني:

ـ هدير، إنتي عايزة إيه؟

فكان ردها الذي فتت الرصاصة في كل اتجاه:

ـ عايزانا نرجع زي ما كنا.

ـ آسف، شطّبنا.

لم تسـكت هديـر، وأظـن أني رأيـت عـلى وجههـا أسى جعلنـي أسـتمع لهـا وإن كنـت لم أفهـم شـيئًا مـما كانـت تقولـه. كلام غـير مترابـط كان يخـرج منهـا بصعوبـة. كانـت تسـبّنا، نحـن الرجـال، أنـا وأباهـا وخالـد وآخريـن، جمعتنـا كلنـا في جملـة واحـدة، وكانـت تتهمنـا بالغـرور؛ لاعتقادنـا أننـا نسـتطيع وحدنـا منـح إنسـان آخـر كل السـعادة التـي يسـتحقها، وكانـت تقـول إنهـا لـن تكـون ملـكًا لأحـد. رغـم أنـه كان نقيضًـا تمامًـا، فقـد كنـت أسـمع كلامهـا بصوت أنجيـلا في خناقتهـا الأخـيرة مـع مصطفـى، ولكنـي لم أتذكـر رده عليهـا فقاطعـت هديـر بصـوتي:

.ده انا افتكرتك عايزة تصاحبيني. بما إن يعني لازم يبقى فيه واحد مُعلن وواحد سري، فقلت هابقى أنا المُعلن طالما بودي خد مكاني!

لم تكن غاضبة، كانت مندهشة:

- بودي؟ لا يا رامي!

- متأكدة؟

- بودي صديق عادي.. ومش من حقك تتكلم عني كده. أنا مش كدابة.

- بجد؟ واللي احنا كنا بنعمله في صاحبك ده كان إيه؟

- نعمله؟ وانت مالك انت دي قصتي أنا معاه ما تخصكش.

- هدير، إنتي ما عندكيش صديق عادي. ولا بودي ولا أي حد.

- إياك تحاول تكلمني تاني!

إذًا كانت نهاية، فما موضوع خريطتنا هذه؟ وإن لم يكن هذا حبًّا، لماذا أستغل تركيز طنط دعاء في القيادة، وبين كل خبر وآخر أنتقل إلى الفيس بوك وأبحث عن هدير؟ وكيف يكون هذا خيانة للمعتصمين بحثًا عني؟ لا يعنيني رأيهم، لماذا أرى في هذا خيانة؟ وأين ذهبت هدير؟ لا شيء تكتبه عنى ولا عن غيري. هذا أغرب من القصة المُثارة عني. آسف، بالفعل هذا لغز أهم، فأنا أعرف هدير. لم أعد متأكدًا. قلت لطنط دعاء كي أهرب من الورطة:

t.me/qurssan

- تفتكري انتي أبويا كان هيعوزني أتصرف ازاي؟

ولكنهـا لم تـرد، نظـرت إليَّ ثـم إلى الهاتـف في يـدي، وأكملـت النظـر إلى الأمـام، وبقيـت أنـا مـع السـؤال الأسـخف: إن كانـت هديـر سـتحبني الآن فقـط مـن أجـل هوسـها بالأضـواء، لمـاذا يفعـل الآخـرون هـذه الأشـياء التـي أشـاهدها عـلى التليفـون؟ مـا الـذي دفـع نـدى كي تحمـل صـورتي معهـا إلى أعلى قمـة جبـل في الهيمالايا، وكريـم كي يقطـع شـهر عسـله ويقـف وحـده متظاهـرًا عـلى كوبـري قـصر النيـل، وخالـد كي أكـون مـشروع فيلمـه الجديـد، والدكتـور جـاسر كي يكتـب أنـه شـعر بالأمـان فقـط لوجـودي بجـواره يـوم خُطفنـا في العباسـية، وبـودي كي يحسـدني عـلى شـجاعتي التـي دافعـت بهـا عـن زميـل الزنزانـة المريـض، وباسـم الـذي يقـول إنـه كان يقسـو عـليَّ لعلمـه أني شـخص نـادر؟ ومئـات الآخريـن الذيـن يواجهـون المـوت الآن والإصابـات، فقـط مـن أجـل أن ينقـذوا شـخصًا لا يعرفونـه ويظنونـه في خطـر. ربمـا الأمـر كان كذلـك طـوال السـنة، أردت أن أحبهـم، ولكنـي لم أشـعر بهـذا، وحقيقـة أني كنـت أدَّعـي حبـي، كانـت تجعلنـي أسـأل إن كانـوا هـم أيضًـا يدّعـون كل شيء. وفي لحظـة، أشـعر فعـلاً بمـا كنـت أدعيـه، فكأنـه انفجـار في القلـب، لا أعـرف إن كانـت سـتخرج منـه ورود حمـراء أم دمـائي. قلـت لطنـط دعـاء بنيـة صادقـة:

- إنتي متأكدة ان اللي هنعمله ده مفيد؟

لم تـرد، وكان شـيئًا لا يُطـاق، كيـف كانـت تعـرف أنـه سـؤال لا أقولـه موجهًـا لهـا؟

t.me/qurssan

42

أو قـد تكـون هـذه نسـختي الأفضـل، النسـخة التـي أقفشـها الآن تشـعر بحـب مـن آخريـن، وتريـد أن تبادلهـم العطـاء. ممكـن. مـا لا تعرفـه طنـط دعـاء، وأدركـه الآن، أني لم أكـن شـخصًا يصعـب التعاطـف معـه عـلى طـول الخـط. كانـت لي هبّـات، تـأتي ومعهـا نسـخة جديـدة منـي، راغبـة في أن أكـون شـخصًا مفيـدًا، وأن هـذه الهبّـات أحيانًـا كانـت تسـتمر لأسـابيع. أجملهـا تلـك التـي ارتديتهـا بعـد مـا ظننتـه نهايـة علاقتـي بهديـر. هـذه النسـخة منـي أردت لـو أُحكِـم عليهـا لأطـول وقـت بداخـلي، وليـس فقـط لإعجـابي بإيجابيتهـا وحبهـا للارتجـال، بـل أيضًـا لأنهـا الأولى التـي كانـت تنسـاني وتـسرح معـي فيـما أراه، بـدلاً مـن نسـخي القديمـة التـي كانـت تقـف أمامـي بعينـين مصوَّبتـين إليَّ، وضخامـة تحجـب كل شيء وراءهـا. والأهـم، أنهـا كانـت النسـخة الوحيـدة التـي تسـتطيع

النظـر إلى الخلـف، وتسـتهزئ معـي بنسـخة مجنـون هديـر، ونحـن نشـاهد دون اكـتراث صورتهـا بجـوار بـودي في حفـل عيـد ميـلاد طنـط دعـاء، بـل وأقـدم مـن هـذا، ننظـر ونسـخر مـن نسـخي التـي أقحمتنـا في عـوالم خـارج سـياقاتنا ولا نملـك فيهـا أي مقومـات للنجـاح. نسـختي الجديـدة كانـت تسـتطيع النـوم بسـهولة، وتصحو في الصبـاح حكيمـة، تقـول:

- يا ما دقت ع الراس طبول!

الكلمـة التـي ظـل عـم صدقـي يقولهـا لي كلـما رأى الفـزع عـلى وجهـي، ونحـن نخـرج مـن اجتـماع إلى آخـر، نجـر معنـا فشـلنا في صـد الهجـوم عـلى مصنعنـا. نعـم، هـذا مصنعنـا، كنـت أقـول لعـم صدقـي، وليـس كي أشـجعه عـلى أن يسـتمر في محاولاتـه لإنقاذنـا، ولكـن كي أقنعـه بأننـي لـن أختفـي، وأننـي سـأحضر معـه الاجتـماع الـذي نسـتضيف فيـه منـدوبي حمايـة المسـتهلك، وأخبرهـم أننـا أوقفنـا الإنتـاج بأنفسـنا لنجـري اختبـارات، وأننـي لـن أبقـى صامتًـا في اجتـماع مديـر مشـتريات شركـة كـوكا كـولا، بـل سـأتفاوض معـه عـلى مهلـة أكـبر نسـوّي فيهـا أوضاعنـا.

صحيـح لم أكـن أعـرف أي شيء عـن كيفيـة تحقيـق الوعـود التـي ألتـزم بهـا، ولكننـي لسـبب مـا كنـت مقتنعًـا بـأن الأزمـة سـتمر، كـما انقشـعت غيمـة هديـر في أيـام وكنـت أظنهـا سـتطبق عـلى أنفـاسي. حتـى إني حـين كانـت تحـل السـاعة السادسـة، لم أكـن أعـود إلى بيتـي كي أغـرق نفـسي في قلـق عـلى مسـتقبلي وأمـاني المـادي، بـل كانـت بي ثقـة مجهولـة المصـدر عـن قـدرتي عـلى حـل كل المشـكلات في الصبـاح، وأني سـأكون بخـير حتـى لـو لم يُحـل أي

t.me/qurssan

شيء. هـذا كابـوسي، أن أفقـد كل شيء، صرت أعيشـه حتى اكتشـفت أنـه ليـس بالفـزع الـذي كنـت أتخيلـه.

تقريبًـا كل يـوم كنـت أصـل إلى وسـط البلـد في الليـل. أركـن سـيارتي، ثـم أقـف مندهشًـا أني قطعـت كل هـذه المسـافة مـن بيتـي فقـط كي أتمـشى. كنـت أمـشي، بالسـاعات، بخطـوات سريعـة وسـماعات في أذني، كـما يفعلـون في الأفـلام قـرب النهايـات، وبالفعل كانـت تمـر بي الشـوارع في صـور سريعـة كأنها تسـير عكـس اتجاهي، وكانـت عينـاي تتفتحـان مثـل هـؤلاء الممثلـين عـلى كل مـا مرّ عـليّ دون أن ألاحظـه، منـذ ظهـوري عـلى شاشـة وسـط البلـد. كيـف اتسـعت الشـوارع أوسـع مـن حبكتـي، وكيـف يبـدو النـاس سـعداء. كنـت أسـير في انتظـار مشـهد حتـمًا كان سـيأتي، المشـهد الحكيـم الـذي يقابـل فيـه البطـل شـخصًا عابـرًا يغـير حياتـه.

في ليلـة مـع المـشي عطشـت، فجلسـت عـلى أقـرب مقهـى، وأتـاني مشـهدي المنتظـر مـع زجاجـة الميـاه. اكتشـاف كبـير، كان أن مـا فاتنـي كثـير وأنـا أتنقـل بـين الميـدان وبيـوت الأصدقـاء وبـار سـتلا، وبالطبـع هديـر. المقهـى أصبـح عـشرة مقـاهٍ، والشـارع صـار لـه مـلاك جـدد. متـى كـبر هـؤلاء وصـار لـكل منهـم مقعـد عـلى مقهـى يظـل خاويًـا في انتظـاره مـع شيشـته الخاصة؟ ولمـاذا يتنقلون بـين المقاهـي بسرعـة تلفـت انتباهـي؟ فجـأة صرت بالنسـبة إلى آخريـن مـن الجيـل الأكـبر؟ لم أكـن أتخيـل أن أفـزع بهـذا الشـكل قـرب الثلاثـين، وأزعجنـي أن أجـد نفـسي أتنصـت عـلى مجموعـة مـن الشـباب مـن بـاب الفضـول، وأن أجدهـم يلاحظـون هـذا ولا يعلـق منهـم أحـد. قاومـت، حتـى غلبتنـي أذني وأحدهـم يحـكي

عـن تجربـة حبسـه التـي فهمـت أنهـا انتهـت بالأمـس، كان يحـكي عنهـا باسـتهزاء مريـب، "الـواد شـادي كان مكسـوف يقلـع عشـان لابـس بوكـسر أحمـر". ثـم يكمـل قصتـه الكابوسـية عـن وضعهـم في الهـواء الطلـق معصـوبي الأعـين، وكيـف لمسـت يـده بالخطـأ صـدر مينـا "اللـي عنـده بـزاز أكـبر مـن اللـي عنـد صاحبتـه"، وعـن الاعتصـام الـذي دام لنصـف سـاعة قبـل الإفـراج عنهـم؛ لأن أحـد المحبوسـين صمـم ألا يخـرج مـن دون كارنيـه نـادي الزمالـك الـذي سُرق منـه في أثنـاء القبـض عليـه. كيـف تضحـك مـن كان واضحًـا أنهـا حبيبتـه عـلى هـذه الكوابيـس؟ هـل كل شيء أسـهل مـما أتخيـل؟ أم أن شـيئًا مـا صنـع هـؤلاء العيـال بهـذه الصلابـة كأوتـار عـود مشـدودة، تحـوِّل أي خبطـة إلى لحـن، وصنـع منـي في الوقـت نفسـه صوتًـا، كلـما حـاول الخـروج يتثـاءب صاحبـه؟ سـألت نفسي قبـل أن أرد عـلى أحدهـم، والآخـرون منشـغلون للفصـال في دفـع الحسـاب للقهوجـي.

ـ تحب تغني؟

ـ للأسف صوتي وحش قوي.

ـ ما هو ده المطلوب!

في الطريـق، شرح لي شـادي، الـذي سـيظل في ذاكـرتي إلى الأبـد عاريًـا ببوكـسر أحمـر، فكـرة المـشروع. دعـوة مفتوحـة لورشـة يشـارك فيهـا أي أحـد مهتـم، مـدة الورشـة ثـلاث سـاعات يتعـاون فيهـا المشـاركون عـلى تأليـف أغنيـة واحـدة وتلحينهـا، ثـم يخرجـون بعدهـا مبـاشرةً لتأديتهـا أمـام الجمهـور. مـشروع اسـمه كـورال الشـعب. كان مُتوقَّعًـا أن يحـضر عـرض الليلـة مئـة وخمسـون

t.me/qurssan

شخصًا، عرفت من الفيس بوك بعد أن وصلنا إلى غرفة واسعة، فهمت من كلامهم أنها المسرح. لا أعرف كيف انقضت مدة الورشة بهذه السرعة، كانت الأفكار تأتي سريعة من كل ناحية، لم نجد وقتًا للتلحين فاخترنا أن يكون اللحن لأغنية معروفة، شاركت بكلمة أو كلمتين لم نضفهما إلى الكلمات النهائية للأغنية، ومع هذا حين كنا نغني البروفة النهائية كنت متأكدًا من أنني الذي ألّف هذا الكلام، وأنني أعيش أسعد يوم لي في هذه السنة. وفي دقائق، أخلينا القاعة حتى يدخل الجمهور الذي لم يكن يزيد على عددنا، ثم خرجنا لنقف في ثلاثة طوابير من أمامها تدلت ميكروفونات، وسُلطت علينا إضاءة قوية فلم أعد أرى أحدًا، غير شادي الذي تقدم من بيننا ليحيي الجمهور قبل أن يخبط بقدمه على الأرض مرتين؛ في إشارة لأن نبدأ الغناء بجدية الأناشيد.

- رائد، يا حرية. رائد، يا عسلية. يا حامي الثورة المصرية يا رائد. رائد.

ثم بدأ الكل يرقص مع زميلنا وهو يعزف على الكيبورد، مقلدًا موسيقى المهرجانات.

- في البيوت، العسكري. في الريموت، العسكري.

في الأكل، في الشرب، في الدماغ، بالرصاص.

اصحى للكلام، وطنية مصرية أصلية عسلية.

على ابوه ع النار، حرية بانتظام، ثورية باحترام.

بالعقل بالحب، في الطابور بالنظام.

مـع انتهـاء الأغنيـة كان الـكل يصفـق، الجمهـور والعارضـون، ولم نعُـد بعدهـا إلى الكواليـس، خـرج الـكل مـن المـسرح في وقـت واحـد. قـال شـادي سـنعود إلى المقهـى كي نحتفل، داعيًـا كل الواقفين أمـام المـسرح. في الطريـق اقترحـت عـلى زميلـة مـن الفرقـة كانـت عـلى يسـاري في أثنـاء الغنـاء، أن نصنـع تيشرتـات موحـدة لنرتديهـا في العـروض المقبلـة، وقالـت إن هـذه فكـرة غبيـة، وإني لم أفهـم فكـرة المـشروع، فلـم أجلـس معهـم كثـيرًا عـلى المقهـى خشـية أن أقـول شـيئًا يمنعهـم مـن قبـولي في عرضهـم المقبـل، ويفسـد عـليَّ السـكينة التـي أدخلهـا فيَّ الغنـاء الـذي لم أسـمع صـوتي فيـه.

هـذه السـكينة التـي حلَّـت عـليَّ بعـد الغنـاء، نفخـت فيَّ طاقـة لا تنضـب. بالنهـار رجـل أعـمال في أزمـة، وبالليـل شـاب بـلا مـأوى، حتـى كـدت أنـسى كيـف كانـت حيـاة البيـوت ونـوم الأسِرّة. أعـود كل بضعـة أيـام إلى البيـت لأسـتبدل مـع الغسـالة ملابـسي، أضـع النظيفـة في شـنطة السـيارة وأنطلـق مـن جديـد إلى وسـط البلـد. لاجـئ يبيـت في أي كنبـة تنتهـي عليهـا السـهرة مـع أصدقـاء الليلـة، وإن لم تكـن هنـاك كنبـة أفـرد كـرسي السـيارة وأغمـض عينـي حتـى تداعبهـما ولادة الشـمس فأتمـشى قليـلاً. في فجـر وسـط البلـد كنـت دائمًـا أجـد صديقًـا جديـدًا يبحـث عـن سـاندوتش فـول.

كنـت للمـرة الأولى متحمسًـا لأشـياء، منغمسًـا فيهـا بأكـثر مـن جسـدي، غـير مكـترث بوضعـي فيهـا بقـدر حـماسي لأن أشـارك، كأن الحيـاة ضعفـت فجـأة أمامـي، فبـات مـن الطبيعـي أن أقـدم لهـا يـد المسـاعدة. صممـت لنفـسي خـط الإنتـاج ودخلـت بـإرادتي فيـه، تلميـذ في ورشـة خالـد لصناعـة الأفـلام، ومتطـوع في حملـة

t.me/qurssan

مرشح الثورة لانتخابات البرلمان بعين الصيرة، مساعد لفريدة في تجميع شهادات مصابي المعارك الشهرية، ورفعها على الإنترنت، وجندي لا يهدأ مع مجموعة طنط دعاء للبحث عن المقبوض عليهم بين الأقسام والمستشفيات وأروقة المحاكم، ومتطوع في حملة توعية الأحياء بأهمية إعادة تدوير القمامة، كل يوم كنت أسمع عن ناس لا أعرفهم متحمسين لشيء ما فأنضم إليهم، أطبع تيشيرتات وبيانات وأوزعها على الناس بابتسامة مندوب مبيعات محترف. صحيح أنني كنت أتجنب أي شيء فيه هدير، ولكن دون غم، محاولة فقط كي أبقى جنديًا صامتًا قدر الإمكان. وصحيح أنني لم أكن أذهب للمعارك التي كانت تنشب فجأة مرة كل شهر، دون أن أعرف سببها، ولكني لم أكن أنزوي لائمًا نفسي كأن هذا أو لا شيء، بل كنت أشغل نفسي بما أقدر عليه، أنشط حتى يهدني التعب، ثم أنام في سيارتي هانئًا كالأطفال.

في يوم صحوت في وسط البلد، ورأيت أخيرًا المجهولين الذين نصحو كل يوم، لنرى ما تركوه لنا مرسومًا على جدران وسط البلد، وقبل أن تطلع الشمس كانوا قد علموني كيف أفرغ الإستنسل وكيف أرش الإسبراي. بالفعل لم يكن يعنيني أي وجه نرسم. كان يعنيني أن موعد عرض باسم على النيابة اليوم، وأجلت له مواعيد العمل حتى العصر.

- إحنا بنلم كفالات عشان الناس اللي جوه، لو حابب تشارك يعني.

همس لي الجالس بجواري، كنا على سلالم النيابة، متناثرين في كل مكان، نمنح مؤخراتنا بعض البرودة على رخامها في انتظار أن يحضر المسجونون للعرض عليها. كنت أنا من بادر بالكلام معه قبلها بساعة حين قتلني الملل، وصار اللحاق بمواعيد العصر مستحيلاً. سألته إن كان لجلوسنا هكذا أي معنى، فقال لا شيء غير أن نُذكرهم بأنهم لم يُنسَوا بعد، فاتصلت بعم صدقي لألغي كل مواعيد اليوم.

لم نرَ سيارة الترحيلات إلا قرب المغرب وهي تدخل المبنى من باب خلفي، وكانت اللحظة أسرع حتى من أن أرى باسم بداخلها. دقائق وأبلغنا أحد المحامين من الداخل بالقرار، إخلاء سبيلهم بكفالة خمسة آلاف جنيه لكل واحد، فذهبت مع زميل السلم إلى أقرب ماكينة صرافة. سحبت منها عشرة آلاف جنيه، أعطيتها له ومشيت. وبينما كنت أشرب وحدي بيرة في بار ستلا احتفالاً بالإفراج عن باسم، كنت أتجنب مكالماته لأني كنت أحاول الاتصال بعم صدقي، أطلب منه نسيان أي عقوبة اقترحتها بخصوص باسم، وأطلب منه ألا يوبخه بأي شكل حين يعود للعمل، حتى استسلمت أمام إلحاح رسائله ولهجته الآمرة وهو يطلب مني أن أزوره في البيت.

ظل معي على الهاتف يوجهني لكيف أدخل يمينًا في شمال في شمال، من الشارع الرئيسي بجسر السويس. حتى بعد الوصول إلى العمارة، ما تطلعش السلالم، خش يمين، عدي الغسيل المنشور، هتلاقي أوضتين، أنا اللي ع اليمين. عرفت مع دخولي غرفة باسم لماذا يذكر كلمة "الشوارع" بغزل كلما

t.me/qurssan

يتكلـم، لا تفـرق بكثـير غرفتـه، هـذا بـلاط يُسـتخدم عـلى الأرصفـة، وهـذه جـدران رماديـة تُركـت بـلا دهـان مكتظـة بكتابـات وأشـعار، وهــذا كــرسي وحيــد جلــدي ومكســور، أتخيلــه كان مــن غنائــم أي مــن اقتحاماتنــا للمبــاني الحكوميــة، عــلى المرتبــة المقابلــة لــه جلسـت، وأنـا أكـرر لنفـسي مـا قررتـه في الطريـق: الانسـحاق أمـام باسـم شيء مـن المـاضي، إنمـا لا تسـمح لـه أن يشـكرك عـلى أي شيء.

ولكنــه لم يشــكرني، وبــدلاً مــن ذلــك أشــار إلى حزمــة النقــود التــي كان وضعهـا عـلى الطاولـة بترتيـب، كأحـراز النيابـة، وقـال لي:

- خد فلوسك. وبطل عبط وما تعملش كده تاني!

مـاذا فعلـت؟ نظـرت إلى النقـود فوجدتهـا أكـثر مـن أن تكـون الكفالـة التـي دفعتهـا لـه، فأدركـت أنـه يقصـد النقـود التـي كنـت أرسـلها إلى أمــه أول كل شــهر منــذ القبــض عليــه. أخــذت النقــود مستسـلمًا للهجتـه الأبويـة التـي جعلتنـي أهضـم كلمـة عبيـط بـكل سلاسـة، ولكنـي سريعًـا أعدتهـا وقلـت لـه بـكل غبـاء:

- شــكرًا يــا باســم. ممكــن تخــلي الفلــوس معــاك، أكيــد هتحتاجوهــا في أي حاجــة جايــة!

وقبــل أن أفــسر قصــدي باحتياجنــا في أي شيء يخــص الثــورة وليــس عائلتــه، كنــت قــد تأكــدت أنــه قــد يتقمــص دور الأب لدرجــة أن يوشــك عــلى ضربي، وكان هــذا تحديــدًا حــين قــام مــن كرسـيه سـاخطًا، ونظـر في وجهـي للمـرة الأولى منـذ دخلـت غرفتـه:

- إنــت إيــه يــاض القــرف الــلي انــت فيــه ده؟ عيــل صغــير مصمــم تعمــل فيهــا ثــري عــربي؟

- أنا مش قصدي كده.

- وللا قصدك!

ورغم ظني أن الإساءة كانت بخصوص عائلته، فإنه فاجأني بعدم ذكر هذا الموضوع على الإطلاق. وأخذت أستمع لسيل الهجاء الخارج منه، ليعبر بي ثم يندفع متجاوزًا الغرفة، وحتى جسر السويس، جارفًا معه كل من قابلت باسم بينهم، وجمعته معهم كأنهم شخص واحد. جمعني أيضًا في شخص واحد أطلق عليه الباراشوت ثم راح يقذفه بالكلمات: عديمو المسؤولية، ساعون للشهرة، كل ما تفعلون هو القفز على جهد ناس لا حل لهم سوى تغيير هذا البلد، ليس فقط لأنكم مهووسون بشخصوكم، بل لأننا مجرد وسيلة لإرضاء ذواتكم بمغامرات ذات معنى. براشوتات تسافر الآن في كل مكان لتتحدث باسمنا فقط لأن شكلكم حلو، و"بتتكلموا انجليزي"، ولكن ماذا تعرفون أصلاً عن أي شيء؟ ولماذا تعرفون وأنتم تُصنع عنكم الأفلام وتحكي عنكم الصحف؛ لأن واحدًا منكم قضى أسبوعًا في السجن، بينما نُرمى نحن في هذه السجون بالشهور، ونُذكر ضمن الأرقام؟ ماذا نفعل نحن وأنتم تحددون من هو جدير بالاهتمام؛ لأنكم تمتلكون الكاميرات، ولماذا نفعل كل هذا إن كنا من البؤس بما يكفي لنحتاج إلى الجهلة من أمثالكم لكي يتصدروا الواجهة، فقط كي نقنع الجالسين في بيوتهم بأن هذه الثورة نظيفة ومسالمة وآمنة، لن تتصدرها وجوهنا التي نهش منها الظلم ما تبقى فيها من حياة؟

t.me/qurssan

هـدأ باسـم بعدهـا، واعتـذر. قلـت لـه إنـه لا داعـي للاعتـذار؛ لأنـه في الأغلـب عـلى حـق، وانصرفـت خائفًـا مـن أن يثـير تسـامحي غضبـه مـن جديـد. بعـد أن أغلـق بابـه عليـه، وقفـت أحـدق إلى البـاب وبي يقـين واحـد، أحزنتنـي حتميتـه: سـيموت باسـم وحيـدًا ومنسـيًّا في هـذه الغرفـة الكئيبـة بعـد يـوم أو سـنوات، ولا يوجـد ولـن أجـد شـيئًا لأنقـذه مـن هـذا المصـير.

ولكـن، مـا المطلـوب؟ مـاذا نفعـل بأنفسـنا ومتـى يحـق لنـا الغضـب وكيـف يحـق لنـا الـكلام؟ قاومـت هاجـس أن أتصـل بـه وأسـأله. صحيـح أننـي ليلتهـا عـدت أخـيرًا لسريـري ولاحظـت أنـه أوسـع مـما أحتـاج، ولكننـي نمـت فيـه مـدركًا أننـي تركـت نسـختي الحاليـة عـلى مرتبـة باسـم، واعـدًا نفسـي بـألا أفكـر في العـودة للبحـث عنهـا، وألا يمسـني الجنـون في الصبـاح فأرتـدي نسـخة تجـرني إلى مصـير باسـم المخيـف.

t.me/qurssan

43

بعيـدًا عنـي وعـن مصـيري، وأنـا جـاد الآن حـين أقـول إني لا أفكـر فيهـما، حتـى لـو انعدمـت شـبهة العقـل في أن تنسـف قصـة واحـدة كاذبـة كل القصـص، هـل مـن العقـل تخيـل أنـه مـا زال لقصصنـا مسـتمعون؟ عـلى التليفـون يقولـون إن العـدد في اعتصـام صـلاح سـالم تجـاوز الألـف فـرد، وفي الراديـو يتكلمـون عـن الإعـداد لانتخابـات رئاسـية سيسـتجيب لهـا ملايـين، وفي الشـارع نـاس يسـيرون في كل اتجـاه وكلاكسـات مسـتاءة مـن تعطيـل المـرور، فأسـأل: متـى لم يعـد لنـا القـدرة عـلى تعطيـل العـالم، ومتـى لم نعـد قادريـن عـلى السـير معـه؟ وأتخيـل صخـب هتافاتنـا ورصاصهـم، أتخيلهـما في غرفـة معزولـة الصـوت، يرعبنـي المشـهد وأراني فيـه أدخـل الغرفـة لـكي أفـك الأغـلال عـن نفسـي ثـم أنـصرف، فيرعبنـي أكـثر أني بهـذا سـأغلق عليهـم البـاب، وأتخيـل شـارع صـلاح سـالم

يتضاءل حجمه وينكمش أسفلته، وبعدما كان غرفة أراه زنزانة، وأرى فيه صديقي مريض القلب، ويؤسفني أني منذ خرجت لم أسأل عن مصيره، ويؤسفني أني ربما قتلته في سعيي للشجاعة أمام سجّانه، ويؤسفني أن بعض المعارك، مهما كان جُبن عدونا، تُكسب بأن نكون أكثر شجاعة. وأتذكر بودي وهو ينهرني، "الجدعنة هنا صبر". فأتواضع أمام يقيني بأني لن أستطيع إنقاذ أحد من الرصاص الليلة، وأنتبه إلى أني ربما أستطيع أن أبُقي الأمل في فتح شباك يطل منه الأصدقاء على العالم، قد يسمعهم منه عابر بالصدفة يومًا ما، وأهتم بما سيسمع فأجد أخيرًا مبررًا ما للهرب، وأقول إن كنا سُنهزم فلن أكون الطعم الذي يصطاد به كل من بقيت له ذاكرة عن صدق قصتنا، وإن كنا سننتصر فسيسعدني أن أطلّ على ما سيحكي الأصدقاء، من بعيد.

اهرب يا رامي، أسوأ مصير أن يمر أحد أخيرًا فيجدهم ما زالوا يحكون قصتك. لن يغويني تذكيرهم بي، وإن كنت أعرف تاريخي أمام الغوايات، هذا من الماضي، بالفعل لا يوجد داعٍ لأن أسمع طنط دعاء الآن تقول لي دون أن أنطق بشيء:

- رامي، فعلاً مش وقته.. اتصرف مرة واحدة من غير أنانية.

ودون اكتراث تعود بوجهها من جديد إلى الشارع ومقود السيارة. وكنت بالفعل على وشك أن أرد عليها وأشرح قائلاً إني لا أقصد هذا، وإنها تسيء فهمي، حتى هذه اللحظة التي لاحظت فيها أني لم أقل شيئًا من الأساس حتى ترد عليّ، فكأني

t.me/qurssan

أدرك الآن فقط كم أكره هذا، هذا اليقين الذي ملأ عينيها عمّا كنت سأقوله؛ كان يشبه نظرة باسم الواثقة بأنني لم أكن أساعد أهله في غيابه، لأن هذا فقط ما كان يجب عليَّ فعله، مثله مثل الكلام الذي كان يوجهه لي مصطفى في الفراغ، فيقطع حبل فكرتي قبل أن يصل من دماغي إلى فمي. شيء وحيد كانت أنجيلا تصر عليه، أن تسألني، ربما قبل الأوان. ولكن ماذا بعد أن سافرت؟ سنوات طويلة من التعثر في النطق، ومحاولة أن يصير عقلي أسرع من تخمين من أكلمه. عشت بهذا. عشت وأراحني، فلم أعد أفكر في كيف أعيد الكلام الذي لم أنطقه لدماغي، ولكن ماذا لو كنتم مرة على خطأ؟ رامي كتاب مفتوح، أهذا يعني بالضرورة أن كل صفحاته قد كُتبت؟

هذه المرة بدلاً من التفكير في الهرب، هددتُ طنط دعاء بأني سأرفع فرامل اليد إن لم تتوقف، ثم انفجرت فيها:

- ده اسمه انتحار اللي عايزانا نعمله ده!

أخرجت سيجارة من حقيبتها، فظننت أنها ستحاول إقناعي بشيء، ولكن هذه كانت لحظة انتهت وهي تفتح الشباك فتهب علينا منه رائحة الغاز، فوجدتها تلقي بالسيجارة، تنظر إلى زحام السيارات في طابور كان يمتد أمامنا إلى أقصى ما نراه، وتقول لي وهي تُنزل فرامل اليد وتحاول ركن السيارة بجوار الرصيف:

- بص يا رامي.. إنت كنت بتكدب عليا لما قلت لي انك ممكن تعمل أي حاجة عشان الوضع ده يتصلح؟

لم أكن أكذب حين قلت هذا، ولا أكذب الآن وأنا أقول لها:

- أكيد طبعًا.. والله ما ده قصدي!

ثم كان سؤالها الحاسم وهي تغلق السيارة بعد خروجنا منها:

- طيب اعتبرني باقول لك تنط من طيارة عشان تنقذ الناس دي. هتنط ولا لأ؟

وبقدر ما ألوم نفسي حتى الآن على الرد الذي أحبط الكابتن ثابت البطل مني في اختبارات النادي الأهلي، لم أفكر للحظة في تغيير ردي الآن، مقتنعًا بأن ما يُطلب مني الآن أكبر من مجرد الموافقة على مبالغة أُقبل بعدها في فريق كرة القدم.

- لا ما انطش.. ومش عشان خايف. عشان نطتي هتخسرنا.

لم تنتبه طنط دعاء لكلامي وأنا أحاول أن ألحق بها في السير، ومن فوقنا نرى في السماء التي تبعد عنا بشارعين، سحاب الغاز وهو يلمع في الهواء وينزل، وبقدر ما كانت رائحته البعيدة تضيّق على أنفاسنا، كانت تنعش مُخي. هذا السحاب الأبيض ينزل، وكما قال باسم ننزل معه كالباراشوتات. حتى لو كان هذا صحيحًا، أن عليَّ القفز من طائرة، على الأقل يمكن أن أوجّه الباراشوت للنقطة التي ينزل عليها، ولكنني لم أقل هذا لطنط دعاء، لأنها كانت ستقول كما قالت كثيراً، كذبة واحدة تخدش الصدق كله، ولأنه لم يكن هناك وقت كي أجادل معها وأقنعها بأن وحدها الكذبة الجديدة ستسمح لأي صدق أن يعيش، وجدتها، تعديل بسيط في الزمن، سأقول إني لم يُفرج

t.me/qurssan

عنـي في اليـوم نفسـه، بـل أُفـرج عنـي الآن فقـط. صحيـح أني لم أمـر بـأي شيء يسـتحق الحـكي في حبسـتي السريعـة، ولكـن هـذا لا يمنـع أني متأكـد مـن الأشـياء التـي مـر بهـا آلاف غـيري، وأني أحفظهـا بمـا يكفـي كي أحكيهـا نيابـةً عنهـم. لـن يفلحـوا في تكذيبـي، فالـكل يعـرف أننـا صادقـون، حتـى ولـو أنكـروا. طـظ في كلام باسـم، إن كنـت "باراشـوت" ينقـذه.

المشـكلة كانـت أننـا حـين وصلنـا لم أجـد أي أحـد كي أخـبره بـشيء، لا فارسًـا ولا معركـة، طـوب وزجـاج مكسـور وبقايـا رائحـة غـاز، ومدرعـة رأيـت بداخلهـا ناسًـا وسـمعت صوتهـم:

- مـش ناسـيين التحريـر يـا ولاد الوسـخة.. الثـورة كانـت بالنسـبة لكـو نكسـة!

وسمعت أيضًا الضابط وهو يقول لي وأنا متسمر أمامها:

- يللا يا بني خد امك وروّح!

وبالفعـل انصرفـت، مسـتجيبًا ليـد طنـط دعـاء وهـي تشـدني، وعندمـا وقفنـا لم يكـن في نظرتهـا سـوى الغضـب:

- إيه، عايز تنط في دي كمان؟ هدير حكت لي على فكرة.

لم أجـد شـيئًا أقولـه، ولم أشـعر بجسـدي إلا وأنـا أجـري غـير عابـئ بتأكيـد طنـط دعـاء لي أن هديـر لم تحـكِ لأحـد غيرهـا وأنهـا لا تعـرف أصـلاً شـيئًا عـن عـودتي للقاهـرة، كل مـا كنـت أدركـه أننـي أجـري بأقـصى مـا أملـك، ولا أعـرف إن كنـت أهـرب مـن طنـط دعـاء أم مـن المدرعـة.

t.me/qurssan

44

أندهش من نفسي حين أجدني أصف فض الالتباس بخصوص قتلي على أنه عودة للحياة، وليس فقط لأني لم أمر بتجربة الموت، ولكن لأني لا أعرف أي حياة تحديدًا تلك التي أقول إني سأعود لها.

بالتأكيد ليست حياتي التي كنت فيها تابعًا ومديرًا لباسم. في اليوم التالي للخناقة، المواجهة، أو ما حدث مع باسم، لم أهرب منه ولم يهرب مني. دخلت المصنع فوجدته بزي العمل منهمكًا في تصليح إحدى الماكينات، ولم أذهب إليه. صعدت السلالم إلى مكتبي، إلى اجتماع جديد مع مسؤولي وزارة التموين. لم أتكلم هذه المرة. كنت مشغولاً بالهاجس الذي أيقظني هذا اليوم بصوت كريم، يؤكد لي أنني وسط الزحام الذي كدست به حياتي، في الشهور الماضية اشتريت كلبًا ذهبي اللون، ثم ضاع

مني في ظروف غامضة. وبقدر ما كان هذا الهاجس غريبًا عليَّ بسبب تأكدي من أني لم أفكر مرة في اقتناء حيوان والعناية به، أعجبتني الفكرة في الليل، وعمرو دياب يطلب من الأزواج القيام من كراسيهم ومشاركة كريم وعروسه رقصة.

- وما لي غيرك ولولا حبك هاعيش لمين؟ حبيبي جاية أجمل سنين وكل مدى تحلى الحياة.

لم يبقَ معي أحد على الطاولة، حتى فريدة والدكتور جاسر استجابا لدعوة الرقص. لا أرقص إلا وأنا سكران، ذكَّرت نفسي بعد أن وجدتني منجذبًا لبنت تُركت هي الأخرى وحدها على طاولة مجاورة، وأم العروس رفضت فكرة تقديم الخمور في الحفل، قالت لي فريدة وهي تخبرني أن العروس صديقة منذ الطفولة، ووشت لي أيضًا دون مقدمات بأن لا أحد منهما كان يخطط للزواج، ولكن حملاً مفاجئًا عجّل بالأمور. لم يعجبني أن أسمع المعلومة، ليس لأنها لا تخصني، بل لأنها أفسدت عليَّ خاطرًا حلو المذاق كان ينغزني على استحياء منذ بداية الفرح، أن أتبع خطى كريم كما تبعتها من قبل، إنما وأنا أعرف كيف يحط قدمه على أسفلت وسط البلد ويعود دون أن يغرس مثلي، كأنها شوارع من الطين، أن أغيّر حياتي أو أعود بها لما كان من المفترض أن يكون، أستبدل بطاولة البلياردو أثاثًا محترمًا يصلح لاستقبال زوجة، وأبيع مركب الجونة وأشتري شاليه في الساحل الشمالي، إذا نجحت في إزاحة كابوس إغلاق المصنع قبل الصيف المقبل، وأن أشوي بعض اللحم مع أصدقاء سعداء في حديقة بيتي، وأشتري كلبًا.

t.me/qurssan

سرحت مع الفكرة وأنا أراقب فريدة وهي ترقص، وأقتصد في شرب عصير البرتقال حتى لا ينتهي، فأجد نفسي غير مشغول بشيء. بالتأكيد كان الشعور متبادلاً، لم يحب أحدنا أن يقابل الآخر في هذا الفرح.

قبل أن تظهر فريدة في الحفل، لم أكن أشعر بالغربة التي توقعتها، ولا بانزعاجي الذي طالما صرحت به من ضجيج أفراح قاعات الفنادق. وجدتني بالفعل سعيدًا، بمقابلة الأصدقاء القدامى وحماسهم الذي لم ينضب بعد تجاهي، والإنصات إلى النجاحات التي حققوها في حياتهم، ومشاريعهم المتقنة للمستقبل، وسفرية إيطاليا حين يحل الربيع. كل الأجواء كانت تبعث على الاطمئنان. لكل منهم قصة ما في الاضطرابات التي تحدث منذ بداية السنة، ولكن حياتهم تسير مثل المدينة التي عرفت من حواديتهم أن فيها ما زال هناك الأهلي يلعب ضد الزمالك، وما زالت هناك أفلام جديدة في السينما.

ولكنني رأيت فريدة تدخل الحفل فكأني وحدي أعرف أنها تخبئ داخل فستانها الأنيق، قنبلة غاز ستلقيها في أي وقت، لتطرد رائحة الورد المفروش في كل مكان. لم أعد أنا، أو عدت لي، انزويت في ركن أدخن، ولكنها لم تلقِ بأي قنبلة، بل رحت أشاهدها وهي تتنقل بين المعازيم تجر معها الدكتور جاسر، تسلم على الكل بحماس مفرط، بل تصفق بحرارة مع مشهد تقطيع التورتة وظهور عمرو دياب، هل تخيلي لقنبلة مخبأة فيها مجرد سذاجة مني؟ أم أن فستانها كان بالفعل يليق عليها؟ لم أعرف، ولكن شيئًا ما بيننا خُدش لم أحدده،

ولكنـه كان واضحًـا حتـى يُـرى عـن بعـد. عنـد البوفيـه رآني الدكتـور جـاسر فوقـف معـي، وعنـد الكوشـة لمحتنـا فريـدة فعبـس وجههـا لثانيـة، قبـل أن تُعيـده إلى ابتسـامته في طريقهـا إليّ. تلقائيًـا جلسـنا نحـن الثلاثـة عـلى الطاولـة نفسـه، نقـول لبعضنـا أي كلام، ثـم صرنـا الكتلـة الثابتـة الوحيـدة في الحفـل، يمـر علينـا كل فـترة أحـد المعازيـم في اسـتراحة بـين رقصـة وأخـرى، يعطينـا نصيحـة أن نقـول شـيئًا مـا للثـورة كي تفعلـه، أو يعـترض عـلى شيء فعلتـه الثـورة عـلى اسـتحياء، أو يسـألنا عـما تنـوي الثـورة فعلـه. فريـدة كانـت تجيـب بحـماس، كأننـا بالفعـل قيـادة مـا لهـذا الـشيء الهُلامـي الـذي لا نقـدر إلا عـلى محاولـة ملاحقتـه، وكانـت تسـخر منهـم بعـد أن يعـودوا للرقـص، ولم أكـن أتجـاوب معهـا، وكان الدكتـور جـاسر سـارحًا في ملكـوت آخـر. أزعجنـي كيـف فجـأة صرنـا شـفافين بهـذا الشـكل، الآتـون مـن مـكان آخـر، لا تخفـي أزياؤنـا الأنيقـة تـراب وسـط البلـد المُخبـأ خلفهـا، حتـى لـو حاولـت فريـدة ادعـاء غـير ذلـك بجـرّ الدكتـورِ جـاسر إلى رقصـة الأزواج.

- حبيبـي ليلـة تعـالى ننـسى فيهـا اللي راح.. تعـالى جـوه حضني وارتـاح.. دي ليلـة تسـوى كل الحياة.

لم أكـن قـادرًا عـلى التـمادي في هـذا مـع عـودة فريـدة للجلـوس بجـواري، هـذا خـدش لا يُرمـم ولا يُعـاش بـه، لـن يفلـح معـه سـوى التعجيـل بـأن ينكسر.

- فريدة انا عايز اقول لك حاجة.

- ما تمشيش دلوقتي. عيب ما يصحش.

t.me/qurssan

- فاكـرة اليـوم الـلي اتقابلنـا فيـه في الصحـرا؟ يـوم مظاهـرة خالـد سـعيد؟

- آه.. مـا تقلقـش. عارفـة مـن يومهـا انـك مـا كنتـش في المظاهـرة!

لا أعـرف كيـف يكـون شـكل الصدمـة عـلى وجهـي، ولكنـه أفزعهـا، فظلـت تعتـذر مؤكـدة أنهـا لم تخـبر أي أحـد بهـذا الـسر مـن قبـل، وأن هـذا موضـوع قديـم غـير مهـم، وأثنـت عـليَّ في كل مـا تبعـه. ولكـن لم يكـن ليفلـح مـع هـذا الكـسر أي شيء، حاولـت أن أعلـق لم يخـرج منـي شيء. فقلـت سـأبارك لكريـم قبـل الرحيـل، وحـين قمـت أتحـرك وجدتنـي أسـير كالمخموريـن فانصرفـت دون سـلام.

أذكـر أني في السـيارة أغلقـت عـليَّ ووجدتني أقـذف دموعي دون إرادة، وأن سـيل الدمـوع هـذا لم يتوقـف إلا وأنـا أركـن سـيارتي أمام بيـت الـزوز، دون أن أملـك أي فكـرة عـما جعلنـي أسـير في اتجـاه بيتـه بـدلاً مـن بيتـي. مـن داخـل السـيارة كنـت ألمـح حديقتـه مضـاءة أنوارهـا، وأرى مـن بـين الشـجر الـذي يمـلأ فراغـات السـور حركـة أفهمتنـي أنـه يسـتضيف سـهرة. ربمـا كان حنينًـا هـذا، أو تخيـلاً مـا، أن رائحـة مصطفـى مـا زالـت هنـاك بجـوار الشـواية. في كل الأحـوال لم يكـن هنـاك وقـت كي أفكـر، فقبـل أن أفتـح بـاب السـيارة فتحـه عـليَّ حارسـه الشـخصي. قلـت لـه سريعًـا إني صديـق سـيادة الوزيـر، فذهـب وعـاد بعـد دقيقـة بالـزوز، فـاردًا ذراعيـه بشـكل مبالـغ فيـه وهـو يقـول:

- العرص الصغنن اللي ما بيسألش على عمه!

وقبل أن أنزل له متخيلاً أن فردة الكتفين هذه كانت دعوة لحضن، فتح باب السيارة وجلس بجواري فعرفت أنني لست مُرحَّبًا بي في حفله. حضنني داخل السيارة. كان ممسكًا بعلبة كوكا كولا، قال إن بها ويسكي يساعده على أن يطيق مثل هذه العزومات، ثم دعاني أن نشرب منها معًا في سيارته. لم أفهم سبب التنقل، ولكن عندما فتح حارسه لي الباب ودخلت، فهمت أنه كان بحاجة إلى سيارة ذات زجاج مُعتم. ما زال يسليني الزوز، فكرت وهو يندمج بعد السلامات واللوم في حكاية عشوائية من حكاياته، عن المرة التي صبّ فيها لوزير المالية ويسكي دون أن يدري، في زجاجة البيبسي، في أثناء اجتماع عرض الموازنة على مجلس الوزراء، فتاهت من الرجل الأرقام وأُقرت الموازنة.

قلت لعلّني يجب أن أنبش في الماضي أكثر حتى أستعيد توازني، أبعد من أصدقاء الجامعة، هل ما زالت شلة الزوز تجتمع كل خميس كما كانت؟ كرهت الرجل في فترة دون مبرر سوى الخيط الوهمي الذي صنعته بنفسي، متخيلاً أن للرجل دورًا فيما حدث لطنط دعاء، رابطًا بين تزامن فضيحتها مع قرار مصطفى بالابتعاد عن الشلة، وامتنان دعاء الجارف لمصطفى، وصراخها في الاجتماع الذي رشحت فيه الثورة الرجل كي يعود لمنصبه في الوزارة، والحقيقة أن الزوز كان قد فقد منصبه أيضًا بعد الفضيحة بشهر أو أقل، في تعديل وزاري، وهذا وحده يحطم القصة كلها.

t.me/qurssan

في دقائـق كان قـد أنهـى وحـده عـلى الويسـكي وبـدأ مضـغ اللبـان، وقبـل أن يفتـح بـاب السـيارة، قـال إنـه حزيـن لأني لم أكلمـه طـوال هـذه الفـترة، فاعتـذرت مُـبررًا بـأني لم أرد أن أشـغله، ولكنـه قـال إن هـذا ليـس السـبب:

- عيـب يـا رامـي، أبـوك صاحـب عمـري. أنـا عـارف الـلي بيحصـل في المصنـع، عـدي عـليّ بكـرة في المكتـب!

قبـل أن أسـأل عـن العنـوان كان قـد أعطـى أوامـره للحـارس أن تقلنـي سـيارته مـن بيتـي ظهـر غـد حتـى المكتـب، ثـم انـصرف، وأخـذت أراقبـه وهـو يدخـل بـاب بيتـه وأنـا مندهـش مـن رشـاقته واتـزان مشـيته، قبـل أن أخبـط رأسي في البـاب وأنـا أحـاول دخـول سـيارتي.

t.me/qurssan

45

لا ألـوم الآن أحـدًا، ولا حتـى نفـسي، بـل ألـوم هـذا اليـوم عـلى كل شيء، وإن كنـت لا أعـرف تحديـدًا أي جـزء مـن اليـوم، أتمنـى أن يُمحـى تمامًـا مـن ذاكـرتي، ومـن ذاكـرة أي أحـد.

منــذ بــدأ، كان كل شيء يُنــذر بفجاجــة لم أكــن أملــك إلا أن أتجاهلهـا. سـيارة الـزوز انتظرتنـي أمـام بيتـي سـاعة، كنـت أقـرر فيهـا إن كانــت زيــارة وزيــر في مكتبــه، حتــى ولــو كان صديقًــا قديمًــا، تصمنــي بــشيء مــا، ســاعة انتهــت بــأني أقنعــت نفــسي بعـدم رسـمية الزيـارة، وأكـدت هـذا بإخفـاء سـيجارة حشـيش في محفظتـي كي أدخنهـا مـع الوزيـر في مكتبـه. ولكـن، حـين تحركـت بي الســيارة، كانــت لهــذا رهبــة إقــلاع الطائــرة، يقــين بــأن لا شيء أفعلــه بعــد هــذه اللحظــة للانفــلات مــن المــأزق، الــذي لا يمكــن أن أتخيـل كيـف سـيكون شـكله. وسـط البلـد، كأنهـا كانـت تُخـرج

لي لسانها، أحاول تجاهل أن كنتاكي مُغلق اليوم، وأني أرى حركة غريبة في الشارع، ووجوهًا مألوفة تسير في اتجاه الميدان. قلت، جميل بالفعل أن زجاج السيارة مُعتم، وغير منطقي ولا إنساني أن تكون هذه الحركة تدل على ما أخشاه، كأنه ليس هناك غد كي يأتي كل شيء في يوم واحد.

في الصالة الواسعة للمبنى لم يكن لدى الزوز وقت ليشرح. استقبلني بسلام رسمي أمام القاعة، كما كان يستقبل شبابًا آخرين وهم يتهافتون للسلام عليه. كنا طابورًا أمامه، وربما لهذا نسيت أنه كان من السهل أن أتحرك أي خطوة جانبية وأنصرف. سرت للأمام فوجدتني في ندوة، فهمت أنها ليست الأولى لهذه المجموعة، وكان لها اسم رومانسي: "حوار صادق مع الشباب".

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها سيادة اللواء الذي سيُفرج عني في اليوم التالي، بعد توقيعي لعقد شراكة تجارية مع الحكومة، مع مصر كما أحب سيادة اللواء أن يُطلق عليها. لم يبدُ قصيراً يومها، ولم يكن كأنه يجاهد على المنصة كي يصل إلى الميكروفونات، وكان صوته خافتًا ولكن أسكت الجميع:

- إحنا مش قاعدين معاكو عشان احنا نتكلم، قاعدين عشان نسمعكوا، وعارفين احنا قاعدين مع مين، شباب متعلم وواعي بحجم المؤامرة اللي حوالينا.

الزوز كان يجلس على يمين سيادة اللواء. لم أكن أعرف غيره. تأكدت بعد أن تفحصت الأربعين شابًا المدعوين غيري. عرفتهم وهم يقدمون أنفسهم قبل كل سؤال، تحالف مصر البهية،

t.me/qurssan

وتحالف مصر الوسطية، وحزب الحرية والعدالة، وحزب الحرية والعدل، وحزب العدل، وحزب الحرية. الأغلبية كانت بذقون، ولكن خفيفة، والجالس بجانبي كان ذا رائحة عطر نفاذة، لاحظت كيف كان يبتعد عنها الزوز وهو يسلِّم عليه أمام الباب.

لم أسمع أسئلة ولا إجابات. لا أظن أني كنت متعاليًا أو شاعرًا بقرف كما ظننت أني سأكون، ولكنه كان الملل. ملل صافٍ وبعده نُعاس. خشيت أن أنام، وأتكلم وأنا نائم، وبما أنه يوم فج، خشيت أن يحدث هذا والميكروفون يمر من أمامي. وكي أؤمن نفسي، ملت إلى الأرض وألقيت بسيجارة الحشيش تحت كرسي الشاب الجالس بجواري دون أن ينتبه أحد. حين رفعت رأسي، كان سيادة اللواء يخطب عن مؤامرة الجيل الرابع للوقيعة بين الشعب ومؤسساته، المؤامرة التي كان ينسى أحيانًا فيصفها بمؤامرة الجيل الخامس دون أن يصحح له أحد المعلومة. قلت ربما هما مؤامرتان تحدثان في الوقت نفسه، ولم يكن هذا يهمني بقدر أن أحافظ على عيني مفتوحتين مع نغمة صوت الرجل التي ظلت ثابتة منذ بدأ كلامه، فأمسكت بمدونة تركوا لكل واحد منا نسخة منها على كرسيه، وبدأت الرسم عليها بخطوط عشوائية، واندمجت في هذا حتى اهتز هاتفي في جيبي. فتحته فوجدت رسالة من الزوز:

- ما تفضحناش. شكة دبوس.

لم أعِد الهاتف لجيبي، ربما يجب عليَّ أن ألوم كل شيء على هذه اللحظة. فتحت الفيس بوك، رغبة كان لا يُمكن أن

أقاومها، وكنت أعرف أنها ليست للبحث عما قصده مدير الندوة وهو يطلب منا بعد انتهاء كلمة سيادة اللواء، أن نقترح حلولاً عاجلة لحل الاحتقان الحالي؛ كي يحصل الشعب على الاستقرار الذي يريده لإتمام أول انتخابات برلمانية في مصر ما بعد الثورة، ولكن كانت للبحث عن الأصدقاء، لا شيء يفلح مع هذه الهبّات. أول ما وقعت عليه عيناي كان هدير:

- بيهجموا علينا من كل ناحية. رجعنا ميدان طلعت حرب.

ثم قوائم بأسماء مصابين ودعوات استغاثة للنزول إلى محمد محمود. أغلقت هاتفي، كأني أسدّ رياحًا، ثم فردت ظهري محاولاً أن يعود تركيزي على الاجتماع. قد يشفع لي أني لم أقدر على الضحك مثل الباقين على مزحة سيادة اللواء، وهو يرد على اقتراح أحدنا، أن تفوت المؤسسات فرصة الوقيعة باعتذار عن العنف ضد المتظاهرين:

- فين العنف يا بني؟ ما احنا قلنا رصيدنا يسمح. شاحنين بـ200 الحمد لله!

قد أكون تخيلت هذا، ولكنني شعرت بأن سيادة اللواء قد ضبطني متلبسًا بعدم الضحك، فثبتت عيناه عليَّ. وجدتني أتعرق خائفًا، أحاول الابتعاد بعيني عنه، محاولاً التركيز في الاقتراحات عن الديمقراطية والانتخابات وتمكين المجتمع المدني دون جدوى، ووصل بي الخوف إلى أقصاه قبل نهاية الندوة،

t.me/qurssan

أمســكت هاتفــي مــن جديــد هــذه المــرة لأمســح كل الرســائل وأمحــو أثــر الفيــس بــوك.

لم يتبــدد خــوفي مــع الانتهــاء مــن النــدوة، رغــم اختفــائي في زحــام الشــباب المتدافــع للســلام عــلى ســيادة اللــواء قبــل انصرافــه، ظــل متملــكًا لي دون أن أفهــم ممــن أخــاف الآن. خرجنــا مــن القاعــة فوجدنــا في انتظارنــا الكامــيرات، اصطــف الــكل لأخذ صــورة جماعيــة. قــد يشــفع لي أيضًــا أني انزويــت بعيــدًا عــن الصــورة، حتــى لــو كان الســبب يقينــي بــأني إن وقفــت معهــم ســتطاردني هــذه الصــورة إلى الأبــد، تمامًــا كالقلــم الأخــضر الــذي سرقتــه مــن كريــم وأنــا ابــن أحــد عــشر عامًــا، ومــا زال يطــاردني كابــوس تفتضــح فيــه سرقتــي حتــى الآن. لــن ألتقــط صــورة وهديــر تســتغيث، لمــاذا لم يتأخــر محمــد محمــود حتــى الغــد، ولمــاذا تأخــرت عــلى الذهــاب إلى بيــت الــزوز حتــى الأمــس؟ كان اليــوم رخيصًــا، مثــل اختياراتــه، يومــي كان أســوأ منــي.

بعــد انفضــاض المولــد اعتــذر الــزوز في مكتبــه. قــال إنــه نــسي تمامًــا ميعــاد النــدوة، ثــم أخــرج زجاجــة كــوكا كــولا مــن درج مكتبــه ودعــاني لــشرب الويســكي منهــا. كنــا في انتظــار صديــق للــزوز، قــال إن في يــده حــل مشــكلتي. لم أشــارك الــزوز في الــشرب، موقــف مبــدئي، وظللــت صامتًــا أشــاهده يدخــن ويــشرب دون تدخــل، إلا حــين وجدتــه يُمســك بالريمــوت كنــترول فقاطعتــه قبــل أن يفتــح التليفزيــون، لم يخــرج منــي كلام، ولكنــي متأكــد مــن أننــي قاطعتــه بعينــي، وإلا مــا كان ليقــول لي وهــو يتراجــع ويعيــد الريمــوت إلى المكتــب:

- ما تبقاش حمار زي أبوك!

صديق الزوز كان طويل الذقن والشعر. استنتجت أنه ليس في منصب رسمي، ومن كلامه شككت أنه الصديق المقصود. ثمة لغة لم أفهمها بينهما، يبدأ الكلام بالرجل يطمئن الزوز بأنه قابل رجلاً ما بالأمس وأنهى الأمر فأنتبه، ثم يتضح أن الرجل كان يبيع شقة ملكًا للزوز. مع كثرة المواضيع بينهما لم أعد أنتبه، وباغتتني من جديد رغبة في فتح هاتفي، ولكنني قبل أن أُخرجه من جيبي وجدت الرجل والزوز ينظران إليّ، فعصرت مخِّي لأسترجع آخر ما قاله الرجل بعد ما بدا أنه يعنيني:

- إنت في قضية تمويل.. مش تموين!

استبعدت أن يكون الكلام موجهًا لي، وخصوصًا أن السجع في لغة الرجل لم يوحِ بأي جدية تناسب ما قاله. عندما أكمل حديثه، اكتشفت أنه لم يكن يحتاج إلى منصب كي يعلم ببواطن الأمور، فهو بالفعل كان يقرأ من كمبيوتره الشخصي ملفًا أمنيًا يحمل اسمي.

في إطار مساعي الجهاز لتجفيف منابع تمويل العناصر الإثارية والداعية للفوضى... تبين أن العضو المذكور بالتقرير المرفوع إلى سيادتكم، دأب على مد هذه العناصر بتمويل نقدي وعيني لإثارة الشغب... ومن مراقبة السيولة النقدية لشركته المذكورة، وحسابه البنكي، تبين صعوبة تتبع حجم وتدفق الأموال الموجهة للعناصر المخربة، نظرًا إلى كونها غير موثقة وغير مدرجة في تفاصيل إقراره الضريبي... ومن المراقبة الشخصية واللا سلكية له اتضح أنه ليس عضوًا فاعلاً في

t.me/qurssan

الحـركات التخريبيـة، ولكنـه عـلى صلـة وثيقـة ببعـض العنـاصر الإثاريـة المسـجلة في تقاريـر متنوعـة للجهـاز... نرجـو إفادتنـا بـرأي سـيادتكم لاتخـاذ الـلازم، مـع وافـر الاحـترام..

ـ مش هو يا عم ده أبوه!

قاطعـه الـزوز، ولكـن الأدلـة مـع الرجـل كانـت موثقـة، مـن غير الممكـن أن تُخـدش. هـذه المـرة لم يتلُهـا علينـا، بـل أدار الـلاب تـوب كي نـرى بأنفسـنا، مكتفيًـا بـأن يقلـب لنـا بيـده بـين الصـور. كانـوا هنـاك، أمـام خيمـة الأصدقـاء في الميـدان، وعـلى البحـر معنـا في نويبـع، وفي عيـد ميـلاد فريـدة الـذي بـدل فيـه الجنسـان أزياءهـم، كانـوا بـين زجاجـات البـيرة والرقـص والسـجائر الملفوفـة، وكانـوا أيضًـا بـين كـراسي الاجتماعـات ونقاشـات الاعتصامـات وزيـارات جلـب بطاطـين الإعاشـة. كلهـم موجـودون، حتـى بـودي، إلا أنـا!

ـ هي دعاء دي مش هتتوب بقى؟

تجاهلـت مـا قـال الـزوز وهـو يضحـك، وسـألت الرجـل مبـاشرةً: مـا أدلـة إدانتـي إن لم أكـن موجـودًا في أي مـن الصـور؟ فأغلـق الـلاب تـوب واعتـدل في قعدتـه مبديًـا فخـره وهـو يشـكر تدخـل معـالي الوزيـر، وحضـوري نـدوة اليـوم. "الحمـد للـه، نجحنـا في محـو صـورك مـن الملـف، لا شيء يدعـو للقلـق، مـارس حياتـك بشـكل طبيعـي. قريبًـا أيضًـا سـتنتهي أزمـة كـوكا كـولا". ولكنـه سرعـان مـا بـدأ تحذيـري مـن أن أتواصـل مـع هـؤلاء الشراميـط الذيـن "سـنفضحهم قريبًـا"، هنـا لـن يسـتطيع أحـد التدخـل. لم يكـن هنـاك شيء ليُقـال بعدهـا. اندمجـا في حواراتهـما العاديـة. تمالكـت نفسي، في انتظـار لحظـة صمـت بينهـما واسـتأذنت، حتـى

ودعنـي الـزوز أمـام مكتبـه وهـو فخـور بـأني لسـت حـمارًا مثـل مصطفـى. لم ينـسَ أن يؤكـد ميعـاد مشـوار بعـد يومـين، قـال إنـه سـينقل مصنعـي نقلـة كـبرى.

صحيـح أننـي اسـتعدت أنفـاسي وأنـا أخـرج مـن المبنـى، ولكنـه كان نفسًـا أخـيراً خرجـت بعـده مـن رئتـي بـل مـن جسـدي كلـه، وشـعرت مـع خروجـي بـشيء أدركـت مـن قوتـه أننـي لـن أشـعر بـشيء آخـر بعـده، لـن أقـدر عـلى احتـمال العيـش بصـور ممحـوّة. بعدهـا تعقبـت نفـسي فـكأني أصـورني، أتحـرك دون إرادة مجذوبًـا بالشــماريخ والنـيران وسـحاب الغـاز البيضـاء في محمـد محمـود، في نيتـي أن تـراني هديـر أو أي عـين تعرفنـي، وحـين رأتنـي هديـر كانـت بـين يـدي، وكانـوا هـم يقبضـون عـلى بـودي، تجاهلـوني، فأغـواني القفـز إلى بـاب سـيارة الترحيـلات، وقتهـا بـدا أوسـع مـن الشـارع، والقفـزة بـدت أنهـا سـتحل مـا قبلهـا ومـا بعدهـا، ولكـن بعـد قفـزتي هبطـت عـليَّ يـد كبـيرة، يـد بـودي، وقـال:

- ما تخافش يا رامي!

t.me/qurssan

46

هـذه كانـت قفـزتي وحـدي، ويجـب الآن أن تكـون مشـكلتي وحـدي أيضًـا، ويجـب أن أحلّهـا دون صخـب كـما بـدأت، ويجـب أيضًـا أن أحتفـظ بإحسـاس المسـؤولية هـذا لأنـه سـيتبخر قريبًـا، ولهـذا، بعـد هـروبي مـن طنـط دعـاء في صـلاح سـالم، لم أذهـب، كـما أتخيـل أنهـا توقعـت، إلى بيتـي ولا إلى هديـر ولا إلى أتوبيـس يعـود بي مـن جديـد إلى الجونـة، ولم أسِر حتـى كـما توقعـت أنـا هائمًـا في الشـوارع ألـوم وأبـرئ نفـسي في كل شيء. قضيـت ليلتـي بالفعـل في الشـارع، عـلى الرصيـف المجـاور لمبنـى الـوزراء، أنتظـر الـزوز.

في الصبـاح رأيـت الـزوز ينـزل مـن سـيارته، فجريـت إليـه، غـير عابـئ برؤيـة حارسـه يتحسـس مسدسـه. لا لم تكـن في نيتـي هـذه المـرة أن أمـوت بشـكل أكـثر دراميـة، ولكنهـا كانـت الوسـيلة

الوحيـدة للوصـول إليـه، وكنـت أعـرف أن الـزوز سـيهدئني ويهـدئ حارسـه. بعدهـا مشـيت معـه إلى مكتبـه. كان يومًـا عاديًـا كـما يجـب أن تكـون الأيـام، بـلا نـدوات ولا صـور، في المكتـب، وقضينـا وقتًـا في سـلامات عاديـة، وقبلـت سـيجارة منـه قبـل أن يبـدأ قـراءة أوراق مُرتبـة عـلى مكتبـه، وهـو يكلمنـي:

- هـا؟ طمّنـي. أنـا سـامع انكـو عاملـين شـغل جامـد في العقـد الجديـد. أي خدمـة يـا عـم.

لم أرد. كنـت في انتظـار اللحظـة التـي سـيدرك فيهـا فجـأة أنـه يتكلـم مـع شـخص يظنـه ميتًـا. قلـت لنفسـي إن الأمـر صعـب الفهـم. طنـط دعـاء رغـم ذكائهـا أدركـت هـذا بعـد سـاعة مـن دخـولي بيتهـا. ولكـن اللحظـة لم تـأتِ، وعندمـا اسـتأذنني أن يـترك المكتـب لثـوانٍ أدركـت أنهـا لـن تـأتي أبـدًا، وأدركـت فجـأة أننـي غبـي. الـزوز كان معـي في مبنـى صـلاح سـالم الـذي في الأغلـب عـاد أصدقـائي اليـوم يطوفـون حوله لإنقـاذي. الـزوز ذاكرتـه حديدية. لن ينـسى أبـدًا أننـي وقعـت العقـد أمامـه وأن سـيادة اللـواء منحنـي يومهـا زجاجـة ميـاه سـاقعة. كيـف لم يقـل هـذا في الجرائـد؟ وكيـف لم تكـن في هـذا المبنـى كامـيرات تُثبـت خروجـي منـه؟ قُطعـت الأسـئلة بـبرودة شـعرت بهـا في خـدي، عندمـا التفـتّ وجـدت أن الـزوز يداعـب وجهـي بزجاجـة بـيرة:

- خـلاص علمـوك تنفـخ بطنـك بالبـيرة؟ اللـه يرحمـك يـا مصطفـى. كان ملـك الويسـكي واللـه.

t.me/qurssan

البـيرة كانـت سـاقعة، ولكنهـا لم تنسِـني مـا جئـت مـن أجلـه. أنـهِ هـذا بـلا صخـب يـا رامـي. قلـت لنفـسي وأنـا أسـتجمع تركيـزي وأكـرر جملتـي أكـثر مـن مـرة بداخـلي كي أتأكـد مـن أني أود قولهـا:

- أنا عايز اسلِّم نفسي.

ضحـك الـزوز ضحكـة في الهـواء وهـو يـشرب مـن زجاجتـه، قبـل أن يلتفـت إليّ سـاخرًا:

- إيه يا بني هو انت حالف تتسجن بالعافية؟

كنـت مُجهـزًا طـوال سـاعات انتظـاري لـه بأفـكار تبيـع طلبـي، كيـف يحـل هـذا أزمـة الجميـع، أعطـي للثـورة اعترافًـا بسـجينها، وأعطـي للدولـة براءتهـا مـن القتـل، وأعطينـي جدرانًـا تنتفـي فيهـا الاختيـارات. ولكننـي شـككت للحظـة وأنـا أشـاهد الـزوز بالبـيرة في يـده أنـه سـيعنيه كل هـذا، فقلـت لا حـل سـوى أن أخاطـب الـزوز القديـم الـذي توسـط للإفـراج عـن ابـن صديقـه، ورغبـت أن أقـول لـه إني لا أحتـاج مسـاعدته إلا في كيـف أمـر إلى حيـز ضيـق مـن العـالم، دون أن أعـبر بمـا يقتضيـه هـذا مـن ألم وتحقيقـات، وأشـير إلى أن هـذه فكـرة أفضـل مـن تلـك التـي سيطرت عـليَّ، أن أضرب الضابـط الواقـف أمـام المدرعـة ثـم أعطيـه يـدي ليضعهـا في الكلابـش. لكننـي لم أقـل أيًّـا مـن هـذا، وبـدلاً منـه خرجـت منـي الجملـة صادقـة لا يشـوبها اقـتراح:

- أنا كده هافضل هربان طول حياتي.

ظـل يضحـك، يتوقـف ليـشرب جرعـة مـن البـيرة ثـم يضحـك مـن جديـد، ولم يبـقَ شيء في دماغـي سـوى أن أقـوم مـن كرسـيّي كي

أضربـه، فينفـرج مـن يـدي كل الغيـظ الـذي جمعتـه في كفـيَّ منـذ عرفـت بنبـأ مـوتي، بـل أقـدم مـن هـذا، منـذ اليـوم الـذي قـال لي فيـه: "مـا تبقـاش حـمار زي أبـوك"، كي يقنعنـي أن أبقـى في مكتبـه، بـل منـذ القعـدة التـي ألقـى فيهـا سـاخرًا شـعر مصطفـى. بالفعـل قمـت، ولكـن في اتجـاه البـاب، في إنـذار أخـير بأننـي عـلى وشـك الهـروب مـن جديـد، ولكنـه أعـادني بصوتـه الـذي لم يكـن جـادًّا حتـى فيـه كي يرفـع مـن نبرتـه:

- إنـت يـاض عبيـط؟ فيـه حـد بيتسـجن عشـان خـد أجـازة شـهر في الجونـة؟

فكـرت، كأني بالفعـل أفكـر للمـرة الأولى. بالتأكيـد أنـا مذنـب، بـشيء مـا.

- هو انت كنت عارف اني في الجونة؟

- هو فيه حد برضو يستخبى في الجونة؟

- ماحدش قبض عليَّ ليه؟

- تـاني؟ يـا بنـي ولا حـد كان عايـز يقبـض عليـك ولا حـد عايـز دلوقتـي.

- طب.. والناس اللي قالبين الدنيا في صلاح سالم دول؟

- مـا اعرفـش بقـى.. قلنـا لهـم بـس مـا صدقونـاش. قـل لهـم انـت، ماحـدش يعـرف يحلهـا لـك دي!

زجاجـة البـيرة ألقيتهـا في وجـه الوزيـر في مكتبـه، ولم يخطـر عـلى بـالي أن في هـذا بطولـة مـا، ولم يخطـر عـلى بالـه أن يسـتغيث

t.me/qurssan

بأحـد، لأن كلينـا يعـرف أن هـذا ليـس لقـاءً رسـميًّا، وربمـا لأنـه كان يعـرف أني سـأقول لـه وأنـا أسـتجمع كل عزيمتـي:

- أبويا كان حمار آه.. بس كان بيقول عليك عرص.

عـادت إليَّ سـكينة نـادرة بعدمـا غـادرت مكتبـه، واسـتمرت معـي وأنـا أمـشي إلى محمـد محمـود وأجـده خاليًـا، لا مدرعـات ولا بـشر، واسـتقرّيت تمامًـا بعـد أن أنزلنـي التاكـسي في صـلاح سـالم وتأكـدت مـن أن أصدقـائي هُزمـوا، ولم يحاولـوا العـودة اليـوم، فركبـت التاكـسي مـن جديـد شـاعرًا أنـه ليـس مطلوبًـا منـي شـيئًا، واسـتعدت خطتـي التـي عُـدت بهـا إلى القاهـرة قبـل شـهر، أن أصـل إلى بيتـي، وهنـاك أقفـز مـن سـور الحديقـة إليـه، أبحـث مـن جديـد عـن أي أمـوال، أحجـز أقـرب طائـرة، ثـم توقفـت.

t.me/qurssan

47

لهـذا أخـشى لحظـات الصـدق وشـدّ النفـس إلى الصراحـة، لأنهـا حـين تتملكنـي، تفـرد جناحيهـا الضخمـين عـليّ، ومهـما حاولـت، أفشـل في أن أُفلـت جـزءًا منـي خارجهـا، ولا يقنعهـا أبـدًا أن نكتفـي بالإبقـاء عـليّ نصـف عـارٍ. لم يكـن سـبّي لسـيادة الوزيـر في مكتبـه هـو الزلـزال، بـل كان مجـرد بـادرة لمـا رأيتـه أمامـي كالحقيقـة والتاكـسي يوشـك عـلى الوصـول إلى بيتي. رأيـت هدير. مـع احترامي للجميـع، لم أر سـواها، واكتشـفت أني منـذ عـودتي إلى القاهـرة أقـف أمـام لوحـة لمنظـر مـا، وهـذه المـرة الأولى التـي أدخـل فيهـا وأراهـا بألوانهـا الحقيقيـة. طلبـت مـن التاكـسي تغيـير وجهتـه مـن جديـد إلى وسـط البلـد، ووافـق وهـو يحـذرني مـن أنـه لـن يغـير اتجاهـه مـرة أخـرى. وافقـت ولم أشرح لـه مـا كان يُقـذف في مخـي، أن هـذا كلـه لـن ينتهـي إلا حـين تقـرر هديـر، وأنهـا بالتأكيـد تعـرف كيـف

دونها لن تُشبع أي أسطورة جوعي، وأني مهما سافرت سأشتاق إليها وإلى ضجيجها الذي توقف ربما لأنها تعرف، بالتأكيد هدير تعرف كيف كان سأمي من كل هذه الورطة سيتبدل، إن كتبت هي عني جملة من بين الآلاف التي كُتبت، بالتأكيد كما تعرف أن استرجاع نظرتها وهي تشاهدني أقفز في سيارة الترحيلات يثير فيّ آلام المعدة نفسها التي كانت تهاجمني، كلما تخيلت أني سأدخل إلى اعتصام صلاح سالم، وأقول للمعتصمين إني كنت أصطاد على البحر بينما يبحثون عني.

تعثرت في النزول من التاكسي؛ لأن حقيقة جديدة هاجمتني، أن هدير شدتني إليها في كل مرة وأنا من تركتها، وأعجبتني هذه الحقيقة فبالغت في دفع البقشيش للسائق، وعلى السلالم صرت متأكدًا من أنها تحبني ولم أحدد إن كنت أحبها أم أني أود لحم ثقب يخصها سيتسع كلما جريت هاربًا، وأمام باب بيتها صارت لي خطة خشيت أن يُفتح الباب قبل حسمها: سأنزل على ركبتي كما يفعلون في الأفلام وأعرض عليها الزواج، دون خاتم ولكن باقتراح أن نسافر معًا أمريكا ونبدأ هناك بداية جديدة، وأغريها بدروس التمثيل التي ستلتحق بها في هوليوود، من دون قول شيء عن نيتي ترويضها بإنجاب أكبر قدر من الأطفال، حتى لو اضطررت إلى أن أثقب كل واقٍ ذكري سأستخدمه معها. ولكني حين فتحت هدير الباب تجمدت متأهبًا لردة فعلها. كانت تعدّ نقودًا في يدها، ولمّا انتهت رفعت رأسها، ولم أعرف إن كان ما بدا على وجهها دهشة أم

t.me/qurssan

ابتسـامة، ولكـن كانـت هنـاك محبـة في الحضـن الـذي منحتـه لي مـا إن دخلنـا الشـقة، وهــي تهمــس في أذني:

- ما تخافش يا رامي. طنط دعاء حكت لي.

أمسـكتني مـن يـدي، وبـدلاً مـن أن تقـودني إلى الصالـة، وجدتنـا نسـير في اتجـاه غرفتهـا، وقبــل أن أقفــز إلى أوهامــي عــن رغبــة هديـر العاجلـة فيّ، لمحـت رجلهـا الجديـد في الصالـة، مندمجًـا في تثبيـت كامـيرا عـلى حامـل وضبـط عدسـتها. في غرفتهـا أغلقـت البـاب عـليّ واعتـذرت بلطـف غـير معتـاد:

- آسفة جدًّا.. استناني مش هتأخر.

أدركـت أن هـذه المـرة الأولى التـي أدخـل فيهـا غرفـة نومهـا، وأنـه رغـم كل مـا دار بيننـا، لم تدخـل هــي أبـدًا غرفـة نومــي، ولكنــي لم أنشـغل كثـيرًا بهـذه الفكـرة؛ لأني كنـت أقـرب أذني مـن البـاب لأحـاول التنصـت عليهـما. كان صوتهـما بعيـدًا، وفهمـت أن الرجـل يصـوِّر هديـر، وكنـت أقـاوم كي أقـف في مـكاني لأن الـكلام الـذي كنـت أسـمعه منـه مُفترضًـا أنـه موجـه للكامـيرا، مفـزع:

- مـا اعرفـوش كويـس بـس كان شـخص جميـل.. في كل الأحوال، ولا هـو ولا حـد غـيره يسـتحق يمـوت بالطريقة دي.

ابتعـدت عـن البـاب ممتلئًـا بالقـرف مـن إصرارهـا عـلى الكذب، أقـاوم أن أخـرج وأفضحهـا حتـى لـو أمـام الرجـل فقـط، بـل أقـاوم أن أخـرج وأضربهـما معًـا، أدور بعينــي في الغرفـة بحثًـا عـن شيء حـاد أسـتخدمه، ولا أرى سـوى مكتـب عليـه أكـوام مـن الملابـس ودولاب عليـه بوسـترات دعائيـة للثـورة، وكومودينـو فوقـه مجلـد

لمجلة ميكي وكتافات شرطية، ومرآة كبيرة أمامها أعداد لا حصر لها من علب الماكياج، ومن تحتها على الأرض ثلاثة أقماع تتبع إدارة المرور، سرقناها معًا في جولاتنا السرية في وسط البلد. على الحائط صورة لجيفارا وأخرى لعمرو دياب وصورتي على الجدار المقابل للسرير، الصورة التي أراها في الشارع ولكن بالألوان، وللمرة الأولى لها خلفية، طاولة البلياردو التي لم نقفز فوقها أبدًا ووراءها حديقة بيتي، وأنا مبتسم بالفعل كما أتذكر أني ابتسمت لكاميرا تليفون هدير في ذلك اليوم. شعرت بدوار، وبأن الغرفة فجأة صارت لها رائحة، رائحة فول سوداني زادت من دواري، وجئت أريح جسدي على السرير فاصطدم ظهري بشيء صلب، لاب توب، لم أزِحه بعيدًا، فتحته فكأنه كان ينتظرني، مفتوحًا على ملف لمحت فيه اسمي، فقرأت:

"رامي انت وحشتني، ورغم كل شيء أسعدني معرفة أنك لم تُقتل كما كنا نظن. ما اعرفش.. أنا شخصيًا أفضل الموت في شبابي، بالتأكيد دون أن أموت منتحرة أو مقتولة، ولكن بسلام قبل المرض وقبل اليأس. ستظن على الفور أني أعني قبل أن يتوقف الرجال عن الرغبة فيّ. الموضوع أكبر يا رامي، وأنا لا أقول إنك محدود الذكاء، أنا شخصيًا أحاول أن أفهم، أو أعبّر. أحاول أن أكتب، أظن أني سأكون موهوبة في هذا، لدي دائمًا شيء يلح عليّ في أن أقوله ولا أعرف كيف يُترجم إلى كلام. اعذرني لأني أكتب لك بالفصحى، أنا شخصيًا أضحك من جهلي بها، ولكن أعرف أن الكلام الكبير يُقال بالفصحى. قبل أن تسيء الظن بي، أنا لا أستخدمك في تدريب على الكتابة ولكن لأني

t.me/qurssan

أرتـاح معـك، تذكـر يـوم غضـب الجميـع ونحـن جلسـنا مذعوريـن في سـيارتك؟ هـذه الراحـة التـي شـعرت بهـا في وجـودك، ليسـت راحـة الأخ ولا الصديـق، بـل أقـرب مـن ذلـك. ليـس حبًّـا أيضًـا، أعتقـد، ولكـن كأني معـك أكـون في هدنـة مـن كل شيء، تمامًـا مثـل اللحظـات التـي كنـا نسرقهـا معًـا ونهـرب مـن الميـدان، كانـت النفـس الوحيـد الـذي آخـذه...".

انتفضـت مـن مـكاني عندمـا سـمعت صـوت إغـلاق باب الشـقة، وقفـت أمـام السريـر ثـم أدركـت أني نسـيت الـلاب تـوب مفتوحًـا. قبـل أن أتحـرك إليـه كانـت هديـر قـد دخلـت علـيّ، لم أبـرر تلصـصي؛ لأنهـا قالـت بهـدوء وهـي تقـترب منـي:

- ما تقلقش.. مش مشكلة.

وعـلى الرغـم مـن تسـامحها، جلبـت هديـر معهـا صهـدًا كان لا يمكـن تجاهلـه. قلـت ربمـا هـذه الحـرارة المعتـادة التـي أحسـها في وجودهـا، ولكـن كلـما كانـت تقـترب، كنـت أتأكـد أكـثر مـن أن الصهـد خـارج منهـا، تحديـدًا مـن عينيهـا، وتأكـدت حـين حضنتنـي، أحسسـت بلهيـب يقـترب مـن أذني كأنـه يخـرج مـن مسـدس لحـام في غرفـة مكيفـة، ولكنـي تشـبثت بهـا أكـثر، لم أنفلـت منهـا إلا حـين عـادت خطـوة إلى الـوراء، وقالـت مـن دون أي سـخرية:

- شكلك بايت في الشارع.. محتاج تستحمى!

الغريـب أني لم أشـعر بالخجـل، بـل وأذعنـت لرغبتهـا دون مناقشـة، وفي الحـمام خلعـت ملابـسي واستسـلمت لهـا وهـي تقـف عـلى حافـة البانيـو، تُحـرك رأسي إلى تحـت الـدش وتضـع عليـه

الشـامبو، تدعكنـي بالصابـون، لا تـترك منـي جـزءًا دون تنظيـف. الأغـرب أنهـا حـين بـدأت في تمريـر الصابـون عـلى شيئي لم ينتصـب بـأي شـكل. لا، لم أتذكـر أمـي، يـد أمـي كانـت عنيفـة في التنظيـف، هـذا مـا أذكـره، وعـلى الرغـم مـن عـدم انتصـابي ومـن أنهـا كانـت بملابسـها كاملـة، حافظـت حتـى عـلى ألا تبلهـا المياه، كنـت أشـعر بلـذة مُرجفـة في كل جـزء منـي، لـذة في كتفـي وظهـري وحتـى أصابـع قدمـي، أهـدأ مـن تلـك التـي تـأتي بانتصـاب، ولكـن أطـول، لا أعـرف كـم مـن الوقـت امتـدت، ولكنهـا لم تنتـه إلا مـع جـرس البـاب وانصرافهـا بعـد أن تركـت لي فوطـة فـوق الغسـالة.

توقعـت أن يكـون وراء الجـرس ضيـف جديـد، ولهـذا بـدلاً مـن أن أجفـف نفـسي وضعـت الفوطـة حـول وسـطي سريعًـا، وحملـت ملابسي كي أسـتغل الفرصـة وأعـود إلى الغرفـة أكمـل قـراءة مـا كتبتـه لي هديـر، ولكنـي وجدتهـا تنتظـرني في الغرفـة ووجـدت عـلى المكتـب جـردل كنتـاكي. بالتأكيـد أحـب الأسـاطير، ولهـذا وقفـت أنظـر إليـه حتـى قالـت:

- حظك بقى. هتاخد نصيب الراجل اللي مشي جعان ده.

ولكـن هـذا لم يوقفنـي، وتذكـرت عـلى الفـور حلـم هديـر وكنتـاكي الـذي عُـدت بـه إلى القاهـرة، فسـألتها:

- هو احنا أكلنا كنتاكي مع بعض قبل كده؟

فردت مستغربة السؤال:

- أكيـد مـش فاكـرة. أنـا باكلـه كتـير أصـلاً. كنـت باحلـم بيـه وأنـا عيّلـة بـس للأسـف بقـى معايـا فلـوس أجيبـه

t.me/qurssan

لما كبرت، وبقى بيجيب لي حموضة.

أُحبطت من إجابتها وجئت أرتدي ملابسي فأوقفتني، قامت من مكانها ومنعتني، طلبت مني البقاء عاريًا، طلب لم تشُبه صيغة أمر، بل رجاء، فوافقت، شيء ما كان ضعيفًا ومجهدًا في عينيها لا يمكن مقاومته، كأن نارًا قد أكلت شقاوة عينيها فتحولت إلى الرمادي. هدير كبرت، دون أن تخلع ملابسها رأيت جسمها تهدل وانطفأ، ولا أعرف كيف وجدت في نفسي بسبب هذا رغبة في أن أفتح أخيراً معها الموضوع الذي أتيت من أجله:

- هدير تعالي نسافر ونسيب الدوشة دي كلها!

- لا يا رامي.

- ليه بس؟ نسافر بره. معايا فلوس لحد ما نقرر هنعمل إيه.

- يا بختك يا عم. أنا مافيش راجل هيصرف عليا.

- هدير؟

- رامي أنا ما باحبّكش.

تجمدنا للحظات، متكومين ككيسين من القطن، ظلت تتفحصني لمدة ثم قامت من كرسيها وحضنتني برفق، ولكني لم أستجب وانفجرت فيها:

- أومّال أنا من غير هدومي دلوقتي ليه؟ والخريطة اللي عاملاها لنا في وسط البلد دي إيه؟ بتتسلي؟

لم تهاجم، وضمتني إليها من جديد، وحين هدأ جسدي واستقر في حضنها همست لي:

- ده كان عشان فاشخني اني نسيتك. تيجي ناكل؟

رفضت، فجلست هي على الكرسي وبدأت إخراج قطع الدجاج من الجردل. حين بدأت الأكل اندمجت كأنها نسيت وجودي تمامًا، ولم يعنِها في شيء أني عدت إلى السرير وأمسكت باللاب توب:

"صحيح أني شعرت بحب جارف تجاهك لمّا عرفت أنك قُتلت، ولكن هذا طبيعي ولا يعني شيئًا. بالتأكيد تعرف ما أقصد، فأنا لا أفترض أنك كنت ستحبني دون أن تجد رجالاً آخرين يسعون إليّ، وبالتأكيد تعرف أيضًا أن في يوم الثورة كنت ستحب أي بنت ستركب سيارتك، وكنت سأحب أي رجل يحبني وأنا مذعورة. طبيعي. اليوم كان دراميًا أكثر من أن نقاومه. ولكن، حين ظهرت هذه الجثة على طريق السويس، كنت أستعد، لأني كنت أتوقع مكالمة من أحد ما، يحاول بأدب التلميح عن الاحتياج إلى شخص يعرفك عن قرب للتحقق من هوية الجثة. كنت أفكر أن أقول لمن سيتصل أن يحاول الوصول إلى ندى، ولكني كنت أعرف يا رامي أنك تكذب كرجل، وأن ندى ليست قصتك القديمة، يومها فقط قبلت كأنثى تعرف كيف سيعجبك أن أبدو أقل ذكاء. المهم، في المشرحة وقفت أمامه، لا أعرفه ولا أعرفك. لم أتذكر شكلك. لا شيء عن طولك ووزنك ولا أي تفصيلة خاصة فيك. رائحته كانت مُقبضة ولكني لم أكن أتذكر أيضًا رائحتك ولا كيف كنت أحس بك. خرجت

t.me/qurssan

ووجدتهم ينتظرون رد فعلي، فبكيت. بكيت بحرقة حتى يكتفوا مني، لكنهم تناوبوا بأحضانهم عليّ. كنت أعرف كيف بعد ساعات ستتحول هذه الأحضان الليّنة إلى أفواه مفتوحة، فمنحتهم ما أرادوا وقلت إني أحبك، وقلت إننا كنا نخطط للزواج. تخيل يا رامي؟ ماذا كان يمكن القول غير ذلك؟ هل هذا ما كنت تريده، لا أظن، وكما قلت في كل الأحوال لم أكن أتذكرك...".

لا أعرف كيف دفعني ما قرأت للضحك، ربما إحساسي بالعبث التام، ولكني توقفت كي أضحك، ولمّا وجدت هذا لا يثير انتباهها ولا يقطع اندماجها في الأكل، وجدتني أستفزها:

- ما انتي طلعتي ممثلة شاطرة اهه! أمال الناس بتقول غير كده ليه؟

بان على وجهها لوم صافٍ، لا أعرف كيف حول الأمر فجأة إلى أن ما قرأته كان عاديًا وما قلته يجرح، وقالت:

- آه ما انا عرفت. حتى خالد نفسه بقى بيقول كده. عندهم حق!

فكرت أن أعتذر، قمت من على السرير وأمسكت بالأكل الذي كان في يدها قبل أن تضعه في فمها، أعدته إلى الجردل ثم أمسكت برأسها، بإحكام لا يسمح لها بأن تشيح بوجهها عني، ورقّة لا تجعلها تقاوم، وبدأت أذكرها:

- هدير انتي بتنسي. عادي.. مش معناها انك ما بتحبينيش.

فأبعدت يدي عن رأسها، ولم أقاوم، لأنها لم تبعدني بعنف ولأنها ضمتني من جديد إليها. ملمسها كان كالرخام الساقع وهي تقول:

- أنا فعلاً ما نسيتش أي حاجة.. فاكرة كل حد، كل حاجة، بس ناسياك انت.

ثم غابت لثوانٍ تغسل يدها وعادت، أغلقت النور واتجهت مباشرة إلى السرير وقالت دون أن تنظر إليّ:

- أنا هنام. عايز تيجي جنبي براحتك. عايز تمشي اتفضل.

لم أكن مستعدًّا لأن أنتهي، ولم أكن مصدقًا لأي شيء أقرأه، ولكن كنت أقرأ انتظارًا للنكتة التي سينتهي بها هذا الفخ. استلقيت بجوارها فوضعت نفسها في حضني قبل أن تغلق عينيها. لم تكن نائمة لأن يدها كانت تمر عليّ بحنوّ، كأنها تواسيني وتسعفني على قراءة ما كتبته لي:

"وأنت بالتأكيد تعرف كيف يُرعبني أن أفقد ذاكرتي. رعب حياتي يا رامي. يوم المشرحة السخيف، كنت على حافة الجنون وكان معي رجل، وقتها لم يكن يعلمني التصوير ولم أكن مساعدته. كان معي بحجة أنه يريد تصويري لمجلة ما. تعرف بالتأكيد يا رامي، فقد استهلكنا معًا كل الحجج. آه صحيح، إن كان هذا يهمك، أنا أتعلم التصوير، ليس للحفاظ على الذاكرة والكلام ده، عشان أكل العيش. نصوّر أفراح. أكره طقوس الأفراح، ولكنها تدفع الإيجار. المهم، رأيت وجهك على جدران وسط البلد؟ هذا الرجل رسمها. يومها لم يكن يريد أن يبدو

t.me/qurssan

بفجاجة أنه يغازل أرملة شهيد، لم أكن سأمانع، فبعيدًا عن أي شيء، أنت تعرف كم أحب كل شيء فجًّا وعلى طبيعته، ولكني وجدتني بدلاً من أن أصعد به إلى بيتي، أقوده إلى أماكننا السرية وأوجهه إلى أين يرسمك. أصبحت أفضل بعدها، على الأقل تذكرت الأماكن. وأتعلم شيئًا جديدًا. جديد موضوع أن أتعلم أصلاً. شكرًا، للمرة الأولى أشعر بالحاجة إليه. تعرف يا رامي، صاحبت ثلاثة كتّاب ولم أكمل كتابًا واحدًا لهم، وخمسة ثوار ولا أعرف بأي شكل ستضعني الثورة إن انتصرت في حياة أفضل، وأكثر من مخرج دون أن أشاهد أي من الكلاسيكيات، ومشجع كرة قدم من دون معرفة حتى قواعد اللعبة. هذا بالطبع قبل أن أصير أرملتك يا سعادة البيه. تصور نفسك ضحية كما تريد، على الأقل أنا لم أخدعك أبدًا ولم أورطك في أي شيء، ولكن هل فكرت وأنت تهرب إلى البحر ماذا سيفعل هذا بي؟ أو تريد أنا أيضًا أن أصدق أنك بريء لم تكن تعرف ماذا سيحدث إن اختفى أحدنا بعد سجنه مباشرة؟ المهم، هذه حياتك وأنت حر، ولكني لم أكن حبيبتك ولا زوجتك كي أصير أرملتك رغمًا عني. أصبحت لا أُثير في أحد سوى الشفقة، تعرف كم من الجهد بذلت في حياتي كي لا يراني أحد ضعيفة؟ تعرف أي شيء عن حياتي يا رامي؟ بالطبع غير أني جميلة وسعيدة. بالمناسبة لا أحد منكم يعرف، أمنحكم فقط القليل كي أستكشفكم، أصل إلى آخركم قبل أن تصلوا معي إلى أي شيء. أعرف عواقب أن يُخدش غروركم بسببي. أحاول تجاهل أنك اتهمتني بكل شيء لمجرد ظنك أني كنت مهتمة ببودي. بالمناسبة هو أيضًا حين فقدت الاهتمام به قبل أن يلمسني، منحني لقبكم المحبب،

"الشرموطـة"، وأطلـق إشـاعات عنـي في كل مـكان وأصبـح يـوزع رقـم تليفـوني عـلى المراهقـين في منطقتـه. مـش مهـم، المهـم أن كل هـذا انتهـى الآن. الوضـع صعـب. الـكل يتحـدث عنّـا برومانسـية لا أطيقهـا، والرجـال يتجنبـون التقـرب منـي احترامًـا لقدسـية مـوت حضرتـك. وصديقـاتي، لم تعـد واحـدة منهـم تعزمنـي عـلى حفلـة، الـكل يتجنبنـي لأنـه مـن المفـترض أن أكـون في أسى، يتجنبوننـي ولا يتركوننـي حتـى لحـالي، أشـعر أني مراقبـة مـن الجميـع، كنـت أحـب هـذا، ولكـن الآن مـع أي ابتسـامة سـأصير متهمـة، ولا يمكـن لهـذا أن يسـتمر".

لم أكمـل، مقتنعًـا بـأني في كل الأحـوال لـن أفهـم شـيئًا، وأني لم أعـد أريـد أن أفهـم، أريـد أن أسـافر وأقابـل ناسًـا جـددًا وأحـكي لهـم كل مـا حـدث بنسـختي أنـا حـين أؤلفهـا. أعـصر مخـي حتـى أتذكـر بيانـات إحـدى بطاقـاتي الائتمانيـة، أحجـز طائـرة في المسـاء لأمريـكا. بعدهـا تسـحبت ببـطء مـن عـلى السريـر، نظـرت إليهـا وقـد نامـت، فكـرت في أني أحبهـا، وفكـرت في أني أريـد قبـل السـفر أن أمـزق ملابسـها وأسـحقها بجسـدي، ولكـن مـع الصـوت الـذي أحدثتـه وأنـا أرتـدي ملابـسي فتحـت عينيهـا، كانتـا عينـين آمنتـين، تـدركان أكـثر منـي أني لا أقـدر عـلى أذاهـا حتـى بعـد أن ضربتنـي فكـرة شـككتني في صـدق كل مـا قـرأت، لم أقـدر أن أغـادر دون أن أرميهـا عليهـا:

ـ طب انتي بتكدبي دلوقتي عليّا وعلى الناس كلها؟

وردت بملل:

ـ ولا عليك ولا على حد.

t.me/qurssan

واجهتها:

- بتكتبي لي انك قلتي للناس اننا كنا هنتجوز، وأنا سامعك بوداني من شوية بتقولي قدام الكاميرا انك ما كنتيش تعرفيني كويس.

فقالت بخيبة أمل وهي تعتدل من جديد للنوم:

- مش انت يا رامي. مش كل حاجة انت. كنت باتكلم عن بودي، اتقتل امبارح في الاعتصام!

t.me/qurssan

48

كانـت الأرض مبتلـة، فافترضـت عـلى الفـور أني عـدت إلى سـفينة تيتانيـك، وقلـت إن هـذا الكابـوس صـار مملاً بقـدر مـا كان مرعبًـا، وكان مـن يسـير أمامـي يغنـي "ابتديـت دلوقتـي بـس أحـب عمري، ابتديـت دلوقتـي أخـاف لا العمـر يجـري"، فتأكـدت أنـه مصطفـى، أبويـا، وتبعتـه، سـعيدًا بمشـيته التـي كانـت تشـبه الرقـص، وبالمـزاج الرائـق في صوتـه، وعندمـا لمحـت شـباكًا بـدا كأنـه يطـل عـلى النـور، قلـت أن ألحـق بـه وأنبهـه إلى أن نهـرب قبـل غـرق السـفينة، ولكنه جـرى فجريـت وراءه. مـن اليافطـات فهمـت أننـا في مستشـفى قـصر العينـي، ومـن سرعـة أبي ندمـت عـلى أننـا بدأنـا اللعـب معًـا بعـد أن كـبر سـني عـلى لعـب الاسـتغماية. كان يسـبقني ويختفـي، فأتبـع ضحكتـه العاليـة ثـم أراه فيختفـي مـن جديـد، وهكـذا حتـى وجدتنـي وحـدي في غرفـة، أواجـه صـدى صوتـه الـذي صـار يتكـرر

ويعلو مع كل مرة أسمعه فيها. أين أنا؟ في قسم الولادة، ومع ذلك أمامي أطفال يدخنون وهم يلعبون البلياردو، أفزع منهم وأهرب من الغرفة إلى ممر، فيه أرى صفين من الكراسي، واحد للرجال وآخر للنساء، كلّ ينظر إلى من يقابله في الصف الآخر، أسير بينهما ولا يفسد عبوري هذا النظام. أسمع ضحكته من جديد، هذه المرة من وراء باب، أفتحه فأجدني في غرفة العمليات. على السرير مولود لا يشبهني، وعجوز منشغل في تجبيس قدميه بنفسه. أمام المولود قطعة من دجاج كنتاكي، كلما أمسكها وقعت منه. هاجس يقول لي أن أحمله وأهرب به، وآخر يقول لي أن أتركه في حاله. حين أحاول، أفشل في رفعه من على السرير. هو أثقل من أن أقدر عليه. تزعجه حركتي فيبدأ البكاء ثم الصريخ، ولا أجد فيّ ثديا كي أرضعه. أهرب من الغرفة إلى الممر وأجده بلا كراسي ولا رجال ولا نساء، وفي آخره أرى هدير، فأندهش لأنها ما زالت ترافقني في رحلتي، أجري إليها كي أعود للمولود بثدييها، أقترب فأجدها تتكلم مع أبي الذي ارتدى بالطو ناصع البياض، أوشك على القفز في حضنه، فتنهرني هدير لأني أجبرتها على السير في اتجاه خاطئ لا يصل إلى المشرحة التي يرقد فيها بودي. أسير معها متجنبًا النظر إلى الشفقة على وجه الدكتور، وأطمئن إلى سيره في اتجاه غرفة العمليات.

في الطريق إلى المشرحة كنت أدخن، وكلما كنا نقترب كانت عضلاتي تخمل وتُبطئ خطواتي، متمنّيًا أن تتوقف هدير عن الكلام، عن حكي ما يُقال عن الطريقة التي مات بها بودي،

t.me/qurssan

مع ثلاثة آخرين، وهم يحاولون قطع شارع صلاح سالم على السيارات لتأمين الاعتصام، وكيف كانت أبواق السيارات غاضبة وعالية لدرجة أنهم رأوا بودي يقع، دون أن يسمعوا صوت الرصاصة التي قتلته. لم أكن خجلان مما يدور في دماغي، عن أني أتيت إلى هنا فقط كي أسرق لحظة التكريم منه قبل السفر. كنت غاضبًا وأشعر بالسيجارة تخنقني. غاضب من أني ما زلت لا أحب بودي، وغاضب منه ومن أمثاله، من صخبهم الذي لا أود أن أسافر به وأنا أعرف أنه سيمنع أي نوم، وأي متعة، ويجعل كل شيء بلا معنى إن لم أقض ما تبقى من عمري مستعدًّا للموت من أجله، فقط لأن شخصًا ما قرر أن يطلق عليه رصاصة وهو مستعد للموت من أجلي.

سحبت نفس السيجارة الأخير، وهدير تنقذني من الاختناق:

- على فكرة. هو كمان ما كانش بيحبك.

رميت السيجارة، وقبل أن ندخل في كومة الناس المتراصة على أرض المشرحة، أخرجت من جيبي مفتاحًا وأعطيته لها:

- عشان لو حبيتي في أي وقت تاخدي نفس على البحر.

أخذته ودخلت في الزحام فاختفت.

لم يكن الزحام لكتلة حزينة سوداء كما بدا من بعيد، بل لكتيبة من النمل، لا وقت فيها للحزن ولا للحداد. تجولت أشاهد مجموعة تطرق على أبواب المشرحة بالحجارة تهديدًا، كلما سُمعت إشاعة أن جثمان بودي قد يتأخر للكشف عليه في اليوم التالي، ومجموعة أخرى تنعاه بالأغاني التي يحبها،

"قلناهـا زمـان للمسـتبد، الحريـة جايـة لا بـد"، ونـاس يحاوطـون أهلـه بأحضـان حلـت فيهـا وعـود الإتيـان بحقـه مـكان الدمـوع، وغيرهـم يشرحـون للصحفيـين كيـف قُتـل وهـو يهتـف حتـى آخـر نفـس، وآخـرون في خناقـة حاميـة مـع الطبيـب الـذي ألمـح إلى أن تقريـر الطـب الشرعـي قـد لا يذكـر وجـود رصاصـة في جسـده. مـاذا كنـت أفعـل عـادة حـين آتي إلى هنـا؟ كنـت أجلـس مـع المدخنـين في ركنهـم. جلسـت ولكـن لم أشـعل سـيجارة، وحتـى هـم كانـوا في انتظـار صديقهـم الـذي أتى بالإستنسـل والألـوان، ليرسـموا صـورة بـودي عـلى بُعـد عـشرة شـهداء مـن صـورتي.

كانـت هنـاك بالطبـع بعـض الدمـوع. فجـأة ينهـار أحـد أفـراد الكتيبـة فيسـنده الآخـرون لدقيقـة أو اثنتـين، ثـم أجـده منشـغلاً بـشيء مـا. لم يكـن شيء يتوقـف، حتـى ليُمنـح بـودي لحظـة مـن الحـزن الصـافي، فبـدأت أتعاطـف معـه، وأظـن أننـا أخـيراً نتشـارك شـيئًا واحـدًا، كوننـا غـير موجوديـن أمـام المشرحـة، رغـمًا عـن تأكـدي أني لم أصبـح غـير مـرئي، فهـذا أفسـح لي مكانًـا بجـواره عـلى الرصيـف، وهــذا منحنــي زجاجــة ميــاه، وهــذه قالــت لي وهــي تنعَـى بـودي عـلى تويـتر:

- آخر واحد كنت أتخيل انه ينفع يموت.

هنـاك دائمًـا شيء أهـم، قلـت لنفـسي. حتـى هنـا، أهـم منـي ومـن بـودي نفسـه. أهميـة لم أعرفهـا إلا حـين لاحـظ أحدهـم أننـي الوحيـد الجالـس بـلا مهمـة، فـمال عـليّ وبيـده خمسـون جنيهًـا:

- روح هات كرتونة عصير. أمه هيغمى عليها!

t.me/qurssan

فجأة أصبحت كرتونة العصير مهمتي العاجلة، التي شعرت أن العالم سينهار فورًا، إن لم أصل إلى ناصية الشارع وأنفذها بأسرع ما يمكن، وبإتقان لم يزحزحه بائع الكشك الذي كان من الخبرة بأن ينبهني:

- البقية في حياتك. بس مية وسكر أحسن من العصير!

أصرّيت على العصير كما طُلب مني، وبينما أحمل الكرتونة وأسير بها عائدًا، سمعت أصوات بكاء ونحيب كأنها تخرج من الأسفلت. نظرت إلى قدمي، كان بجوارهما الكابتن مجدي، صائد الخونة، مختبئًا بين سيارتين وغارقًا في دموعه. يجمع الحصى حوله ثم يركله، ويهمهم بكلمات غير مفهومة. وضعت يدي على كتفه ولكن عينيه كانتا تائهتين ولم يفسح لي مكانًا بجواره. لم أعزِّه، تفرغت لقطع الغطاء البلاستيك من على الكرتونة متخيلاً أن العصير قد ينقذه بطريقة ما، ولكن الكرتونة وقعت مني حين سحبني فوجدتني في حضنه. لم أقوَ على مقاومة جسده الضخم فوقع ظهري على الرصيف. يقوم من عليَّ فأخشى أن يتذكرني. يصرخ فيَّ:

- بودي ما ماتش! بودي مستحيل يكون مات.. إنتو كدابين ولاد وسخة.

يزيح من على ملابسه التراب وهو يقف، يتحداني قبل أن يختفي في طريقه إلى المشرحة:

- بودي ما ماتش وهتشوف!

يفزعني يقينه الذي لم تخدشه حقيقة أن والد بودي نفسه تحقق من الجثمان، وترن جملة الفتاة في أذني كأنها تخرج من جرس، "بودي آخر واحد كنت أتخيل انه ينفع يموت"، ولا أفهم منها غير أني كنت صالحًا جدًّا للموت. بودي يرقد هناك ولا أحد يصدق، أما أنا فقد تحولت من مختفٍ إلى شهيد في أقل من شهر، دون أي دليل، ودون جثة، وبقصة مهترئة لا تحتاج إلى ذكاء للشك فيها.

لا أعرف أيهما سبق الآخر، اكتشافي أني لا أستطيع العودة من جديد إلى المشرحة أم رؤيتي لأبي بعد أن أصبح طبيبًا، يمشي ويتكئ عليه العجوز المصاب في قدمه، المهم أني تبعتهما ورغم أني كنت أسير بسرعة وكانوا ببطء عجوزين، أحدهما على عكاز، فإن شيئًا ما جعلني لا أصل إليهما أبدًا، ولم أسع لهذا بجدية خشية أن أفُسد مزاجهما، وارتحت حين اختفيا في زحام ميدان التحرير؛ لأني كنت أريد أن أتبع نفسي بعد أن رأيتني مرسومًا على يافطة أكبر من حجمي، ندى كانت تحملني وتتجه بي إلى محمد محمود، لم يعد هناك داعٍ للتهرب منه ووصفه بشبيهي. تبعتهما، وعند دخولي الشارع كان كنتاكي مغلقًا، ولم تبتل يدي لسماع صوت الرصاص، وفي الشارع صرت أصم مثله، لم أسمع تحذيرًا للتراجع ولا نداء للتقدم، وكنت ثابتًا مثله مع أنه كان محمولاً وأنا كنت أسير على قدمي. مندهشان من كيف يصيب الغاز أصدقاؤنا بكل هذا الاختناق، غير عابئين بالكر والفر حولنا، ولا بمصيرنا، لم يعد شيء مخيفًا. أخيراً، أحمل طوبة فكأني أحملني معها، ثم يتحول ليل الشارع

t.me/qurssan

إلى ظلام دامس، وأشعر بلسعة اختراق شيء صلب لرأسي، فأرى نهارًا خارجًا من ثقب ضيق في جدار، وهدير بيدها مطرقة، تسلّمها إليّ فأشعر بصداع، أضرب بالمطرقة على الجدار فينهار وأرى ألوانًا، كل الألوان، واتساعًا، اتساعًا سعيدًا، أجري فيه وحيدًا وسعيدًا ثم يعود الصداع، وأرى دمًا، نازلاً من رأسي، فأقع ويحملني كريم، ومن بعيد أرى فتوات المدرسة الذين أصابوني، ودمي يُغرق قميص كريم، ويُغرق شعر أنجيلا، ماما، أراها وهي تربط دماغي بالشاش، وأراها وهي تسقيني الماء بيدها، وأرى الدم ما زال ينزل من رأسي.

أفيق في المستشفى الميداني، فيمتعني الألم ومشاهدة دمي وهو ينسال عليّ. أبتسم للدكتور وهو يخيط الجرح، سعيد بأني في هذه اللحظة بالذات ليس مطلوبًا مني شيء. أغلق عيني مرتاحًا لأني دون السؤال عن الساعة أعرف أني فوت ميعاد الطائرة، ثم أفتحها فيبتسم لي الدكتور، الدكتور جاسر، ويقول:

- كل الدم ده من طوبة؟ ماعلش يا بطل. العيال بتخاف تطلع قدام فبتحدف من بعيد.

بجواره فريدة، فم مفتوح وعينان متحجرتان:

- أنا حامل. ومسافرة.

أقوم فلا أجدها ولا أبحث عنها. تؤلمني قدرتي على المشي، والاختفاء السريع للألم. على ناصية الشارع أقف، ولا أودعه، بيدي طوبة لا أعرف أين سأتركها، وكلي أمل ألا تضطر ندى إلى أن تحملني معها هناك إلى الأبد.

t.me/qurssan

شكر

للحبايب:

لبنى درويش، إسلام حامد، محمد عبد النبي، عز الدين شكري، محمد شعير، فادي عوض، فيروز كراوية، ياسر عبد اللطيف، محمد سلطان، عوني أبو زيد، السيد كراوية، مريم صالح، عبد الرحمن غريب، حابي سعود، بهاء عوني، محمود دسوقي، زينب مجدي، أحمد فوزي صالح، أحمد خالد، مالك مصطفى.

هذا الكتاب لم يكن ليتم لولا ما منحتموه لي من صبر ودعم ونقد ومحبة.

نبذة عن الكاتب

كاتب ومهندس من مواليد القاهرة 1988. درس الهندسة الميكانيكية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وتخرج منها عام 2011. شارك في كتابة "صوت من الملجأ" الصادر عن دار نشر الجامعة الأمريكية باللغة الانجليزية عام 2009. وبالعربية، صدر له "قلق مزمن"، مجموعة قصصية عن دار شرقيات للنشر عام 2010.

t.me/qurssan

على عكس الراسخ تاريخيًّا، لم تكن تيتانيك تغرق بسبب اصطدامها بجبل من الجليد، بل كنا نُقصف بقذائف آتية من سفن بعيدة. وبما أنها ليست المرة الأولى التي أدخل فيها هذا الحلم، مشيت في وجهتي دون التفات لما يحدث حتى لا أتأخر على كيت وينسلت، ولكني رأيت هدير، فوق عند صاري السفينة، مرتدية زي زفاف، ودون مبرر واضح قفز إلى مخي أن هذه ليلة فرحنا، وأن الشماريخ التي رأيت الناس يطلقونها في الهواء ليست للاستغاثة، بل للاحتفال. فرح قلبي وقلت أن أجري لها قبل وصول المياه إلى فوق ركبتي، ولكنني لم أجد سلالم كي أصعد عليها، وانتابني شك من اللون الأسود الذي كان يرتديه كل حضور الحفل الغارق، ومن الفستان الأحمر الذي اكتشفت أني أرتديه. وعلى الرغم من أن الكل كان يهنئني وهم يعبرونني في اتجاه الصاري، فإن أحدًا لم يوافق على حملي لما كانت لي من رائحة كريهة، اكتشفتها بعد ما رأيت هدير على الصاري تبدأ الحفل وحدها وهي تغني من ميكروفون:

- ارفع كل رايات النصر. احنا شباب بنحرر مصر.

تصميم الغلاف: مخلوف/ ميجو

ISBN 978-977-313-756-4

9 789773 137564

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات